
إنعام بيّوض
رواية
هُوّارِيّة
ميم

هُوَّارية
إنعام بيوض / كاتبة من الجزائر
سنة الإصدار: الطبعة الأولى، 2023
حقوق الطبع محفوظة

دار ميم للنشر، الجزائر
E-mail : edition.mim2014@gmail.com

الإيداع القانوني: سبتمبر، 2023
ردمك: I.S.B.N: 978-9931-790-72-3

هُوَّارية

إنعام بيوض

هُوَّارية

- رواية -

ميم للنشر

«إنّ أيّ تشابه في الأسماء والأماكن والأحداث المذكورة
في هذه الرواية ليس سوى محض صدف.»

راحة يد، ترتسم عليها خطوط أزقّة بانتْ ثمّ امّحتْ. مصائر تشابكتْ ثمّ تفرّقتْ. أسماء تعالتْ ثمّ هوَتْ. حروف تنتظر من يجمعها ويهجّيها. كلمات ترقب من ينطقها ويفسّرها. أصوات متنافرة تروم الانتظام. قلوب حائرة يصل نبضها وعنفوانها لقارئة الكفّ: هُوّارية، اسم يختزل مدينة، كانت كما لم تزلْ.

هُوّارية 1

لا تزال مستلقية وعيناها تحدّقان في السقف المرتفع لعنبر النساء في مستشفى وهران الجامعي. تعتدل بحركة بطيئة. ظلام دامس يمحو معالم الأرجاء. تخترق خياشيمها رائحة أدوية نافذة. تمسك شعرها الطويل المسترسل بكلتا يديها. تشده راجّة رأسها في كل اتجاه في محاولة يائسة لطرد شياطين مزمجرة سكنت في دماغها منذ الحادث، ولإسكات النشيج المدوي في كيانها طنينًا متواصلًا. تشعر بالزحمة حولها. أصوات سحيقة تتناهى إلى مسامعها. أسرّة حديدية. خيالات ممشوقة تملأ المكان كأطواق دخان هلامية. هل وصلت إلى الحمام؟ أم إلى عيون الترك؟ أين حقيبتها المفزّرة بالمناشف؟ وأين الحذاء الأحمر القاني؟ بل أين هي؟

ما كان لها أن تتذكّر شيئًا مما حدث. سيّارة الإسعاف التي تنقلها تصدر صفيرًا متواصلًا وتنهب الأرض نهبًا في طريقها من عيون الترك عبر «الكورنيش» إلى وهران، على الطريق البحري المتعرّج. طريق لطالما سلكته صحبة هشام في السيارة رونو 4 الحمراء المهترئة التي يستعيرها ويقودها متباهيًا بيد واحدة، مع أنّه لا يملك رخصة سواقة.

تختلط الرؤى، فتبدّى لها المناظر الخلابة التي تتغير مع كل منعطف: الجبل ثم البحر، ثم البحر فالجبل، ثم البحر والجبل معًا. تسحب النافذة الصغيرة لتطابق مع نصفها الآخر، وتجعل الريح تدخل عابثةَ بخصلات شعرها الغزير الذي ينفلت خارجها هائجًا

مرفرفًا. تغمض عينيها لتحتمي من وهج حمرة الشمس الغاربة. يمتلئ صدرها بالنسيم الرطب. تلتفت صوب هشام لتراه يحتضنها بنظراته وترى البحر يخضرّ في عينيه.

تنصت إليه مبتسمة وهو يحدّثها عن الأفلام المصرية المفضّلة لديه. أفلام الخمسينات والستينات ونجومها: عمر الشريف، رشدي أباظة، فاتن حمامة، سامية جمال... تدهشها معرفته لأدق التفاصيل عندما يسرد عليها بعض المشاهد، ويقهقه مندفعًا بكامل جذعه إلى الوراء، أو يعتمر سحنة وقورة، ويستظهر بعض الحوارات بلهجة مصرية مكسرة. ثمّ يتوقف عن الكلام فجأةً محدّقًا فيها ويقول:

- راكي عارفة باللي تشبهي لناديا لطفي في الخطايا؟

وسرعان ما يستدرك بعد أن يتمعّن في تضاريس جسدها:

- لا لا، تشبهي لهند رستم في صراع في النيل.

لم تكن تعرف أيًّا منهما. وما همّها؟ هو يراها جميلة، وليذهب الكون برمّته إلى الجحيم. تشعر بسعادة غامرة، وتبدو لها تلك السيارة البالية وكأنّها طائر عملاق يرفلها على فراش من ندف الغيم، بينما يواصل هشام سرد أحداث من أفلام مختلفة، يختلق منها قصة تشبه حكايتهما، ويجعلها تعيش حلمًا يكون فيه راويًا ومرويًّا.

***

(هُوَّارية)

تستعجلني هديّة زوجة أخي هواري بلهجتها السوقية، وهي تضع أحمر الشفاه القاني على شفتيها المكتنزتين، وتلبس جلاّبتها الوردية

فوق فستان أخضر زيتي يكشف كل مفاتنها. فستان صنعته لها خيّاطة أمها والتي يناديها الجميع باسم الهجّالة التلمسانية. أعرف عندما تلبسه أنّها على موعد مع عشيقها.

كنت ممتنّة لها على قبولها مصاحبتي مع هشام إلى عيون الترك، مع أنّي أعرف أنّ لها مصلحة خاصة في ذلك:

- أيّا خفّي، حرّكي مصاصيتك، الطاكسي راه يقارع، ولآخر ناره قادية[1].

الآخر هو هاشمي عشيقها الطبيب الملفوف بالأسرار. سلب عقلها بالكامل، وهي «العشّاقة الملاّلة» كما تسمي نفسها. كان موعدها معه قرب المستشفى على الساعة السادسة والنصف مساءً. وكان علينا قبل ذلك أن نذهب إلى وجهات مختلفة للتخلص من رقابة أفراد عصابة أخي هواري. أخذ يراقبها بعد أن ضبطها متلبسة في سيارة عشيقها على الطريق الساحلي في وضع لا يملّ من وصفه، كلّما تمنّعت على زبائنه. لم يكن أخي هواري يهتم لأمري، يكفي أن أقول له، حين أريد لقاء هشام، بأني ذاهبة إلى الحمّام، وأعدّ حقيبة من القماش أضع فيها الفوطة وبضع مناشف. كل ما يخسره عليّ جملة واحدة يحمّلها كلّ سخريته: «الحمّام ما يقلعش الزعاقة»[2]. كان يراني دميمة كما أرى نفسي.

كانت الخطة أن نذهب أولًا إلى بيت الحاجّة هجيرة أمّ هديّة الواقع في حيّ «مْدينة جْديدة»، ثم تخرج أختها مع صديقتها تلبسان

---

[1] هيا بسرعة، حرّكي إليتيك. التاكسي ينتظر والآخر على نار.

[2] الحمام لا يغسل الدمامة.

جلاّبتينا، فيتبعهما المراقبون. لننسل نحن بعد ذلك في سيارة أجرة طلبناها مسبقًا لنتوجه صوب المستشفى. ومن هناك، حيث ينتظرنا الطبيب الغامض بسيّارته الألمانية المستعارة، يوصلاني إلى «سيدي الهواري» لأركب بجانب هشام في الرونو الحمراء.

***

في ذلك اليوم سرّها أن تقف في وجه أخيها هوّاري صارخة:

- خلّيني في حالي. نمشي للحمام وللا للمقبرة، ما عندك ما دخّلك.

لا تدري لمَ خطر ببالها هذان المكانان بالذّات. ربّما لأنهما، على ما تسمع من حولها، ما تنحصر فيه حياة المرأة: الحمّام لتغتسل، والمقبرة لتزور أو تُدفن.

متى كان ذلك وأين؟ العام الماضي؟ في زاوية سيدي يوسف؟ كلاّ. كانت متجهة نحو الكورنيش. «عيون الترك» بالتحديد. هشام بجانبها في السيّارة. تحس دفء يده يستشري في راحتها الباردة. تنفرط الهنيهات في ذاكرتها كحبّات عقيق تغرق في رمال. تحاول أن تلتقطها دون جدوى. يأتيها الصوت الصاخب ثانيةً، صوت أخيها:

- على من راكي تلعبيها[1]؟

تخرج الكلمات من فمها بطيئةً كما في الحلم:

- نبغي نزور.

يلتفت هوّاري نحو أمّه ساخرًا:

---

[1] من تستغفلين في ظنك؟

- أرواحي تصنتي للي قالتهم ارقدوا، بنتك باغية تزور.

يميل برأسه نحوها ويرفّ عينيه ساخرًا كما لو كان يلاطف طفلًا:

- تزوري؟ إيوه... غاية... باه تزيد البركة أكثر وأكثر. واحدة في الحبس، والثانية في سيدي الشحمي[1].

تتدخل أمها وفي نبرتها لدغة ندم مكبوت:

- هوّاري، خلّي أختك في حالها. البنت رايحة تهبل. أنا نروح معها لسيدي يوسف، ونزوّرها. راهي بين الموت والحياة. اتقي مولاك.

يمعن هواري النظر في أخته المستلقية على سرير حديدي تقشّر طلاؤه الرمادي المتّسخ، محاولًا تبين ما إذا كانت غيبوبتها حقيقيةً فعلًا. ثمّ ينتصب واقفًا كمّن يهمّ بالخروج، ويستدرك متصنّعًا الحنق، وقد انسل فيه إحساس طارئ بالشفقة:

- رايحة تهبل؟ سكنوها الجنون. أنا اللي غادي نهبل معاكم. مهبولة وتزيد تتمهبل. وأنت زيدي من عندك وعاونيها في التمهبيل. تآمني هذه المصيبة؟

«المصيبة!» تدّق الكلمة في رأسها كالنّاقوس. وينفرط شريط صور متزاحمة شغل فيها هوّاري جلّ المشاهد. لم يكن يفوّت فرصة لإذلالها.

تراه وهو يرفع حاجبيه الكثيفين ويهبط بوجهه ليكاد يلتصق بوجهها. تغطي غرّته جبينه، فيبدو حاجباه وكأنّهما امتداد لشعره.

---

[1] مصحة عقلية في وهران.

يخيفها منظره ويمتلئ قلبها شماتةً لبشاعته. خاصةً بعد أن أطلق لحية شعثاء متفرّقة الشعيرات لا تتناسب مع كثافة شعره، وذلك انسياقًا وراء فريق من رفقائه وزبائنه الذين هبط عليهم الإيمان كالبرق، فوجدوا في موجة التدين السائدة شكلا لملامح وجودهم المفقودة، فتحوّلوا من نكرات لا يلتفت إليهم المجتمع إلى شيوخ يطلقون الفتاوى في كل صغيرة وكبيرة.

كان يمدّهم بما يجلون به حلقات ذكر وشفاعة، ويشطفون ما تبقّى من وعيهم وإنسانيتهم.

كان هوّاري غريمها منذ أن بدأت تعي دنياها. هنيهات السعادة الفريدة التي دغدغت قلبها كانت من صنع هشام.

***

(هُوَّارية)

هشام. كنت أشعر به يتبعني عند خروجي من المدرسة دون أن أنظر إليه، ويدسّ في جيبي قصاصات أرميها دون أن أقرأها، إلى أن غلبني الفضول فاحتفظت بإحداها. لكنّي رأيته لأول مرة وجهًا لوجه في عرس أخي هوّاري. أو بالأحرى تنبّهت لنظراته الملحّة، ولمحاولاته تعمّد الارتطام بي وهو ينقل الصحون الملأى تارةً والفارغة تارةً أخرى. يشق طريقه بخفّة بين الطاولات المصفوفة تحت الخيمة الكبيرة رافعًا الصحون فوق رأسه، كما لو كان يبتدع رقصة على إيقاع الطبول والدفوف والبنادير. أين هو الآن؟

***

الضباب يغلّفها من كل جانب. تتسحّب جحافل الوجوه من ذاكرتها كمارد من دخان يدخل في عنق قمقم. لا شيء. لا شيء سوى هذا الصوت الحاد الذي يهشّم الفضاء:

- بنت الحرام، اشكون هاد الكبّول اللي يرسلك البراوات[1]؟

تحاول أن تتذكّر متى حدث ذلك. دون جدوى. لكن ما ذنبها أن أمسكت بورقة دسها شاب في يدها وهي في طريق عودتها من المدرسة؟ فتحتها لتقرأها، ثم انفرجت أساريرها بابتسامة حين حطّت على الكلمتين المكتوبتين بخط أخرق. لم تكن الرسالة موقعة. تبعها عدة مرات وتعمّد الارتطام بها ليعطيها قصاصة. لم تر وجهه، فهي غالبًا ما تمشي وعيونها تتبع قدميها كي لا ترى الخيالات التي ترافق المارّة. أسرّت بذلك لأمّها فنهرتها وأمرتها ألاّ تعود إلى ذكر مثل ذلك «الشْكيل[2]» إطلاقًا.

هناء، جارتهم في الحوش المقابل كانت الوحيدة التي لم تبد استهجانا أو تشكيكًا في روايات هُوَّارية، وتنظر إليها باهتمام كما لو كانت تعرف تمامًا عمّا تحدّثها. سيّدة مطلّقة على مشارف الأربعين وعلى قدر من الجمال، تعيل طفلين في السادسة والعاشرة من عمرهما. تعمل في ورشة لصنع الملابس الجاهزة في النهار وتقضي ما تبقّى من يومها وجزء من ليله في الدراسة. لا يزورها أحد ما عدا هُوَّارية حين تطلب منها حراسة ولديها من وقت لآخر. كانت قليلة الكلام، وهي صفة قلما شهدتها في نساء الحوش، تستمع إلى

---

[1] من هو اللقيط الذي يبعث لك رسائل؟

[2] الهراء.

حكاياها وهي غارقة بين دفاترها وكتبها، أو وهي تعدّ العشاء أو تغسل الأطباق. وبين الحين والحين ترميها بنظرات عطف وفضول، خاصّة حين تحكي لها عن الشاب الوسيم الذي يتبعها.

في آخر محاولة ارتطام لهشام، ارتبكت خطواتها لهنيهة، وما لبثت أن انتظمت ثانيةً. رفعت رأسها، والتقت العيون. ها هو أكثر شباب حيّ اكميل وسامة، هشام الذي تتحرّق البنات كلّهن طمعًا بالتفاتة منه. يتبعها ويهتم بهادون غيرها؟ ومن تكون؟ ليست شعلة من الذكاء، وتستغرب حين تصنّف من بين الجميلات. حتّى أنّ أمّها حين ضبطتها وهي تقرص خدّيها ليحمرّا كما تفعل هديّة، حدجتها بنظرة ازدراء وهي تقول كعادتها في استحضار الأمثال الشعبية بمناسبة وغير مناسبة: «خصّك غير السّواك يا معوّج الحناك!». ما الذي قد يعجب فيها؟ أهي بشرتها البيضاء الملوّحة؟ أم لون عينيها العسلي الذي يتلوّن مع أحوال الطقس؟ ليست قامتها الممشوقة بالتأكيد؟ فلطالما سخر منها أطفال الحي وهم يرددون: «طويلة وهبيلة». ولا صدرها الذي نفر على غفلة منها وتحاول إخفاءه، وتمويه وركيها العريضين تحت الألبسة الفضفاضة؟ تغمض عينيها، تحسّ بلفح أنفاس هشام في رقبتها. أنامله تتخلل خصلات شعرها الكستنائي المقصّب. تودّ لو أنّ تلك الخصلات تربط الأنامل إلى الأبد.

لكن، ها هو رأسه يتدحرج أمامها على الأرض وتبتسم لها العينان الخضراوان... تنظر إلى حذائها ولا تفهم سبب تخضّبه بالدماء. لعلّه ليس دمًا بل لون الحذاء؟ يغشاها الضباب مرّة أخرى ويبدو كل شيء بعيدًا. تتزاحم الأحداث والصور في ذهنها. تتقاطع. تتداخل. كما لو

كانت فيها مرايا موشورية. جيوش من النمل تزحف فوق جسدها. تتوقف عند عنقها. يلمع نصل يتقاطر منه دم قانٍ، تمسحه لحية محنّاة أسفل سحنة متشفّية، ويلعلع صوت جبّار: الله أكبر...

***

(هُوَّارية)

حين وصلنا إلى عيون الترك انقبض صدري فجأةً. رجوت هشام أن نعود أدراجنا، لكنّه نهرني بابتسامة عريضة أفشلت إصراري. كانت أنامل الليل قد بدأت تحيك نسيج العتمة وتسربل به الأنحاء. مشيت خلفه متلكّئةً والخوف يعتصر أحشائي. حزّ الحذاء الأحمر الذي أعارتنيه هديّة كاحلي.

لم أعتد على لبس الكعب العالي، خاصةً وأن مقاسه أصغر من قدمي. شعرت ببعض الارتياح حين احتوت راحة هشام يدي. كان شيء ما يخيّم على المكان يزيد من انقباضي. رأيت من بعيد خيالات رجال يرتدون «قشّابيات» غطّت قلنسواتها معظم وجوههم، فلا تظهر إلّا لحىً وأطراف عمائم مُسدلة. أفزعني منظرهم، مع أنني أعرف أنّ مدينة وهران، كغيرها من المدن في هذا البلد، ما إن تغيب الشمس حتّى تتحوّل إلى مرتع للرجال فقط. كانوا بالتأكيد يراقبون المكان. فقد سمعت أن بعض الجماعات كانت تهجم على المطاعم التي يتحوّل بعضها إلى ملاه ليلًا، فتقتل من تقتل من مرتاديها ثمّ تحطّمها. ازداد قلبي انقباضًا.

لمحت أمام المطاعم المصطفة على أطراف الساحة العمومية بعض الرجال المتأنّقين، ترافقهم نساء من مختلف الأعمار، وقد

لمعت المساحيق على وجوههن تحت الأضواء الخافتة لأعمدة النور. صور لا تشبه الفرح العامر الذي وعدني به هشام:

- غادية تفوّتي سهرة عمرك ما شفتيها حتّى في السيلما.

سألت هشام ونظراتي لا تزال تتبع تلك الأشباح الملتحية:

- وهادوك اللي راهم هناك واش يكونوا؟

استدار هشام جهتهم ثم أجاب مطمئنًا:

- ما تخافيش، هادوا أصحاب «عليها نحيا وعليها نموت»، باغين يهديوا الناس للطريق المستقيم.

وراح يردّد وهو يطلق قهقهة مكتومة: «الطريق المستقيم... الطريق المستقيم...».

كنت قد سمعت تلك العبارة يرددها جماعة «الفيس[1]» أثناء مرورهم في مظاهرات صاخبة بشارع وجدة، وهم يشهرون مصاحف ويهتفون بشعارات من بينها تلك. ويرددون في جموح مسيرتهم: الله أكبر... الله أكبر... وهي عبارة لم نكن نسمعها إلّا في الأذان. أذكر كم أرهبتني رؤية هذا الكم الهائل من الرجال والنساء الذين بدوا وكأنهم خرجوا دفعة واحدة من جوف الأرض. مع أننا اعتدنا منذ فترة على التغير التدريجي في ملامح السكان حين بدأ بعض الرجال يطلقون لحاهم وبعض النساء يغطين وجوههن. لكن رؤيتهم مجتمعين هكذا وصراخهم يعلو على صراخ الجارات في الحوش، جعلاني أشعر وكأني أشهد تحوّلًا إلى عالم آخر. واحد من تلك

[1] الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

العوالم التي نشاهدها في التلفزيون أو «صندوق العجب» كما كانت تسمّيه المُسنّات في حيّنا.

ركن هشام السيارة على مقربة من الساحة، ودخلنا في زنقة ضيّقة مظلمة، تشي روائح اليود والطحالب التي يجلبها النسيم أنّها في اتجاه البحر. توقّف عند مبنى في آخر الطريق تعلوه كتابة مطفأة الأنوار لم أتمكّن من قراءتها. دقّ على باب حديديّ، ما لبث أن فُتحت كوّة في وسطه برزت منها عينان محمرّتان وبادر صوت أجشّ:

- واش عندك؟

أخرج هشام من جيبه رزمةً من النقود وأشهرها أمام الكوّة. استدار صوبي ليجيب عن دهشتي:

- دخلت السلعة.

فهمت أنّه كان يقصد المخدرات التي كان يروّجها، حين تضيق به السبل، لحساب صديق له يُدعى خيطانو ابن صاحب حانة كارنو الواقعة في وسط حي اكميل. ثمّ أخبرني، بينما كان أحمر العينين يدير الأقفال لفتح الباب، بأن من يريد الدخول إلى ملهى «مون شاتو» العريق السمعة، عليه أن يأتي إما بالمال أو بالمشروبات الكحولية ليضمن الاستماع بأغاني الشابّة مختارية وكلماتها التي قطعتْ عرق الحياء. وراح يدندن: «كلّش فيه زَينْ ... والماتريل زَينْ، يا تبرادي يا دلاّلي».

لم أكن أتصوّر في حياتي بأنّي سوف أدخل يومًا مكانًا كهذا. لا يشبه في شيء تلك الملاهي الليلية التي نراها في الأفلام المصرية القديمة بالأسود والأبيض. بهو صغير خلف الباب الحديديّ يفضي

إلى صالة معتمة إلّا من بعض الشموع التي تضيء بالكاد طاولات ملأى بالزجاجات والكؤوس وصحون «الكمية»، وقد التفّت حولها أبدان مترنّحة صاخبة. تنفّست الصعداء حين وقعت عيناي على هديّة وبجانبها عشيقها الطبيب وقد دسّ يدًا بين ساقيها، والأخرى ممسكة بجهاز هاتف كبير الحجم لم أر مثله من قبل، يمعن النظر فيه متأهبًا، وكأنه ينتظر مكالمة مصيرية. أمّا هديّة فقد كان واضحًا أنّها في حالة سكر متقدّمة من الزجاجة الفارغة أمامها وتلك التي أحضرها النادل لتوّه وتلقّفتها منه بلهفة.

***

كانت هُوَّارية ترى هديّة جميلة في كلّ حالاتها، حتى وهي ثملة تمسح شفتيها المكتنزتين بلسانها مع كلّ رشفة. لوّحتْ لها بيدها، لم تنتبه إليها. في حين بدا الطبيب وكأنه في الموضع الخاطئ، لا يمتّ بصلة إلّا لشهوانية المكان ولشبق هديّة. جلستْ قرب هاشمي دون أن يلتفت إليها، غمرتها رائحة نفّاذة تكاد تطغى على رائحة الكحول المنبعثة من كل صوب. استغربتْ أن تكون لطبيب هذه الرائحة. لكنّه كان وسيمًا. حتى في تلك الحلكة يمكن تمييز تقاطيعه الرقيقة وبشرته البيضاء بجبين عريض تنسدل عليه غرّة سبطة. كانا يبدوان كزوج متآلف تمامًا إلى أن تفتح هديّة فمها بلهجتها السوقية، وتستدير نحوه: «تبغيني يالعطاي...؟ تبغيني، ياك[1]؟» كم كانت مثيرة للشفقة، هكذا فكّرت هُوَّارية. ما لبث الطبيب أن انتفض واقفًا بمجرد أن رن هاتفه، وهمس في أذنها قبل أن يغادر مسرعًا دون أن يترك لها فرصةً

[1] تحبّني أيّها القوّاد. أليس كذلك؟

للاعتراض: «حالة مستعجلة». وبينما كان يهمّ بالخروج، أُضيئت الأنوار وسط حلبة الرقص، وفُتحت الستارة لتبرز فرقة موسيقية مؤلفة من ثلاثة عازفين. ضجّت القاعة بالهتاف والتصفيق ولم تلحظ هدية أنّ رفيقها قد رحل.

***

(هُوَّارية)

كيف قبلتُ المجيء إلى هذه الخشة الموبوءة بحديثي النعمة ممّن نسمّيهم «البقّارين» والمومسات المتبرّجات. حاولتُ اقتناص نظرات هشام لكنّه كان منسجمًا مع إيقاع موسيقى الراي المختلط بصخب الحضور الهائج. فدمدمت بصوت أردته مسموعًا: «واش ادّاني[1]؟ كنت لاباس عليَّ.

بالفعل، كان يكفيني أن أذهب مع هشام لشاطئ البحر ككل العشاق الذين لا يجدون مكانًا أنسب للمداعبة واختلاس بعض اللمسات الحميمة والقبلات الخاطفة. صحيح أن أغلبهم اليوم لم يعد يغامر بارتياد مثل هذه الشواطئ، لأن الشرطة والدرك يلاحقونهم ويحبسونهم إلى أن يأتي أحد أفراد عائلات الفتيات ويتعهّد بتأديبهن. كان ذلك ضمن حملات مكافحة الآفات الاجتماعية في الوقت الذي كان فيه الإرهاب في أوجه، كما لو كان الحبّ آفة اجتماعية تستدعي تجنيد قوات حفظ النظام للقضاء عليها. لكن الأرجح أن السبب الأهم هو كثرة حوادث الخطف والاغتيال التي يقترفها الملتحون المهووسون بإله فتّاك. يقال إنّهم يغتصبون الفتيات أولًا

---

[1] ماذا دهاني؟

أمام أعين عشاقهن ثمّ يقطّعون أعناقهم بعد ذلك على مرأى الفتيات المهلوعات. لماذا خطرت لي هذه الأفكار الآن؟

***

لِمَ تحدجها أمها بهذه النظرات العطوفة؟ عيناها لا تقدحان غضبًا كالعادة. ولمن تكون تلك الطوابير المصطفة بخطّ متعرّج إلى ما لا نهاية؟ وتلك الخيام المنصوبة؟ وذاك الهرج والمرج؟ شعرها يتلألأ تحت أشعة الشمس الحارقة. يحيطها بهالة من وميض. يسترسل مخبّلًا لتحت خصرها. وهي تتبع الشمس. طيلة النّهار. أينما سارت. حيثما دارت. يراها النّاس. ولا ترى أحدًا. صبيّة تاهت. «وعدة سيدي يوسف» في أوجها. أضحيات مسلوخة معلّقة على مدّ البصر. يتقاطر دمها رويدًا، رويدًا. يمتصّه عفر الأرض. يعبق المكان بروائح اللحم النيئ. يتلوّن بياض بشرتها بحمرة نضرة. تضيع نظراتها في الحشود. تعشى عيناها. تزيغ. ترى ما سيأتي. ما لن يأتي. ترى جُملة الانتظار.

هشام

(هشام)

ماذا يعني أن تكون في الثامنة عشرة من عمرك، وتنهض كل صباح باحثًا عن بقعة تطأها قدماك، كي لا تدوس على أجساد من مختلف الأعمار، متراصة تحت «بورابح[1]» صيفًا أو شتاءً؟ هكذا يبتدئ النهار، أو ما تبقى من الليل. الأصعب أن تشق مكانًا لك بين تلك الصفوف حين يتملكك الإعياء فلا تدرك إن كنت تعفس على رأس أم قدم. أحيانًا، في أحلام يقظتي الأكثر شططًا، كنت أفكّر فيما تعنيه الرفاهية بالنسبة إليّ: بيت كبير لا يلتقي قاطنوه إلّا مصادفة، فراش وثير في غرفة بباب له مفتاح أغلقه متى أشاء، خزانة ملأى بملابس وأحذية «ماركة»... تتوقف قائمتي هنا، فأنا لم أجرّب البحبوحة في حياتي. وكما تقول أمّي: «اللي موالف بالحفا ينسى صبّاطو».

أتساءل كيف تمكّن والدي الذي لا نراه إلا نادرًا من إنجاب هذا الكم من الأولاد؟ أحد عشر طفلًا، توفي منهم اثنان وبقينا تسعة أنا رابعهم في الترتيب التنازلي. سبقني إلى هذا النعيم أخي المعروف باسم «الروجي». ولد غريب الأطوار وضعيف البنية، «لا يهشّ ولا ينشّ» كما كان يقول أبي، وتكبره بنتان على قدر كبير من الجمال الذي قد يجلب النميمة أو الفضائح في هذا المكان من العالم. تزوجت الكبرى هربًا من أجواء الحوش لتعيش مع زوجها البنّاء في بلدة الرمشي قرب تلمسان، أمّا التي تلتها فقد انقطعت أخبارها بعد أن

---

[1] غطاء صوفي عريض.

اختفت مع «بقّار»، أو أحد حديثي النعمة كما نسمّيهم. كان يتعاطى مع والدي نشاطًا مشبوهًا، أظنّه تجارة المخدرات. وهو أمر أمارسه شخصيًا من حين لآخر حين تسد الدروب في وجهي، وهي نادرًا ما تكون سالكة.

هكذا، وجدت نفسي كبير العائلة لأخ غائب في عوالمه الخفية، ولأب غائب أيضًا لا نعرف له مستقرًا ولم نفكّر فيه يومًا كربّ للأسرة. يشيع بأنّه يعمل حارسًا في مركّب «أرزيو» للغاز المُميّع، لكنّ الأرجح أنّه يمتهن كلّ ما يُعرض عليه من أعمال، ومنها ترويج «الكيف». وعندما يغلبه الحنين، يطلّ علينا بين الحين والآخر محمّلًا بالأغراض وبعض الهدايا، ويقصّ على أسماعنا مغامرات لا يصدّقها أحد.

لكنّ الفرحة لا تدوم طويلًا، إذ سرعان ما تثور ثائرته، بعد أن يختمر النبيذ في رأسه، ويوسع أمي ضربًا وهو ينعتها بأقبح الصفات:

- يا القحبة... منين جبتي لي هاد العرّام[1] على كل لون؟

كنت أتغاضى عن كلّ أفعاله وأحتمل كلّ العبارات الجارحة التي يوجهها إلينا وإلى أمّي، إلّا عندما يضربها بحضوري. حين كنت صغيرًا، كنت أغطي وجهي براحتي حتّى لا أرى الدماء تسيل من أنفها وهي متكوّرة تتلقى لكماته المسعورة وتشهق من الألم. لكنّي حين كبرت صرت أردّ له الصاع صاعين. كان ذلك مبررًا كافيًا ليغيب طيلة أشهر قبل أن يمنّ علينا ثانيةً بطلعته البهيّة.

بالفعل، حين أنظر إلى إخوتي أستغرب لانعدام الشبه بيننا جميعًا:

---

[1] العدد الكبير.

الروجي والأشقر والحنطي والأسمر وأخيرًا حتى الشنوي[1]... جئت أنا ببشرة بيضاء وشعر أسود وعينين خضراوين. والصفة المشتركة بيننا فيما عدا أخي الأصغر الشنوي هي طول القامة، وظنّي أنّنا ورثناها عن أمي التي يكنّيها الجميع بـ«هنّودة الزينة» لجمالها. وهي امرأة طيبة إلى حدّ السذاجة. تأخذ كل ما يقال لها كحقيقة مسلّمة. لا تحمل همًّا، وكلّ النوائب عندها نوافل يمحوها الزمن. المهم أن تشبع البطون. وكانت أقبح صفة بالنسبة لها يمكن أن تطلق على شخص ما هي «جيعان».

كنّا نسكن في أكبر غرفة لحوش تعيش فيه خمس عائلات. يقع في نهاية زقاق مواز للشارع الرئيس لاكميل. يملكه تاجر ثري للمواشي من مدينة سعيدة لا نراه إلّا في الأعياد. يأتي ومعه خروف أو خروفان، يطلقهما في صحن الحوش، ثم ينادي على المستأجرين كلّ باسمه أو بلقبه، ويتفاوض معهم حول كيفية دفع الإيجار المستحق عينًا بعد أن يأس من الحصول عليه نقدًا. غالبًا ما كان الرجال يختبئون ويدفعون بنسائهم اللواتي أصبحن يخرجن من تلقاء أنفسهن بمجرد سماع ثغاء الخراف، للتفاوض مع الموّال الذي يبدأ بالصياح حتى يحمّر وجهه وتنفر عروق رقبته:

– وين شفتوا مولى الدار يجي مرّة في العام باش يلقّط الكراء وفوقها يزيد لكم الكباش؟

فبادره النسوة، وهن يلقين نظرات خبيرة على أكوام اللحم والشحم المغطاة بالصوف الوسخ، بعبارات معهودة من قبل:

---

[1] الصيني.

- كل عام وأنت بخير... الله يبقّي عليك الستر.

- ياك تعرف البير وغطاه.

ما قدّينا وين نصدّوا[1].

كان الرجل تاجرًا محنكًا يعرف أن الدراهم الزهيدة التي قد يجنيها من الكراء لا تعادل، في أسوأ الظروف، ما يمكن أن يقتصده من أجور فتيات يأخذهن للعمل في بيته أو في مزارعه، أو صبية يسرحون بمواشيه. وهكذا، تعقد الصفقة بأن ترسل كل عائلة ولدًا أو بنتًا للسخرة نظير مبلغ إيجار مستحق، وكبش مفتول القرنين تتلقفه الأيادي بالجسّ واللّمس. حل يرضي جميع الأطراف. كان أخي «الروجي» الثالث في القائمة التنازلية لذرّيتا المصونة، هو من يتطوّع دومًا للقيام بهذه المهمة. وكان غيابه يشعرني بفراغ كبير.

عندما كنت صغيرًا، كنت أسارع للهرب من الحوش بمجرد إحساسي بقدوم العاصفة التي سيفجّرها والدي، بعد أن تفرغ آخر زجاجة نبيذ لديه، فيناديني بأعلى صوته:

- يا الكبّول[2]... روح عند كارنو قول له يعطيك قرعة شراب، وأنا من بعد نحاسبه كيما العادة.

والعادة لدى كارنو، صاحب الحانة القريبة من حوشنا في اكميل، أن يقايضه بالحشيش الذي يجلبه من المغرب مقابل ما يعبّ من نبيذ، عبر سلسلة لا متناهية من الموردين المتواطئين والغُفّل، ووالدي إحدى حلقاتها.

---

[1] ضاقت بنا السبل.

[2] اللقيط.

لم تكن حياتنا في غياب أبي تعيسة إلى درجة القنوط. فقد كانت أمّي تعمل في مطبخ مطعمٍ راقٍ في وسط وهران يرتاده الأجانب والموسرون. وغالبًا ما تحضر معها بقايا الأطعمة الفاخرة من لحوم وأسماك، وفي المناسبات تأتي بأطايب لم يسمع بها أهل اكميل في حياتهم، مثل الفواغرا والكافيار. كنّا نوزّعها أحيانًا على الجيران، لكنّهم كانوا لا يستسيغون هذا النوع من المأكولات، فتؤول وليمة تتلمّظ بها قطط الحيّ الجرباء.

من بين إخوتي وأخواتي كنت أفضّل «الروجي»، بشعره الأحمر المتموّج الذي يتركه مسدولًا على كتفيه وبشرته المنمّشة، وعينيه اللتين تتلونان حسب الطقس وحدّة السطوع بكلّ تدرجات الأخضر والعسليّ. لكن أكثر ما كنت أحبّ فيه هو رزانته وعمقه، مع روح فكاهة ساخرة، وسرعة بديهة لا مثيل لهما. اسمه الحقيقي هاني. أسمته أمّي المغرمة بالفنّ المصريّ على اسم المطرب هاني شاكر. وتصرّ على أنّ صوت شاكر أجمل من صوت عبد الحليم حافظ حتى لو كان يقلّده في إغماض عينيه حين يغنّي.

كانت في صغري حين تسمع بأن فيلمًا مصريًا يعرض على التلفزيون، تترك كل شيء وتصحبني عند جارتنا خالدية، وهي أمّ لشاب منطو ضعيف البنية ولستة بنات وزوج ما إن يخرج من السجن حتّى يعود إليه. لدرجة أنّ الجارات صارت تتندّر عليها كلّما حضر زوجها:

- راجلك راه بيرميسيون[1]؟

---

[1] زوجك في إجازة؟

- ردّي بالك، سبعة فيها البركة...

لم يكن أحد يعرف اسم ابن خالدية الحقيقي. كنّا نسميه سرحان. شاب في العشرين من عمره. شارد الذهن دومًا حين يسير في الحيّ. ينظر ولا يرى. قلّما رأيناه صحبة أحدهم. يغيب أحيانًا لفترة ثمّ يظهر ثانية. آخر الأخبار تقول أنّه التحق بسلك الشرطة، بعد أن خفّفت الحاجة الملحة لزيادة أعوان الأمن في هذا الظرف العصيب من شروط الانتساب. فصرنا نرى ضعاف البنية وحتّى أصحاب السوابق يرتدون البدلة الزرقاء. أعتقد أنّ هوّاري ابن حمّال الميناء وأخو من سأغرم بحبّها حتى النخاع كان الصديق الوحيد لسرحان، إذ كان يجد فيه أذنًا صاغية لكلّ ترّهاته، ويرى في قصر قامته وضعف بدنه شريكًا في عاهة تنغّص حياته. ويُقال إنّه عمل مخبرًا لدى مصالح الشرطة بإيعاز من سرحان نظرًا لمعرفته بكل خبايا الحيّ وقاطنيه.

كانت خالدية، مثل كلّ الجيران، تسرّ لزيارة أمّي، إذ كانت تأكل وبناتها مما تحضره أمي لمدّة يومين أو أكثر. لهذا السبب كان الجميع في الحيّ يحبّ والدتي وينادونها تحببًا ب «هنّودة الزينة» تصغيرًا لاسم «الهندية». وقد سُمّيت كذلك لأنّ عينيها مكحّلتان كبطلات الأفلام الهندية. وقد أورثتني أهدابها الطويلة وحاجبيها المقوّسين وشغفها بالأفلام المصرية القديمة.

كان أخي الزّوجي الذي يكبرني بأربع سنوات تقريبًا شعلةً من الذكاء. ترك المدرسة على الرّغم من تفوّقه في الدراسة لشدّة ضجره من الغباء المتفشّي. لكنّه لم يفقد حبّه للقراءة التي كانت تروي بعض فضوله اللامحدود. أحيانًا كان يجلب كتبًا كبيرة الحجم فيها تصاوير

ملوّنة، ويحضر ورقًا وأقلام تلوين ليستنسخ تلك الصور أو بعضًا من تفاصيلها. أذكر أنّي سرقت مرّة إحدى رسوماته ونسبتها إليّ أمام أستاذ التربية الفنية. لم يصدّقني بالطبع، لكنّه راح يتأمّلها باهتمام شديد، ثمّ حدجني بنظرة ساخرة وقال وعلامات الإعجاب لا تزال بادية عليه:

- عندنا بيكاسو ولا ندري.

كنّا حين نجتمع مع شبّان الحيّ لنتسامر ونلعب الدومينو ونتحرّش بالمارّات، تراه ينزوي في ركن غير بعيد ويسرح بأفكاره التي لم يكن لأحدٍ منّا أن يخمّن كنهها، أو يُخرج كتابًا جلبه من عند بائع الكتب القديمة في شارع أرزيو ويغرق في حناياه.

مع أنّه لم يكمل دراسته الثانوية إلّا أنّه كان قادرًا على مساعدتي في حل بعض مسائل الرياضيات، ومناقشتي في مواضيع من دروس الفلسفة التي كانت مقرّرة في امتحان الباكالوريا. امتحان أعيده للمرّة الثانية دون كبير أمل في النجاح. كان الروجي يعيش وحدة من عرف حياة أخرى أفضل، ولا يقدر على الخروج من سجن حياته الحاليّة. يبدّدها في غالب الأحيان في المطالعة. يلتهم كل ما تقع عليه يداه. كمّن يبحث عن سرّ ما في جنبات صفحة لم يقرأها بعد. وحين سألته لماذا يصرّ دومًا على أن يذهب ليرعى ماشية صاحب الحوش مقابل سداد أجرة غرفتنا التعيسة، أجابني دون أن تفارقه ابتسامته الحزينة، بشيء من السخرية على الذات:

- كل الأنبياء كانوا رعاة...

كانت شلّتنا تتألف من ابن كارنو صاحب الحانة الذي نسميه «خيطانو» أي الغجريّ، وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره. عريض

المنكبين، مفتول العضلات تحسبه يحضّر لمسابقة كمال الأجسام. لكنّه رفيق الملامح، ودمث الطباع بنعومة أنثوية تناقض إلى حدّ ما شكله الذكوري، بحاجبين أسودين كثيفين تكاد تبلغهما أهدابه الطويلة من فوق جفنين مطبقين. أطلقنا عليه اسم خيطانو لأنّ أباه يدّعي أنّه من أصول إسبانية، وقد كان يتكلّم الإسبانية بطلاقة. والأرجح أنّه كان يعمل قبل الاستقلال عند صاحب الحانة الأصليّ الذي كان إسبانيًا بالفعل واسم حانته كارنو. كان الإسباني المزيّف يستخدم ابنه ذو السّحنة البريئة التي تبعد عنه الشبهات في ترويج المخدّرات. ساعدته في ذلك مرارًا في أوقاتي العصيبة. وقد نشأ بيننا نوع من الصداقة الموقّعة بوتيرة وصول البضاعة، وارتفاع منحنى اليأس.

كان من بين المواظبين في شلّتنا «هوبل الفارماسيان»، بائع الصيدلية الذي يكبرنا بأعوام ويسعى لكسب رضانا بشتّى الوسائل، والمتيّم بغرام زوجة الصيدلي التي يلقبّها الجميع بالمازونيّة، نسبة إلى محتدها مدينة مازونة العريقة. يقسم أنّه كلّما مرّت بقربه، وتنفّس رائحة عطرها الأخّاذة، انتصب عضوه، فيضطر للدخول للمرحاض كي يقذف لواعج حبّه. ويقول إنّ من النساء من ينبغي أن تكون مشاعًا، لأنّه من غير العدل أن يستمتع بها رجل واحد فقط، أو على الأقل إفتاء تعدّد الأزواج للجميلات منهنّ. كما لو كانت تلك الحسناء المازونية ستقبل به زوجًا على دمامته ووضاعة أصله، ولو في جزيرة خالية. أسرّ لنا مرة أنّها قد تلين لو كشف لها القائمة التي سجّلها لكل زبونات زوجها اللواتي يخونها معهن في الغرفة الخلفية لتحضير المراهم والعقاقير، والتي يحتفظ بها في حال ما إذا اكتشف الصيدلي

ما كان يختلسه من أدوية، لشراء صمته أو لابتزازه إن اقتضى الأمر. كان يجلب لنا أحيانًا بعض المواد الكمالية من الصيدلية كمعجون الأسنان أو القطن أو بعض أنواع عطور الحلاقة الرخيصة. وصار بعد ذلك يأتي بحبوب يوزعها في آخر السهرة علينا جميعًا، فينتشي ليلنا.

أخي الروجي كان أكثرنا تأثّرًا. في أول مرّة ابتلع فيها إحدى الحبّات، انتابته نوبة هلع شديدة، اختبأ خلفي ممسكًا بخاصرتيّ متوسّلًا أن أحميه من السيّارات القادمة لتدهسه، ومن كائن مخيف سينقضّ عليه. أجهش بالبكاء، ثمّ تقيّأ صفراء مرارته. تطوّع هوبل الفارماسيان بأخذه إلى الصيدلية. أمسكنا به من تحت إبطه وانطلقنا. لم تكن الصيدلية بعيدة. وهناك أعطاه مسكّنًا، وتعهّده إثر ذلك بعناية خاصّة أثارت شكوكي. أخذ يعطيه الحبوب خفية على جرعات مخفّفة ومنتظمة إلى أن أصبح شبه مدمن، وآل إلى أن يشتريها منه بأثمان تزداد ارتفاعًا مع تعاظم اللهفة. فقد ضبطته مرّة وهو يختلس النقود من محفظة أمّي، ثم صار يرجوني صراحةً أن أعطيه المال، وهو أكثرنا قناعةً ولم يطلب مذ وعيت عليه شيئًا لنفسه. غير أنّه، ولحسن الحظّ، أقلع عن ذلك تمامًا بعد أن تطوّع بمقايضة نفسه ليرعى أغنام الموّال صاحب حوشنا مقابل أجرة غرفتنا فيه. لكنّ الدافع الحقيقي على ما أعتقد هو وقوعه في غرام ابنة الموّال، صاحب المزارع والحرائس في مدينة سعيدة. لاحظت ذلك من تغيّر ردّة فعله عندما كنت أحدّثه عن مشاعري إزاء ساحرتي «المنحوسة» هُوَّارية، فقد أخذ يبدي اهتمامًا غير معهود بما أقول، ثم ما يلبث أن يطرق برأسه ويغادرني إلى مواطن هواه القصيّة.

اكتشفت في سهراتنا الصيفيّة التي كنّا نمضّيها في الساحة الصغيرة الواقعة خلف السوق البلدي لاكميل، وأثناء أوقات التجلي التي كانت تمنحنا إياها تلك الحبيبات البيضاء، أن لأخي صوتًا جميلًا. وكأنّ أمّي حين أسمته هاني كانت تتوقّع له أن يصبح مطربًا. كان يغني بأداء شديد الحساسية، ويتقن طبوعًا غنائيةً مختلفةً من الطرب الشرقي والأندلسي، وحتىّ عيطات الفلامنكو التي صار يرددها بعد أن انضمّ إلى مجموعتنا هُوّاري ابن حمّال الميناء الذي لا حُسن يذكر فيه إلّا عزفه على القويثرة. فحين يحتضن آلته، وتتراقص أنامله على أوتارها، يتحوّل من مسخ إلى ملاك. إذ تراه يعانق الآلة كما لو كانت حبيبة عمره، ويميل برأسه على زندها وكأنّه يبوح بأسرار ائتمنته الدّنيا عليها، وتنزل غرّته الكثيفة لتغطي كامل وجهه فيبدو كحيوان أليف في وضع استرخاء. قدّمه لنا هوبل الفارماسيان في إحدى الأمسيات. كنت أراه في الحي يتسكّع هنا وهناك، ويتبع عربة بائع الماء الحلو التي يجرّها حصان أجرب.

لم يكن هواري ليعني لي شيئًا إلى أن وقعت عيناي على أخته. كانت في طريق عودتها من المدرسة. تمشي وهي تنظر أمامها كما لو كانت لا ترى أحدًا. بدت لي جميلة فوق الوصف. تقاطيعها مزيج من مريم فخر الدين، وناديا لطفي، وسميرة أحمد، وفاتن حمامة، وسعاد حسني و... لست أدري. من الصّعب تصوّر صلة قرابةٍ بينها وبين ذاك العفريت. تبعتها إلى أن تأكّدت من أنّها فعلًا أخته. لا يكاد الجيران يعرفون عنها شيئًا سوى أنّها أخت هوّاري الغريبة الأطوار واسمها هُوَّارية، وبأن أمّها تصفها بالمنحوسة. تأجّج فضولي: كيف يمكن

لهذا الملاك أن يجلب النّحس؟ وكيف يمكن لأمّ أن تنعت ابنتها بهذه الصّفة؟ لم أذق طعم النّوم طوال الليل. انتظرتها في اليوم التالي. لم تظهر. وكذلك في اليوم الذي يليه. أسبوع بأكمله وأنا أعيش مسكونًا بطيفها. شعرت حينها بأنّ الانتظار سبب وجيه للحياة، يملأها بمطلق التّرقب.

أخذت أتقرّب من هواري الذي لا بدّ وأنّه استغرب لاهتمامي المفاجئ، لكنّه لم يخف سروره، وراح يُمطرني بتفاصيل مملّة: كيف ترك المدرسة، وتعلم جني النقود بأقلّ جهد كان، وكيف تعرّف على هوبل الفارماسيان الذي يكلّفه ببيع أدوية ومستحضرات يسرقها من الصيدلية نكاية بغريمه الصيدلي المغرم بالنساء. بينما كان هواري يكرر كحكمة أزليّة أنّ المرأة بليّة الرجل. ولا يفتأ ينفث بين عبارة وأخرى مقته لجنس الإناث. ربّما كان يقدّر شحّة حظوظه لديهنّ. حتّى أنّه أراني صورًا محرجة التقطها لفتيات ونساء يتنزّهنّ بها. جاريته إلى أن فهمت منه أنّ ملوّعتي ذهبت مع أمّها لزيارة «سيدي يوسف». ضريح لأحد الأولياء الصالحين يقع في الطريق بين وهران وتلمسان.

أخيرًا عادت. شاحبة، سارحة أكثر من ذي قبل. مشيت قبالتها وعندما حاذيتها تعمّدت الارتطام بها. لم تتزعزع. واصلت طريقها. ولم تلتفت حتّى لتشتمني كما توقّعت، أو لتتعرّف على العثرة. بل تابعت سيرها وكأنني جدار نفذت من خلاله. في اليوم التالي، ارتطمت بها ثانية ودسست رسالة صغيرة في يدها، أمضيت الليل في إعادة كتابتها لعشرات المرّات، وخلصت إلى العبارة المقتضبة:

«باغي نشوفك». وضعت الورقة في جيبها دون أن ترمقني حتى بنظرة. تذكّرت بأنّني لم أكتب اسمي أو عنواني ولم أحدد موعدًا للقاء.

تكررت محاولات الارتطام الفاشلة المصحوبة برسائل خرقاء أكثر إسهابًا ومن غير توقيع. كنت أريد من وراء ذلك أن أثير فضولها. لكن دون جدوى. لم ترفع مرّة عينيها لتحطمها عليّ. كانت في كلّ مرّة تزداد جمالًا في نظري، وتحتلّ حيّزًا من أفكاري إلى أن أصبحت مسلوبًا بحبّها تمامًا.

حاولت التقرّب أكثر من هوّاري الذي كان مشغولًا بملاحقة إحدى جميلات الحي المعروفة بسمعتها المريبة. حدّثني عنها كثيرًا، وأراني صورًا فاضحة لها، لو كانت أختي لقتلتها. يصفها بأنّها صيده الثمين، ولا يفتأ يردّد بأن الحصول على واحدة من هذه الشاكلة يضمن للرجل عيشة الملوك. لم أفهم ما قصده تمامًا، لكن لا أحد يأخذ أقوال هوّاري على محمل الجدّ. إذ غالبًا ما يطلق الكلام على عواهنه، ويتبجّح، ويغتاب الناس ويفشي أسرارهم، ويقفز من موضوع إلى آخر بلا مقدّمات. حتى أني لم أتفاجأ عندما أعلن عن نيّته في الزواج من تلك الفتاة التي كان يبتزّها.

فرحت لعرس هوّاري. كان مناسبة مثالية للتقرّب من أخته. بدأت بالتدرّب على الارتطام. لم يكن ذلك بعسير، فحوشنا من الصغر بحيث يصعب أن تتّجه فيه من مكان لآخر دون أن تصطدم بأحد. اكتشفت أنّ لديّ مواهب في تنويع أشكاله: الارتطام من الجنب، والارتطام من الخلف بخطوة سريعة إلى الوراء، والارتطام من الواجهة وهو لا يخلو من مهارة، إذ أن جعله يبدو عفويًا أمر في غاية

الدّقة. لكنّ أصعبها هو الارتطام الاحتواء الذي يفترض أن تكون قوّة الصّدمة كافية لزعزعة توازن المصدوم فتتلقّفه الذراعان ويحتضنه الصدر. وهذا ما عليّ إتقانه.

جهّزت نفسي لهذا العرس وكأنّني العريس نفسه. قمت بكل الطقوس: الخياط والحلاّق والحمّام وحتى بيت البغاء. وعلى الرّغم من كثرة تلك البيوت في اكميل، إلا أنني قرّرت الذّهاب إلى «كوشة الجير» عملًا بنصيحة هوبل الفارماسيان المواظب على مثل هذه الأماكن، والذي تبرّع بمرافقتي مبرّرًا:

- أنا ناخذك باه ما يحشوهالكش[1].

وانفجر ضاحكًا وقد راقه هذا اللعب المزدوج بالألفاظ.

عرّجنا في طريقنا على قريبه العشّاب. أعطاه هوبل صندوقًا وكيسًا بلاستيكيًا أسود، وهمس في أذنه ببعض العبارات بلغة لم أتبيّنها. واستدرك قبل أن ينصرف، ففتح الصندوق وأخذ منه بعضًا من الحبوب البيضاء. واستدار نحوي بابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه الكبيرة الصفراء قائلًا:

- هادو يعدّلو لك القوسطو[2]، وتقلّع للسما السابعة...

كانت تلك المرّة الأولى التي أمارس فيها الجنس مع امرأة غير افتراضية. في المرّات السابقة، كان خيطانو، ابن صاحب حانة كارنو، يدعونا إلى المرأب الذي صار غرفته بعد أن كبرت أخواته، ويجلب لنا أفلامًا إباحية، فتنتصب أعضاؤنا بمجرد مشاهدة ثديين عامرين

---

[1] أنا آخذك كي لا يغشوك.

[2] المزاج.

تهزّهما الممثلة الشقراء بحركات لولبية مشهرة حلمتيهما كما لو كانت تستدرجنا لمصّهما بكلّ عنفوان الكبت المتأصّل فينا. فتنهمك أيادينا في الدّلك السريع، لينبجس حليب اللوز في كلّ اتجاه. شعرت أثناء أول فيلم شاهدناه بخجل شديد لعدم تمكّني من السيطرة على ما ينتابني. أمسكت وسادة وغطّيت بها حجري. أحسست بالحمّى تتفشّى في بدني وبالدم يتسارع في عروقي. لم أجرؤ على النظر إلى الآخرين خشية أن يكتشفوا أنّني غرّ. تخلصنا من ذلك الخجل سريعًا. واكتشفنا أن لخيطانو نوازع مثليّة بعد أن أقحم في حلقتنا الحميمة بائع السّمك المخنّث في سوق اكميل البلدي، وصار يستدرجه إلى جلسات انفرادية دون علمنا.

قادني هوبل إلى حيّ قصديريّ عبر أزقّة ترابية تملؤها النفايات والأوساخ. كنت أرتدي أجمل ملابسي. لم تكن فكرة جيّدة بالطبع. إذ لم يبق أحد في البيوت الهشّة إلا وخرج ليتفرّج على الغريب الممشوق. ولحسن الحظّ أن لهوبل الفارماسيان معارف في تلك الأوكار، فقد كان بين الفينة والأخرى يرفع يده في تحية لأحدهم:

- كي راك داير[1]؟ غاية؟ ما نسيتكش، هاه.

لا بدّ وأن له زبائن هنا حتى يتمتّع بمثل هذه الشعبية. كان هوبل يقوم بدور المرشد السياحي عبر الطرق المتشعّبة التي لا تخضع لأي تخطيط عمراني. هذه زنقة «كْلاه بوبي»، وذاك «طْريق البايرات» المسدود، وتلك «زنقة الحلّوف» وسُمّيت كذلك بعد هجمة الخنازير البرية التي تكاثرت بسبب ندرة الصيّادين الذين صاروا لا يتجرؤون

---

[1] كيف حالك؟

على التوغّل في الغابات المحيطة لاقتناصها وبيعها للقلّة من المعمّرين الفرنسيين، ممن فضّلوا المكوث في الجزائر بعد الاستقلال، أو لبعض الجزائريين الذين يستسيغون طعم اللحم الحرام.

مررنا على زقاق ضيّق، تصطفّ على جانبيه بيوت غير منتهية من الآجرّ والخرسانة، وينتهي بخرابة تفضي إلى البيت الوحيد المبني بالطوب. أخبرني هوبل أنّ اسم هذا الحي هو «ابني واسكت»، لأنّ لا أحد من قاطنيه حاصل على رخصة بناء. دخلنا البيت الذي عُلّقت على بابه يافطة كُتب عليها بحروف خرقاء: «حمّام الصالحين» وأضاف ربّما أحد المازحين كلمة: «والخانزين[1]». استغربت لهذا التمويه، فبادرني هوبل وقد فهم تساؤلي:

- تبّعني واسكت.

استقبلتنا «الماطرونة» التي كنت أتوقّع أن تكون امرأة بدينة متخفية وراء طبقات من المساحيق، بيد أنّها كانت على العكس نحيلة إلى درجة الهزال، وقد غطّت رأسها بوشاح أبيض فبدت وكأنّها انتهت لتوّها من إقامة الصلاة. شعرت ببعض الحرج، ورسمت خطوة للرجوع، لكنّها صعقتني بسؤال من دون ملطّفات وجهته لمرافقي:

- واقيل[2] هاد الشير[3] عمره ما ن...؟

أومأ هوبل بالإيجاب. فردّت بلهجة رتيبة وحاسمة وهي تقودنا عبر دهليز إلى الداخل:

---

(1) القذرون.

(2) أظنّ.

(3) الشاب.

- ربعين مية دورو[1].

استدرت نحو هوبل مستفهمًا، فدفعني قائلًا:

- خلّي، أنا ندبّر راسي...

لم تكن المومسات شقراوات إلا واحدة كانت شقراء مزيّفة أو كما يُقال هنا: «بلوندا بلا ربّي». لم يكن بينها وبين الممثّلة الشقراء التي شاهدتها في الفيلم الذي أحضره خيطانو أيّ وجه شبه. ولا يمكن لهذا المخلوق أن يثير شهوة بأيّ حال من الأحوال. توجّهتْ صوبي وسحبتني من يدي المتعرّقة ارتباكًا، وانزوت بي في ركن مظلم من الغرفة الكبيرة، المخصصة للاستراحة ونزع الألبسة وارتدائها بعد الانتهاء من الحمّام. بحثت بنظري عن هوبل لأستجير به من هذه الورطة، فلم أتبيّن سوى خياله العاري فوق إحداهنّ، وتناهى إلى مسامعي صوته الحاد يخاطبها بكلمات فجّة قلّما سمعت مثيلاتها بذاءة.

ثم بادرتني الشقراء المزيّفة بلهجة آمرة:

- انت ما تدير والو، أنا ندير كلّ شيء.

---

[1] 200 دينار.

هاني 1

(هاني)

اسمي هاني، من الهناء. يا للسخرية... أفضّل اسم الرّوجي. هل يعقل أن يكون المرء في ربيعه الثاني والعشرين ويعيش في جلدة كهل؟ مذ كنت طفلًا وأنا أعيش في حالة «سماع». نعم سماع. أسمع ما وراء الكلام. تتناهى إليّ كلمات أعرفها ولا أفهمها. أصوات مألوفة المعاني مجهولة المصدر متناثرة الحروف. ذهني مملوء بمخطوطات صوتية لا أول لها ولا آخر. كما لو كان مؤلفًا أزليًا ينتظر التناغم ثمّ البعث. كنت بحاجة دومًا إلى الصمت، أخلقه في رأسي، كيما أتمكّن من ترتيب هذا الشواش. قرأت يومًا في كتاب لا أذكر عنوانه «السماع هو الخروج عن مكامن الوجود والفناء في المطلق». كنت تراني حين أنصت إلى حديث أخمّن موضوعه وأستبق مجرياته بحذافيرها. يتملّكني الملل في غالب الأحيان، لأنّ النّاس من حولي يفتقرون للابتكار في اهتماماتهم، ومحدودية لغتهم المحكية تزيدهم فقرًا، وتمعن في بؤسهم. كنت أشعر بأنّ لي لغتي الخاصّة التي لا أسترسل فيها إلّا وأنا في حضرة الطبيعة. أتحاور مع النسيم يهزّ نصل العشب الغضّ، ومع السديم يخايل الأفق ويرطّب شذر الغيم. وحين أستلقي على فراش الأعشاب الطريّة أعتذر من الأزهار الندية، وأرتفع بناظريّ إلى السماء ألامس قبّتها. أحلم بعالم فسيح يتّسع لأصدائي، وينسّل الغلالات التي تبطّن ذاتي. كان يحلو لي أن أتخيّل مملكة في السحاب أعيش فيها بالشفافية التي أرنو إليها وأزيل الغبش الذي يكدّم حياتي

الحاضرة... من بين إخوتي الستة، أحبّ هشام. يعتبرني أخاه الأصغر مع أنّي أكبره بأربع سنين. أخذ عن أمّي طيبتها ووسامتها. أمّا أنا فلست أدري عمّن أخذت حمرة شعري ونمشي. روايات كثيرة تحاك حول أمّنا «هنّودة الزينة»، لكن لا أحد يصدّقها بخلاف والدي ومن بلغ منّا سن التمييز. يمازحني هشام أحيانًا حين يقدّمني إلى معارفه:

- الرّوجي، خويا في الميزيريا[1].

كان هشام يكره أن أتطوّع للذهاب إلى البراري لرعي أغنام صاحب حوشنا، في حين كنت أنتظر ذلك بفارغ الصّبر. فرصتي الوحيدة للاختلاء بنفسي وبالأصوات التي تملأ رأسي، والتي كانت تنتظم وتتآلف مع آنّات الناي، مؤنسي ورفيق وحدتي.

بعد أن تعلّمت القراءة والكتابة صار للأصوات أشكالًا شغلت حيّزًا زاد من حالة الاكتظاظ التي تغمر كياني. كان لا بدّ لي من متنفّس، وقد وجدته في قراءة الكتب التي تُرجع الأصوات إلى حروفها، والمعاني التائهة إلى مظانّها.

كنت أذهب لبائع الكتب القديمة في شارع أرزيو بوسط وهران. دكّان قد لا يتجاوز المتر عرضًا والمترين طولًا. كُدّست فيه الكتب لسقفه ما عدا حيّز صغير يتحرّك فيه البائع قصير القامة الذي يلبس، أيًا كان الطقس، قميصًا مقلمًا بخطوط عرضية، حتّى لتحسبه امتدادًا لصفوف الكتب المرصوصة.

كنت ألتقط أول كتاب تقع عليه عيناي، أقف على جانب المدخل وأمكث لساعات ألتهمه التهامًا، ولا أتركه إلا وقد أنهيته. خيّل إليّ في

---

[1] أخي في الشقاء.

البداية أنّ صاحب المحل لا يعيرني اهتمامًا، ولا يشعر حتّى بوجودي. لكنه أسرّ لي بعد أن أصبحت من المواظبين على محلّه بلهجة مرحة وبكياسة البْلدي، ليبدد حرجي من عدم تمكّني دفع المقابل:

- وجودك يخفف عن هذه الكتب مرارة انتظار من يقرأها.

قرأت كتبًا عديدة في الأدب والشعر والفلسفة والتاريخ وعلم النفس وحتى الرياضيات. أغلبها باللغة الفرنسية. والقليل منها باللغة العربية وجلّها مقررات التعليم الثانوي التي كنت أطالعها لمساعدة أخي هشام في تحضير شهادة الباكالوريا. كنت أفضّل قراءة الكتب باللغة الفرنسية لأنّها متوفّرة في شتّى المواضيع، بخلاف الشعر الذي لا أتحسّس رنينه ولا أتمثّل صوره بلغة أخرى غير العربية. حتى أني حفظت أغنية «رباعيات الخيام» لأم كلثوم عن ظهر قلب، أدندن مقاطع منها في الأمسيات المقيتة لشلّة أخي هشام حين كانت تجلو خاطري إحدى الحبيات البيضاء التي يحضرها هوبل الفارسيان أحد أفراد شلّة أخي هشام والتي لم أعد أستسيغها منذ أن غمرني حبّ الطبيعة وحبّ هبة.

قرأت مؤلّفات لأعلام الصوفية والفلسفة والأدب، لكنّ الغريب أني كنت أستوعب كلّ ما أقرأ، إلّا أنني لم أكن قادرًا على استظهاره أو استحضاره حين يسألني صاحب المحل عن فحوى كتاب أنهيته لتوّي. كما لو كنت أقرأ لشخص آخر يقبع في داخلي ويلتهم كل حرف أتهجّاه لملء غور فاغر سحيق القرار. كنت أشعر بأنّ عجلة الزّمن تدور بوتيرة القراءة، حتّى أنّني كنت أحيانًا أفلي شعري بحثًا عن شعيرات بيضاء كنت واثقًا من ظهورها.

خرج إليّ ذلك الشخص لأول مرّة من قرص أبيض أعطانيه هوبل في إحدى سهراتهم المملّة. ما إن ابتعلته، حتّى شعرت بانتفاخ في بطني ثمّ صدري ليصل إلى عنقي ويضيّق عليّ الخناق كما لو كان مخاضًا لكنّه في رأسي. هل ولدته؟ لست أدري. أذكر أني استنجدت بهشام الذي كان خائفًا أكثر منّي، ورحت أتلّوى على الأرض وأصيح كالمسكون ممسكًا بشعري وضاغطًا على صمغيّ بكلّ قوّتي لإخراجه. فتحت عينيّ في الصيدلية وهوبل يوجّه إليّ اللطمات ويدلق على وجهي دلوًا من الماء.

ذلك الشخص الذي يسكنني لم يخرج قطعًا. لم ألده لا من رأسي ولا من أيّ مكان آخر. أخذ يكبر فيّ، فلم أعد أحتمل صحبة أحد، ولا حتىّ هشام، ونهمي للقراءة تزايد بجنون كما لو كنت قد فتحت شهيّته بتلك الحبيبات البيضاء. والحروف التي أسرطها هي الغذاء الذي يبقيه حيًّا. لكنّي فقدت إحساسي بنفسي وبقدرتي على الإمساك بزمام أمري. شيئًا فشيئًا، أخذت أضيق ذرعًا بتفاهة الوسط المحيط بي وبعبثية لجوئي للمهلوسات. خجلت من نفسي ومن كل ما يختزنه رأسي من صفحات لم تُجد نفعًا. ما جدوى المعرفة إن لم تبدّد غمائم الشكّ وتنير درب اليقين؟ عمّا أنا باحث في كلّ ما أقرأ؟ ما الذي تغيّر في حياتي المطبوعة برتابة الفقر ووحشة القفر؟ أعيشهما كقدر محتوم لا مهرب منه؟ كيف يمكن لأيّ تغيير أن يحدث مع انسداد الأفق وتكالب الزّمن؟ النّاس تزداد جهلًا والعنف يتفشّى كالنّار في الهشيم. رحت أفكّر في طريقة للخلاص. أخذت أستعرض عدة طرق أحرر بها نفسي. الهرب؟ الانتحار؟ ربّما، ولكن

كيف؟ وهل أملك الشجاعة الكافية لذلك؟ ويا للمفارقة في هذا الزمن الذي تُزهق فيه أرواح لا تطلب إلّا العيش ولو بمحاذاة الحياة. راقتني فكرة الغرق. الغرق في عرض البحر يغني عن المآتم، ويمنح رحلة مدفوعة الأجل إلى رحم التكوين الأول، علاوة على أنّه يعتبر قربانًا يُقدّم وجبة لأسماك متصالحة مع محيطها.

هذه الفكرة جعلتني أتراجع عن موقفي إزاء ترّهات هوّاري صديق هشام المزعوم. قلّما كان هوّاري يتحدث عن والده، غير أنّه لا يفتأ يذكر سي هجّام حما أبيه الجديد الذي وعده بأن يشتري له فرسًا بعد أن أخفق في تسجيله بنادي الفروسية. لابدّ وأنّه كان يهذي، إذ كيف لهذا الزُّعبل أن يمتطي جوادًا؟ وكيف لذلك الحمّال في الميناء أن يشتري حصانًا وهو يجني بالكاد ما يسدّ رمقه ورمق أسرته؟ لكن سرعان ما تبدّدت تساؤلاتي حين فهمت من تقاطع أقوال هوّاري أن أباه وحماه يشتغلان في تهريب المهاجرين أو «الحرّاقة» داخل السفن الراسية إلى الوجهات الفردوسية التي يتحرّقون لبلوغها. يمارس أبوه ذلك طمعًا في المال كي يقيم عرسًا تلهج به الألسن لعروسه الثانية ابنة عميد الحمّالين، أما حماه المدعو سي هجّام أو «الشيوعي»، كما يناديه زملاؤه، وهو لقب أفظع من «الكافر»، فيقوم بذلك خدمة للشباب البائس الذي سُدّت في وجهه الآفاق. غالبًا ما تكون الوجهة صوب إسبانيا أو فرنسا أو إيطاليا، لا يهمّ، أي مكان بعيد عن جحيم إحباطاتهم يفي بالغرض. حين سمعته ذات مرّة، وقد أخذ منّي اليأس كلّ مأخذ، يحكي عن آخر عملية قام بها أبوه ووالد ضرّة أمه في تهريب ثلاثة من «الحرّاقة» إلى الضفة الأخرى من المتوسط. لمَحتُ

له بنيّتي في «الحرقة»، أجابني بثقة وكيل أسفار: «ماكانش مشكل، كي تعوّل خبّرني.»

لم يكن في نيّتي بالطبع السفر إلى أيّ مكان. كلّ ما كنت أرجوه هو الوصول إلى عرض البحر لألقي بذاتي المزدحمة في رحم أصل الوجود. ولم أكن أريد لجثّتي مهانة أن يتلقّفها شاطئ مهجور. ولا أن يقحم اسمي في السجلات المكتظّة للوفيات. ويُبنى لي قبر لا تزوره سوى أمّي. إذا لم يكن لدينا خيار في الخروج إلى الحياة، فلماذا نكر على أنفسنا خيار الموت؟ كنت واثقًا من أنّه طريقي الوحيد للخلاص. لم أكن متديّنًا، بل كنت أشعر بسذاجة الأديان. كلّها مجتمعة. بكلّ ما التصق بها عبر الزمن من سذاجة البسطاء ودجل رجال الدّين ودهاء الساسة، على الرغم من احترامي للمؤمنين وخاصّة المتصوّفة منهم. المجهول لم يكن يخيفني، ما يخيفني هو المعلوم. هذا العالم المتكالب والمنفصل عن الطبيعة والإنسانية. كلّ عقيدة تُقصي الأخرى وهي أكثر منها غيبيّة ومغالاة في صنع القيود الطقسيّة. كل دين يتبارى في رفع سقف الممارسات الشعائرية لتتوارى القيم ما بين ستائر المسموح والمحظور. ولطالما أرّقتني فكرة الإيمان، أراه مفهومًا يُخدّر العقل، ويُكرّس الخوف، فالراحة التي يزعمها المؤمن بإيمانه ماهي إلا مسوّغ لدحر خوفه. عدّلتُ هذه الفكرة حين تملّكني حبّ هبة. إذ أدركت أنّ الإيمان هو أصفى درجات المحبّة. الإيمان بالآخر الملموس إلى حدّ التماهي والفناء. إيمان يتحدّى الخوف ويبرّر الحياة. كما عدلت عن طلب مساعدة هوّاري في «الحرقة» لتنفيذ المشروع القاتل في عرض البحر، ربّما أطلبها في مشروع آخر يوصلني إلى برّ أمان ما.

أعرف أنّ أخي يجاريه للتقرّب من أخته «المنحوسة» كما يلقّبونها في الحيّ. وأنا كنت أجاري هشام حين يسهب في الحديث عنها بإضفاء صفات لا أظنّها تملكها. لكنّني أوافقه بأنّ فيها شيء مميّز، بخلاف جمالها المهفهف الذي رأيت بعض تبدّياته في نضارة نساء رنوار... لا زلت أذكر مدى انبهاري حين وقعت عيناي على صور ذلك الكتاب الضخم الذي يحمل عنوانًا أثار فضولي: «الانطباعيون». وتملّكتني الرغبة في رسم كل صورة من صوره. فاشتريت أوراقًا وأقلامًا ملوّنة ورحت أستنسخ مناظر طبيعية وشخوصًا ووجوهًا، حاولت فيها نقل الرهافة والآنية وعمق الإحساس. ولم أفهم حينها عبارة صاحب محل الكتب القديمة التي ألبسها مسحة من الأسى حين أطلعته على بعض رسوماتي:

- لا تفتح هذا الباب، قد ينغلق خلفك...

لست أدري كم من باب انغلق خلفي منذ أن وطيء فكري هذه الفضاءات المدهشة.

إزاحة فكرة الرحيل الأبدي لم تبعدني تمامًا عن هوّاري، إذ حلّت محلّها فكرة السفر والبحث عن عوالم أخرى أقل رتابة وسطحية. تقرّبي منه جعلني اكتشف فيه، خلافًا لما يُعرف عنه من ظلافة، إنسانًا ذي حساسية مرهفة خاصّة حين يتحدّث عن الخيول، وحين يعانق القويثرة بحنان كل الدّنيا. أدهشني ما يعرفه عن الجياد بمختلف سلالاتها وطباعها، وإسهابه في وصف حصان «البارب» المغاربي الأصيل، وحلمه في أن يمتلك واحدًا يومًا ما. شعرت أن في داخله شخصًا وديعًا لا يجرؤ على الظهور أمام الملأ. شخص يبحث عن

صديق أو أيّ إنسان يساعده على اكتشاف الجانب المضيء من نفسه، ومسح الغبار عن حبيبات البلّور المتناثرة في كيانه. أعتقد أنّه كان يثق بي، ويعتبرني كائنًا خارج السّرب، بحيث أنّه أخبرني في إحدى لحظات الاطمئنان عن عاهته المستديمة التي لا تفتأ تفجّر سخطه على والديه، وعلى العالم، وحتّى على الخالق. أثار تعاطفي عندما راح ذات مرّة، في لحظة ضعف، يبكي بمرارة على حصان نفق أمامه جرّاء سوء معاملة صاحبه. وأخذ يكيل لذلك الرجل الّلعنات والتهديد بالقتل. لكنّه بدأ يثير ريبتي عندما توقّف فجأة عن العزف على آلته الأثيرة، وراح يستشهد في كلامه بآيات يَلحَنُها ولا يفهمها. وكأنّ وعيًا من مستوى آخر قد استشرى فيه وأصابه بالوجوم، وهو الذي كان لا يكفّ عن السّخرية من نفسه ومن الآخرين. وعندما سألته عن سبب هجره لقيثارته أجابني بشيء من التردّد الذي يفرض الاقتضاب:

- الموسيقى لعبة الشياطين.

لم أعلّق رغم دهشتي.

دوائر السمر الليلي في اكميل مع الشلّة تحوّلت شيئًا فشيئًا إلى حلقات وعظ بعد أن تخشّع هوبل أيضًا. وانقطع عنها خيطانو ابن كارنو وصديقه بائع السمك المخنّث. كان هوبل الذي يعرف بالكاد القراءة والكتابة يأتي لنا بكتيّبات صغيرة رديئة الطباعة، ويتلو علينا ما تحويه من عظات وتعاويذ وأدعية فيها من الترهيب ما يجعل الحاضرين ينكمشون في جلساتهم خشوعًا ويتبادلون نظرات ريبة وخوف، وكأنّ صُور القيامة سينفخ بعد حين، وتفتح أبواب جهنّم.

بدأت أنا أيضًا أتنصّل من تلك الجمعات، خاصّة وأنّها لم تكن تروقني أصلًا. لكنّي بقيت على اتصال بهوّاري من أجل تنفيذ الفكرة التي راحت ترتسم في ذهني: السفر. السفر الذي يقطع دابر غربتي التي لم أعد أحتملها. من يدري؟ علّني أجد في الضفة الأخرى من أتحاور معه بلغة أفهمها ويفهمها الكائن القابع في ذاتي. لغة غير محدودة تحوّل الفكر إلى كلام غير منقوص.

لكن جاء من خلط كلّ أوراقي. قابلتها، أو بالأحرى شعرت بوجودها، في آخر مرّة ذهبت فيها إلى مدينة سعيدة لأسرح بأغنام صاحب حوشنا. لمحتها حين دخلتُ بيت أبيها بطلب منه. استدعاني ليعرض عليّ إمساك دفاتر حساباته لمّا توسّم فيّ بعض الذكاء المكبوت. وعرف بأنّي وصلت إلى مستوى الباكالوريا في التعليم. لم أخبره عن أسباب تركي للدراسة حين سألني، واكتفيت بالإطراق. بمجرّد أن عبرت بهو المنزل، وصلتني نفحات أخّاذة من عطر الياسمين أو الفلّ ربّما، مع وتيرة أنفاس ترتفع وتنخفض. كنت أسمعها كما لو كان لاقط أصوات مزروع في رأسي يستقطب أدنى ذبذبة تصدر عنها.

بَقيتْ لشهر أو أكثر تحوم حول المكان الذي أكون فيه دون أن تُظهر نفسها.

أستشعر أناملها تصفح كتابًا أتركه فوق المكتب الذي أعطانيه أبوها. صرت أترك لها كلّ يوم كتابًا مما حملته معي من دكّان شارع أرزيو. أتخيّلها تقرأه طوال الليل. وهو ما كان يحدث بالفعل. فقد ضبطتها ملتبسّة ذات صباح جئت فيه مبكّرًا إلى المكتب. رأيتها غافية

على الكرسي بتفريعة نوم بيضاء. بدت لي كملاك حطّ من ملكوت السماوات. التقطتُ بهدوء الكتاب الذي سقط من بين يديها على الأرض، ووقفتُ لدقائق أتأمّلها. غالبًا ما يكنّي الناس الجمال بالقمر، غير أنّ جمالها آت من أبعد المجرّات. ليس جمالًا بالمعنى المتعارف عليه، هو هالة من ضياء، بل هالات تحيط بذلك الكيان المرفرف. عرفت أنّها تحضر رسالة جامعية في علم الإناسة وتكبرني بثلاث سنوات، لا يهمّ، فأنا طاعن في الزمن.

توطّدت بيننا صداقة صامتة في البداية إلّا من بضع كلمات نتبادلها أثناء مصادفات مصطنعة، من قبيل:

- أعجبك الكتاب؟

- واه، مليح...

- نزيد لك واحد آخر؟

- واه...

ثمّ تنطبق شفاه اللمّا على صمت يودّ أن ينفجر.

لم أصدّق أذناي حين طلب منّي والدها مرافقتها إلى الجامعة عندما تغيّب السائق، والإرهاب كان قد أخذ يطال المدن بعد أن كان محصورًا في الأرياف. ومن شدّة انفعالي وحماقتي حاولت الاعتذار متحججًا بالعمل، لكنّه أصرّ. لا أنكر أنّي حين أوصلتها إلى باب الكلّية شعرت بالغيرة، وساورني الندم على تركي لمقاعد الدراسة. لماذا نفد صبري من الغباء السائد في الثانوية، قد تكون الجامعة فضاءً أرحب؟

كان البحث الذي كانت تعدّه هبة يضطرها إلى زيارة زوايا الأولياء الصالحين والتحدث مع مقدّمي أضرحتهم. فصرت أرافقها أينما ذهبت. كانت فكرتها أنّ استنهاض الحس الدينيّ القديم المتمثل في تركة الأولياء المتصوفين كفيل بالتصدّي للفكر المتشدّد المستورد، وتجفيف منابع الإرهاب. وتحمرّ وجنتاها حماسة وهي تحدّثني عن مشروعها:

- هذا ليس ديننا وهؤلاء ليسوا منّا... آباؤنا وأجدادنا كانوا مسلمين متصالحين مع أنفسهم ومع الآخرين. العودة للأصول معناها ملاءمة تلك الأصول مع العصر، ولا تعني إسقاط الماضي على الحاضر.

كان يخطر لي في تلك اللحظات أن أضمّها إلى صدري بقوة وأشبعها تقبيلًا، لكني كنت أكتفي بإيماءة موافقة غير مقنعة. لم تكن علاقتي بالأديان أصلًا متينة، فأضحت هي منبع إيماني. ما قرأته عن الوثنية والمسيحية واليهودية وحتّى الهندوسية جعلني أتعاطف مع الجوانب المتسامية في كلّ منها. لكن هل يحتاج المرء فعلًا إلى التطلّع للغيب كي يمارس إنسانيته الحقّة؟ ولماذا لا يتعلّم البشر من تجارب من سبقوهم؟ سؤال يشبّ إلى ذهني كلّما انتهيت من قراءة كتاب. «التاريخ يعيد نفسه»، مقولة بلهاء يرددها أناس ذوي ذاكرة سمكية. كنت أستغرق في تخيّل إنسان يولد وقد ترسّخت فيه كلّ المعارف من بداية الخلق. كيف يكون هذا الإنسان؟ هل كان سيحتاج إلى اختلاق الغيبيّات وشنّ حروب الأطماع وحروب المعتقدات التي حصدت كمًّا هائلًا من الضحايا على مرّ التاريخ، ولا تزال؟ هل سيثوب هذا العالم يومًا إلى رشده؟

أشعر أحيانًا بأني لا أستطيع أن أشاطر هبة كل ما يعتمر في نفسي وذهني. مع أن بساطة إيمانها تبهرني، ويبهرني حماسها. كلّ ما فيها يبهرني في الواقع، فأرمي لها بأول سؤال يحضرني:

- لكن ألا ترين أنّ للفقر دور؟

- الفقر... لا تحدثني عن الفقر... أجدادنا كانوا أيضًا فقراء... هُجّروا وسُلبت أراضيهم لكنّ دينهم الذي تمثّلوا سماحته كان محفزًا لاستعادة الكرامة لا لسحقها...

- لكنَّ الفقر ألعن من الكفر، وأنا أعرف تمامًا عمّا أتحدّث، وأعرف كيف ينصب الفقر دعائم السخط والتمرّد.

أصمت وتستمرّ هبة في حوار أحادي الجانب بينما تترك أصابعها تنقر بإيقاع منتظم على الطاولة أو على أي شيء آخر تجده أمامها، وأحيانًا يدها الأخرى. لم تكن لي رغبة في الخوض في مثل هذه النقاشات معها، ولا حتى مجادلتها فيما كنت أراه بعيدًا عن المنطق. إذ ليس من المجدي محاربة الغيبيّات بأخرى أكثر منها إغراقًا، ولا تُبنى الصروح على أسس رثّة. لم أكن إذّاك أريد لاختلاف أفكارنا أن يخمد وهج الحبّ ولفح الهوى. ندمت على ذلك أشدّ الندم بعدما هاجرت.

خَلُصتْ هبة من تقاطع أقوال زوّار الزوايا الذين استجوبتهم في الاستبيانات التي أعدّتها لبحثها، أنَّ بحوزة أحد مقدّمي الزوايا بنواحي تلمسان مخطوطًا قديمًا يعزى إلى واحد من كبار المتصوّفين، قضّى حياته في الترحال يجوب الأمصار بحثًا عن الحكمة الخالصة. فتملّكتها فكرة العثور على ذلك المخطوط بأيّ طريقة. روايات كثيرة

نسجت حوله، منها أنّ كاتبه ليس سوى الشاعر الصوفي «شمس الدين التبريزي» أو «شمس تبريز» رفيق جلال الدين الرومي وتوأم روحه. كتبه بعد مغادرته لمدينة قونية إلى غير رجعة، فقادته الأقدار إلى بلاد المغرب العربي ليحطّ رحاله فيما يعرف اليوم ببلدة الرمشي الواقعة قرب تلمسان. ورواية أخرى تقول بأنّ مؤلّفه هو محي الدين ابن عربي كتبه مع جلال الدين الرومي عند زيارته لدمشق ومكوثه أربع سنوات فيها. ورواية ثالثة واضحة الزيف تنسبه لابن خلدون. غير أنّ كلّ الروايات تتفق على عنوان المخطوط وهو «الياقوتة».

لا أنكر أنّ احتمال وجود هذا المخطوط أثار فضولي إلى أبعد الحدود. تخيّلته نصّا يختزن الحكمة الإلهيّة وتفسيراتها البشريّة على لسان من خبر عوالم لا يتلمّس شفافيّتها إلّا المكشوف عن صدره. يخطر لي في عميق تأمّلاتي أن أتقمّص ذهن كاتبه، وأطلق العنان لكلّ ما يجول في نفسي المترعة بالحروف والأصوات، أن أتغلغل في نفوس النّاس لأنفذ إلى أجمل ما فيهم وأرويه على لسان الإنسانية جمعاء.

هكذا، أصبح حماسي يجاري حماس هبة في العثور عليه. وبدأت أرسم له في ذهني محتويات هي مزيج من «نبيّ» جبران و«مثنويّ» جلال الدّين و«فتوحات» ابن عربي وفلسفة كونفيشوس والطاو. تخيّلت ما يمكن أن يكتبه إنسان عبر إلى المستويات الأخرى، ورأى العالم والعوالم الموازية من غير حجاب. يا لروعة ما قد يُكتب...

هُوَّارية 2

السماء المتلبدة بالغيوم بطّنت وهران من كل جانب، وسقفتها إلى علوّ منخفض. ومع أنّ الربيع يودّع آخر أيامه، إلّا أنّ الأمطار لم تتوقف منذ أسبوع.

هطول رطّب المدينة برمّتها، وأطلق روائح الأرض المخزونة منذ سنين، بعد جفاف يبّس المنطقة لأكثر من عقد من الزمان، ولفّ المدينة بقشرة من الغبار. أبهت ألوانها. كدّم ملامح سكّانها. أضاف لطابعها الريفي نوعًا من الإهمال والتداعي. على الرغم من طفرة عمرانية فوضوية لبناءات غير منتهية في أغلبها. تزيد ألوان الآجر الكميت، ولبنات الإسمنت الرمادية من تقشّف ورتابة المنظر العجاجي. أمّا العجلات المطاطية السوداء المنصوبة على أعمدة الخرسانة المشرئبّة لاستقبال طوابق أخرى محتملة، فتبدو كأختام لصد عيون الحسد، وتكريس انعدام الذوق العام. ومع ذلك، فوهران تقاوم التهالك والرتابة بالبساطة.

مدينة لا تفتأ تخترع من العدم مفردات مبتكرة للبهجة وتنشرها بما تحتفظ به من طُبوع.

تنظر خلفها من خلال النافذة الطويلة لعنبر النساء وهي مستلقية فوق السرير. تقابلها من الطابق الأول شجرة جاكارندا مزهرة بعناقيدها البنفسجية المثقلة بالقطر. تحتمي تحت مخملها بعض العصافير التي باغتها المطر. لطالما أحبّت تلك الشجرة. تعرف كل

الأماكن المغروسة فيها: ستة في اكميل وواحدة في راس العين، وأربعة في سيدي الهواري وثمانية في بلاص دارم[1] وأعداد أخرى لم تعد تذكرها في حي النخيل وفي سانت أوبير.

في الأسفل، وقع أقدام تخوّض في برك ماء شكّلتها الحفر. هل تنتظر أحدًا؟ لا شيء مما يدور أمام النافذة يعنيها. ولا حتّى خلفها. أسرّة مصفوفة عن يمينها ويسارها عليها أكوام بشرية هزيلة. لا تزال في هذه الصبيحة الباكرة تتعلّق بتلابيب النوم فيما يشبه الموت. بجانبها فتاة شاحبة، من سنّها تقريبًا. تغطّ في سبات عميق يحاكي الغيبوبة. من حين لآخر يفتر ثغرها عن ابتسامة تخاطب الملائكة. قيل إنّها حاولت الانتحار ولم تفلح بعد أن قتل جنود الشيطان حبيبها. ممن سمعتْ ذلك؟ لا يزورها أحد، اللّهم سوى ذلك الكائن الطيف الذي تتحسس أنامله صفحة وجهها البلوري في هدأة الليل.

شعرت بأنّ هذه الفتاة تماثلها حزنًا وضياعًا دون أن تدري السبب. أهي نفسها هي؟

تمرّ أمامها عجوز ضامرة منكمشة القامة، ذات وجه أبيض مسطّح يكاد يخلو من التجاعيد، وعينين بلا لون، رماديّتين ربّما. تتأبط شيئًا أصفر لم تتمكن من تمييزه، تحمل طاسًا وقنينة ماء بلاستيكية. تبادرها بابتسامة تكشف عن فم أدرد وبفرنسية لا تشوبها أي لكنة:

– Comment ça va ma fille? Un peu mieux? Courage, courage![2]

وأمام وجومها تستدرك بالعربية:

---

[1] ساحة الأسلحة.

[2] كيف حالك يا ابنتي؟ أحسن قليلًا؟ تشجّعي.

- كي صبحتي بنتي، راكي غاية اليوم؟ كي راهي أمّك وخوك؟ قولي لي إيلا جاءوا يرقبوا عليك.

ثمّ تكمل دون أن تنتظر جوابًا وهي تتابع طريقها إلى المرحاض الآسن، الواقع في الردهة خلف الباب، وتردّد بصوت لا يكاد يسمع:

- حتّى غبينة ما تدوم... حتّى غبينة ما تدوم.

كم من الوقت مرّ عليها في هذا المكان؟ تابعت بنظراتها تلك العجوز إلى الباب. رأتها خيالًا زائلًا. قرأت على الجزء الزجاجي العلوي من الباب بالمقلوب «قسم الصدمات والأمراض العصبية». هناك خطأ ما بالتأكيد. ما الذي جاء بها إلى هنا؟ كيف وصلت إلى هذا المكان؟ انفتح الباب فجأة ودخل جمع يرتدون مآزر بيضاء، يتقدّمهم رجل تجاوز العقد السادس من العمر تقريبًا، يتبعه شباب وشابّات، يتقلّدون سمّاعات طبية ويحملون كنّاشات وأقلام. لاحظت بينهم وجهًا بدا لها مألوفًا. طويل القامة، وسيم الطلعة، يقف بجانب شابّة شقراء ذات بشرة باهتة وعينين زرقاوين، يتبعها حيثما تحرّكت. تبدو قلقة وهي تحاول الابتعاد عنه وتحاشي نظراته.

اقترب الرجل المسنّ من سرير هُوَّارية. فهمت أنّه الطبيب رئيس القسم، وقد تحلّق حوله مساعدوه. انكمشت في سريرها واحتمت بملاءته. سألها وهو ينظر في الورقة التي نزعها من حافّة السرير الأمامية:

- كيف أنت اليوم؟

ثم أضاف ردًّا على التساؤلات الكثيرة التي ارتسمت على وجهها:

- أنت في المستشفى. ما اسمك؟

تابع وهو يعرف أنّها سمعته جيدًا:

- كيف؟ لم أسمع.

نطق الشاب ذو الوجه المألوف من دون تردد:

- هُوَّارية هشير.

استدار نحوه الطبيب باستغراب متسائلًا إن كان يعرفها.

ثمّ سألها ثانية:

- كم عمرك؟

...

استغربت كيف خطر على بالها امتحان الانتقال إلى سنة الباكالوريا. وكأنه حدث البارحة. كانت تشكّ في نجاحها أو بالأحرى كانت متيقنة من رسوبها. مع أنّها اعتادت خلال فترة تمدرسها أن تفتح كرّاسها أو كتابها قبيل أي اختبار تخوضه على الصفحة التي يوجد بها الدرس موضوع الامتحان. تراجعه بسرعة، وتدخل مطمئنّة. لكنّ فكرها كان مشوّشًا في تلك الفترة. لا تتذكر السبب بالضبط. طاف بذهنها لثوانٍ وجه مستبشر متهلل. أهو وجه هناء، جارتهم في الحوش؟ أم وجه هديّة زوجة أخيها هوّاري؟

قطع شريط الذاكرة المهلهل الطبيب المساعد ذو الوجه المألوف الذي أردف باللغة الفرنسية:

- 18 سنة. مسجلة في بطاقة الدخول.

انهمك الطبيب في شرح الحالة لمساعديه برطانة لم تفهم من كلماتها شيئًا سوى «شاهد على جريمة بشعة»، و«فقدان ذاكرة مؤقت» و«تروماتيزم». وقبل أن تفتح فمها بسؤال، انتقل الجمع برمّته إلى السرير المجاور. كانت تود أن تسأل الطبيب المساعد الشاب إن كانت قد رأته من قبل. لكن سرعان ما تلاشى السؤال من ذهنها. عدا عن أنَّ نظراته لم تكن تفارق الطبيبة الشقراء الباهتة الملامح التي بدت مرتبكة بعض الشيء.

لا يزال المطر يهطل بزخّات خفيفة، كتلك التي توقّع وتيرة سير الحياة، وتطفئ ظمأ أوراق الأشجار العطشى للمسة حنان نديّة. تتسربل الأشياء بالخفّة. تتباطأ الحركة. تلين الأمزجة. استرخت في الفراش وأغمضت عينيها. رأت المرأة العجوز التي اعترضتها هذا الصباح تنظر إليها من علٍ. هل كانت معلّقة في الهواء؟ بدت لها جميلة كالطيبة على محيّا رضيع حالم. كملاك لا عمر له. سمعتها تقول وهي تلوّح مودّعة:

- «حتى غبينة ما تدوم.. ما تخافيش يا بنتي.. حتّى غبينة ما تدوم».

ثم تلاشت ببطء، بينما راح صدى كلماتها يتردد بنغمة تصاعدية أيقظتها مذعورة. من تكون هذه المرأة؟ كان الوقت ليلًا. والكلّ نيام. حتى الفرقة الطبية المناوبة. نهضت من فراشها وتوجّهت نحو سرير العجوز في آخر العنبر فوجدته فارغًا. جلست على طرفه وراحت تصغي لأصوات عميقة تتلكأ على درب الرحيل. يختلط الأنين بالحنين. ويكتظّ الفضاء بثقل لا وزون. أخذت تجوب العنبر سريرًا بسرير. تتقفّى أثر الأصوات. لم تر سوى أجساد تنوء بأحمال الحياة.

ما مصدر كلّ ذلك اللغط في رأسها؟ هل كتب عليها أن تعيش بَين بيْن؟ بين الحياة ههنا وتلك هناك؟

تذكّرت وعدة «سيدي يوسف». الذكرى الوحيدة القادرة على استحضارها الآن في خضمّ هذا الشواش. أحست بأصداء البنادير والدّفوف في نسغها تشفطها إلى عمق الذّكريات. صبيّة تاهت. تبحث عن الشمس. «معطيّتلها[1]»، «احوالها صحاح[2]». هكذا كان الناس يقولون وهم يتبعونها عساها تنظر إلى أحدهم وتتفوّه بفأله. تتعالى الأهازيج. ترتعش الأبدان. تتوه العيون. تنعتق النفوس بفعل تسارع الدوران. تأخذها النشوة وتردد معهم:

- «بوطية الأركاب جاووا حطوا عند زواوة

سالهم واش ابغاوا، ابغاوا الجلالة

بوطية مات الصباح دفنوه العشوية

ما تسمع غير النواح في كل زاوية

بوطية وصاني على داره نبنيها

بالزليج والرخام والجلالة فيها

ريوا ريوا يا الجبال ريوا من قدامي

درقتوا زين الاعلام بوعلام الجيلاني

المحبة مثل التمر غالي في سوماته

والمحبوب ايلا انغدر يكثروا حيلاته.»

---

[1] مؤتمنة على كرامات الأولياء الصالحين.

[2] ساكنوها لهم قدرات كبيرة.

تدوّي صرخة تنطلق من قاع الأعماق: «هشاااااااام». تشعر بيد ترفع الغطاء عن وجهها. لا يسعفها ثقل جفنيها. تستأنف الدوران. تدور وتَدور وتدور تحت الشمس الحارقة.

في اليوم التالي سمعت هُوَّارية أنّ العجوز التي تدعى هاجر قد غادرت في الليل. لم يكن أحد يعرف عنها شيئًا، فلم يكن يزورها أحد. وقد اصطحبتها إلى المستشفى امرأة كانت تناديها مسعودة. تقبع أمام المبنى طوال النهار. وتغيب في الليل. قيل إنّ هاجر اختفت لأنّها لم تأخذ حوائجها. تركت وراءها كتبًا قديمة باللغة الفرنسية والإسبانية وضعت في غرفة المناوبة الطبية، وساعة حائط بلاستيكية صفراء باهتة على شكل قيثارة. كانت قد رأتها تتأبّطها أثناء تنقلاتها القليلة في العنبر. رأت الساعة مرميّة في صندوق القمامة الموضوع بجانب الباب. كانت بالتأكيد دليل وجودها. أو هكذا فكّرت هُوَّارية، وبدا لها ذلك الشيء وكأنّه يختزن كل ثواني عمريهما النّافلين. أخرجتها ومسحتها ودسّتها تحت مخدّتها. خطر لها أنها سوف تلتقي حتمًا بتلك المرأة لتسترجع دليلها.

هاجر 1

(هُوَّارية)

بعد خروجي من المستشفى لست أدري لم استحوذت عليّ فكرة البحث عن هاجر. تأبّطت الساعة البلاستيكية الصفراء التي تركتها وراءها، ورحت أجوب شوارع وهران.

بدأت باكميل حيث أسكن. كان يلوح في الأفق البعيد، على طول شارع وجدة، حصن سانتا كروس، الرابض فوق جبل مرجاجو وتحته الكنيسة التي تحمل الاسم نفسه. لا أذكر متى زرته مع هديّة وعشيقها الطبيب، لكنّي أذكر امتلاء صدري بأنفاس المكان وأطياف من أمّوه. رأيت وهران من علٍ فاردة خواصرها فوق الهضبة، تتلفّح بشمس المغيب وتعانق زرقة البحر. راح الطبيب كعادته يستظهر، أمام انبهار هديّة، تاريخ الحصن والكنيسة، وبأنّ الإسبانيين هم من بنوه في أواخر القرن السادس عشر. وقد شهد معارك طاحنة بينهم وبين الأهالي أفضت إلى طردهم من البلاد. أما تمثال مريم العذراء فقد نُصب سنة 1849 إثر انتشار وباء الكوليرا الذي حصد مئات الأرواح. حيث صعد الآلاف في موكب يتضرّعون للبتول كي تنقذهم. فهطلت أمطار غزيرة خفّفت من حدّة الوباء إلى أن انتهى. و بعد عام من ذلك، شُرع في بناء كنيسة صغيرة للتذكير بهذا الحدث الذي سمي «معجزة المطر»، ولم تنته الأشغال بها إلاّ في العام 1959. لا أنكر أنّي كنت أنا أيضاً منبهرة بكلّ ما يختزنه رأس هذا المخلوق من معارف. حتّى وإن كنت أشعر غالباً بأنّه يخاطب نفسه أو أشخاصاً آخرين غيري أنا

وهديّة حين يسرد التاريخ. قطعت الشوارع سيراً على الأقدام. فكّرت أنّي يمكن أن ألتقي بها خارجة من دار أو دكّان، كما يحدث لي مراراً عندما يراود خاطري شخص ما أو أذكره. عبرت حيّ سانانيس ثم تجوّلت في الحديقة العمومية لمُدينة جُديدة ومررت أمام قصر الرياضات. بعد ذلك، اتجهت يساراً نحو شارع معسكر الذي يغصّ بدكاكين العشّابين وبائعي عراجين التّمور. دقلة نور بالتحديد. التمرة التي تكشف شفافيّتها عن نواتها وتزاحم العسل في مذاقها. اشتريت علبة وعدت أدراجي إلى الحوش وأنا لا أزال أهجس بهاجر.

بدت لي فكرة العثور عليها مصيرية وكأنّها هي من سينشلني من تلك الدوّامات التي تعصف بي، وترمي بي في أغوار ملأى بأصوات الراحلين. لا أعرفهم، يزورونني في منامي وصحوتي، يقصّون عليّ حكاياتهم ويطلبون منّي أن أطيّب خاطر فلان، أو أن أبشّر آخر بقرب الفرج. وأحيانًا أن أنذر وأتوعّد.

كنت أيضًا أسمع صوت هشام وأراه يتقدّم نحوي وهو يحمل رأسه بكلتا يديه. وجهه ساكن وعيناه مغمضتان وشفتاه مطبقتان، لكنّ صوته يخترقني صافيًا نديًّا كما لو كان يخاطب شخصًا غريبًا:

- هل تعرفينني؟ هل نسيتني؟ أنا هشام، كيف حالك؟ غاية؟

غاية! بالطبع، أنا في أحسن حال. ومن مثلي، لا أعرف ما حلّ بي. كنت منحوسة وأصبحت ممسوسة. في الماضي كان الناس يرمقونني بنظرات الشفقة، والآن تغور أعينهم في محاجرها رهبةً كلّما حطّت عليّ. ويتهامسون فيما بينهم:

- المسكينة، فلتت.

- الله يحسن العون، المسكينة أمها.

- الله يجيب الشفاء.

لم أعد أحتمل البيت والحي والجيران، ولا حتى أمّي التي بدأت تغمرني بعطف لم أعتد عليه. وكأنّها تكفّر عن جفاء تنّبهت لفظاعته. طوال سنوات لم أسمع منها كلمة طيّبة. ولم أحس بأناملها تتحسس جسدي بحنان أو حتى بظلافة الأمهات اللواتي أراهنّ من حولي. كنت عثرة تصطدم بها وهي تدمدم وتدور بعصبية في البيت بعد عودتها من العمل لدى التلمسانية. تعيد غسل الأواني إن أنا سبقتها إلى ذلك لأنّها لا تطمئنّ لعملي، وتشرع في تحضير الوجبة حين لا تمنّ عليها ربة عملها بشيء من فضلتها. تسألني السؤال نفسه دون أن تنظر إليّ:

- وين راه خوك؟

أرد عليها بالجواب نفسه:

- ما على باليش.

هذا كل ما يدور بيننا من حديث. ثم تخرج إلى صحن الحوش لتسامر مع إحدى الجارات، أو لزيارة الهجّالة التلمسانية صديقتها الخياطة، فتلقفني جدران الغرفة الضيقة التي تضخم أصوات الغيب إلى حدّ الدويّ. أنظر إلى راحتي فأرى وجوهًا وخيالات وأقرأ حروفًا مختلطة وأسماء لا أعرف أصحابها. يتابني خوف كبير وأجهش بالبكاء. أحيانًا، كنت أذهب عند جارتنا هناء وأرتمي في حضنها، فتجفف دموعي وتصنع لي كوبًا من منقوع عشبة النّونخة أو ماء

الزّهر. وغالبًا ما كان يُغمى عليّ، وحين تعود أمي تحسبني نائمة، فترمي عليّ غطاءً ويصل صوتها إلى غيبوبتي وهي تبرطم:

- رقدتْ، شكارة النعاس. هادا ما تعرف غير الرقاد والسكات. كي الحجرة، ما تهش ما تنش.

هاجر 2

(هُوَّارية)

كان يمكن لي أن أبحث طويلًا عن هاجر دون أن أجد لها أثرًا. إذ لا أحد يكنّيها بهذا الاسم. أخبرتني بذلك إحدى جاراتها. امرأة زاد الشقاء في عمرها كانت تساعدها في أعمال البيت. أخبرتني أنّ اسمها مسعودة وهي التي جاءت بها إلى المستشفى. وقالت لي إن اسم هاجر الحقيقي هو: هيلين هامبرون، وليس بمقدور من عرفها في حي الحْمري أن يجزم إذا ما كانت مسيحية أم يهودية. لكن هناك من يزعم أنها يتيمة قبائلية الأصل. كفلها أحد الأطباء المشهورين في وهران عندما كانت في السابعة من عمرها، ورعاها وعلّمها إلى أن أصبحت ممرضة، وصارت تعمل معه في الجناح المختص بالولادة وطب الأطفال الذي يرأسه والد زوجته، وهو طبيب من المعمّرين الأثرياء كان يمتلك نصف وهران في ذلك الوقت. كنت قد سمعت عن هؤلاء من أحاديث عشيق زوجة أخي هدية الطبيب هاشمي المغرم بالتاريخ وخاصة تاريخ مدينة وهران. كانت هديّة في بداية علاقتها به تأخذني معها لإبعاد الشبهات، وتعرف أنّها لم تكن بحاجة لأن تطلب مني الكتمان. كان كلّما مررنا أمام مكان يحدّثها عن تاريخه وهو يعرف أنّها لا تفقه شيئًا مما يقول، لكن نظرات الانبهار في عينيها كانت ترضي غروره وتشعره بأنّه يسهم في تعليم الزَّوالية[1].

---

[1] البسطاء.

عندما كان هاشمي يقصّ على هدية تاريخ المستشفى الذي يرجع تأسيسه إلى أكثر من قرن، كنت أستبقه في ذكر الأحداث، فيرمقني بنظرة غريبة وكأنّه يجس نبض ذكائي. لكن عيناه اتسعتا حين أخبرته بكلماتي الخرقاء بأن أحد الطبيبين اللذين أسسا المستشفى أو السبيطار كما نسمّيه قد مات قبل أن يفرح بتدشين المركز. فاستدار نحوي بكامل جذعه وقال:

- كيفاش مات؟

أحسست حينها بأنه أراد أن يطرح عليّ سؤالًا تعجيزيًا لكي ينفي عنّي صفة الفطنة بعد جواب خاطئ يتوقّعه. فرددت دون تردّد:

- مات بالكوليرا.

تجاهلني وواصل بالفرنسيّة موجّهًا كلامه بلهجة جدّية لهديّة المأخوذة تمامًا حتّى وإن لم تكن تفهم الكثير، كما لو كان يستظهر محاضرة سيلقيها بعد قليل:

- كان المركز الاستشفائي الجهوي بوهران قد بني بهضبة سان ميشيل في العام 1877، بمبادرة من طبيين هما دويري وساندراس بمعية أحد الوجهاء الأثرياء ويدعى السيد ستورا. لكن وباء الكوليرا اختطف الطبيب دويري ولم يشهد كيف انتقل إليه بعد تأسيسه بست سنوات مرضى المستشفى العتيق «سان لازار» الواقع في شارع «دوزيم زواف»، ليسمى في العام 1958 بالمركز الاستشفائي الجامعي لوهران.

فكّرت فيما بعد أنّ عشيق المرأة العجوز هاجر التي قابلتها في المستشفى، لابدّ أن يكون من أحفاد ساندراس أو دويري أو ستورا.

معلومات لم تكن تهمّني على الإطلاق، ولا أدري لماذا ولا كيف علقت بذهني المترع بالروايات وقصص الأزمنة جمعاء.

لكنّ ما كان يهمّني في الحكاية أنّ سوء طالع هاجر أو «هيلين» جعلها تقع في حب الطبيب على الرغم من كونه في عمر أبيها لو كان لها أن تعرفه... عاشت معه قصة حب عاصفة؛ أثمرت طفلة لم يعترف بها الوالد الذي أخفاها فور ولادتها دون علمها، خشية أن تدمّر هذه المغامرة العاطفية حياته الزوجية والمهنية، وأن تطال أيضًا سمعته الأخلاقية، فالصبية كانت بمثابة ابنته. وقيل لهاجر أنّ المولودة ماتت ودفنت في مقبرة النصارى في حي الحمري القريب من المستشفى.

إثر ذلك، هامت على وجهها، وانتقلت من مكان إلى مكان. وفي كل مرة تنتحل شخصية مختلفة، وتختلق لها أسماء تنتشلها من عمق ذاكرتها. وتتقاطع معلومات عن التحاقها بصفوف جيش التحرير الوطني إبّان الثورة التحريرية، حيث عملت ممرضة وهرّبت كميات من الأدوية والضمادات كانت تختلسها من المستشفى، ربّما انتقامًا ممن خذلوها. لم يحدث أن ذكرت هي نفسها هذه الفترة من حياتها حتى لأقرب المقرّبين إليها. من يراها الآن وهي عجوز يخمّن من دون صعوبة أنّها قد كانت على قدر كبير من الجمال. شقراء، قصيرة القامة، بقوام منمنم بديع التناسق، ووجه رسمت على صفحته البيضاء تقاطيع رقيقة تتناظر فيها عينان لوزيتان بلون أمغري برّاق.

سمعت تلك القصة في الحُمري. آخر حي سكنت فيه هيلين في بيت متواضع يتألف من غرفتين: غرفة سفلية تجاور مطبخًا ضيّقًا

ودورة مياه، وغرفة علوية للنوم بها نافذة صغيرة تطل على مقبرة النصارى. لطالما رآها أهل الحي تشعل شموعًا وتضعها قرب النافذة قبل المغيب لتسرح أنظارها فوق القبور إلى وقت متأخر من الليل.

بقي البيت فارغًا ومفتوحًا منذ اختفائها. لا أحد يجرؤ على دخوله، ولا حتى اللصوص ذوي السوابق. على الرغم من احتوائه على بعض التحف والفضّيات والمفارش التي تنبي عن ذوق رفيع أقل ما يقال إنه لا يمت بأدنى صلة إلى أهل ذلك الحي اللاهثين وراء اللقمة. هكذا وصفت لي مسعودة البيت الذي «استعارت» منه أشياء كثيرة لم تعد هاجر بحاجة إليها على حدّ زعمها، وكانت تزوره من حين لآخر وتنام فيه. لكنها كفّت عن زيارته بعد أن ظهر لها «ساكنوه»، كما تقول، وطردوها منه لمرّات متتالية في هدأة الليل وهي شبه عارية. فكانت كلّما مرّت بقربه تردد وهي تصالب ذراعيها:

- مْسلّمين مْكتفّين... مْسلّمين مْكتّفين...

واصلتُ البحث عن هاجر، لكن دون جدوى، إلى أن جاءتني مسعودة ذات مساء والكلمات المكتظة في حلقها تتزاحم للخروج:

- ر.. را... راني جبرتها[1].

- وين؟

- عند «لي سور[2]».

خرجت فورًا صحبة مسعودة وتوجّهنا إلى مركز «أخوات الفقراء الصغيرات» الواقع في مطلع حي قاميطة. ثم تذكّرت شيئًا فعدت

---

[1] وجدتها.

[2] الراهبات.

أدراجي إلى البيت، وأخرجت من أحد الأدراج الساعة البلاستيكية الصفراء على شكل قيثارة.

كانت تلك المرّة الأولى التي أدخل فيها ذلك المكان، مع أنّه أحد معالم مدينة وهران. مبنيّ على الطراز الكولونيالي ويمكن رؤيته من عدة زوايا لوقوعه على شبه هضبة، ولصفوف أشجار النخيل الباسقة التي تتجاوز ارتفاعه، إضافة إلى عدد من أشجار الجاكرندا التي تزيّن فناءه.

قابلتنا راهبة في مقتبل العمر رغم بعض التجاعيد تحت عينيها الزرقاوين، ترتدي ثوبًا رماديًّا وقد غطّت رأسها بوشاح أبيض. وبعد أن شرحنا لها مطلبنا لم تبد أيّ نيّة في التعليق وكأنّها لم تفهم ما قلناه، وقادتنا عبر دهليز طويل إلى مكتب الأمّ الرئيسة. غرفة كبيرة بسقف عالٍ بها القليل من الأثاث: مكتبة على طول الحائط الأيمن بجانبها طاولة مربعة صغيرة ترتكز على جذع ضخم في وسطها، يحيط بها أربع كراسٍ منجّدة بجلد أخضر غامق عليه بعض علامات الاهتراء، كما لو أنّ قططًا نبشت بأظافرها الجلد العتيق. وقد عُلّق على الجدار خلف مكتب الرئيسة صليب خشبي كبير عليه منحوتة برونزية للمسيح المصلوب، بين نافذتين تصلان إلى السقف تقريبًا عليهما ستارتان من قماش الباش الأزرق.

بادرتنا الرئيسة متوجهة إلى كلتينا وفي نبرتها شيء من الاستغراب:

- لماذا تريدان رؤيتها؟

التزمت مسعودة الصمت، أمّا أنا فلم أعرف بم أجيب. سؤال وجيه: لماذا أريد رؤيتها؟ هل أقصّ عليها كلّ ما يمور في رأسي من

أشرطة وصور؟ هل ستصدقني إن قلت لها بأني جئت لأخبرها بأن ابنتها قد ماتت فعلًا لكن بعد أن تزوّجت وأنجبت، وأنّ حفيدتها تعيش مع أبيها في مدينة غير بعيدة عن هنا؟ هل أصف لها المكان بكل تفاصيله؟ هل ستفهمني إن قلت لها بأني أريد أن أريح قلب هذه المرأة؟ وأن ارتياحها هو تنفيس لذهني المترع بآلاف الروايات لمن أعرف ولمن لا أعرف؟ بالطبع لا أستطيع. اكتفيت بأن أشهرت أمامها الساعة البلاستيكية الصفراء وقلت بصوت خافت:

- جيت نردّ لها هذي الساعة.

نظرت إلينا الأم الرئيسة بعين مشفقة، وأومأت للراهبة بأن تصحبنا إلى مخدع هاجر.

كانت مستلقية على سرير خشبيّ يغطّيه إزار أبيض يكاد يصل إلى عنقها، بينما خرج ذراعاها النحيلان من فوق الغطاء وظهرت يداها اللتان غضّتهما السين وهما تحتضنان صليبًا نحاسيًا معلّقًا بسلسلة مزنجرة من المعدن نفسه. على جانب السرير، جلست راهبة طاعنة في السن تقرأ بصوت متهدّج من كتاب سميك قديم. هرعت مسعودة صوب السرير وهي تصيح:

- ماتت المغبونة... ماتت...

أغلقت الراهبة الكتاب وأشارت لها بالصمت بوضع سبابتها على شفتيها، وهمست بالفرنسية:

- Elle n'est pas morte[1]!

---

[1] ليست ميّتة.

لكن مسعودة ارتمت على سرير هاجر وأجهشت بالبكاء وهي تدمدم بحرقة:

- سَامحيني ... سامحيني...

لا بدّ وأنها اقترفت بحق تلك المرأة إساءات جمّة حتى تتوسّل إليها بهذه الطريقة. أمسكت بها الراهبتان وأبعدتاها عن هاجر التي فتحت عينيها، ومالت برأسها صوب مسعودة، ثم استدارت نحوي لتلتقي نظراتنا في حوار تخاطري عميق استغرق برهةً. رفعتُ الساعة الصفراء فتهللت أساريها فجأة وقالت، كما لو كانت تذكّرني بمعرفة سابقة بيننا، وبصوت يختزن حشرجة الموت:

- حتّى غبينة ما تدوم... حتّى غبينة ما تدوم...

هناء

«لن يكون هذا اليوم أقلّ تعبًا من سابقه». هكذا فكّرت هناء وهي تعبر الزقاق الضّيق المفضي إلى ورشة الخياطة التي تملكها سيّدة تلمسانية لا أحد يعرف اسمها الحقيقي ويلقّبونها «الهجّالة». كانت الساعة الخامسة فجرًا. الطريق خالٍ إلّا من بعض القطط التي هجرها النعاس من الجوع وراحت تغوص في أكياس القمامة المتفتّقة والمكدّسة أمام كلّ باب.

اتفقت مع ربّة عملها على أن تستبدل بورديّتها المسائية ورديّة الصباح الباكر. تجلس إلى آلة الخياطة لحياكة أعلام الرّاية الوطنية إلى أن تنهي خمسين علمًا، ثمّ تقوم بتنظيف الورشة لتجني مبلغًا إضافيًا تزيده لراتبها الضئيل. كان المشغل يتألف من قاعتين توصل إحداهما المخصصة لتفصيل الملابس النسائية إلى الثانية التي تخاط فيها الأعلام.

لم تكن هناء تعرف شيئًا عن الخياطة، ولم تتخيّل بأنّها ستضطرّ يومًا إلى الجلوس وراء آلة كهربائية تنهب القماش الأبيض والأخضر والأحمر غُرَزًا متسارعة تؤول علمًا كبيرًا يرفرف فوق الأبنية الرسمية، أو صغيرًا تلوّح به أيادي الأطفال في المدارس في المناسبات الوطنيّة. كانت وهي تخيطه تسترجع مكانة هذا الرّمز في نفس الجزائريين، إذ لا أحد يدري كيف ظهرت تلك الأعداد الكبيرة منه أثناء فرحة الاستقلال. عرفت حين ساعدت ابنها في تحضير موضوع حول العلم ليقدّمه في احتفال مدرسيّ لذكرى ثورة أوّل نوفمبر، أنّه بعد أن

كان أحمرَ في العهد العثماني وأخضرَ وأبيضَ تحت لواء الأمير عبد القادر، أخذ شكله الحالي على يد حسين بن اشنهو أحد أعضاء نجم شمال إفريقيا في العام 1934. وحمله لأول مرة الكشّاف سعّال بوزيد في مظاهرات 8 ماي 1945، وكان أول شهيد في تلك المظاهرات. معلومات قد يجهلها الكثيرون، حتّى هي لم تكن تعرفها، والاحتمال كبير في أنّ الهجّالة التلمسانية صاحبة المشغل نفسها لا تعرفها. ما يهمّها هو ما يدرّه عليها من مردود، وكلّ ما تعرفه هو قلّة الطلب على الأعلام، في هذه الفترة التي أدّى فيها تفاقم التّطرف الأصولي إلى فتور زخم الحسّ الوطني، وبلغ حدّ التشكيك في قيمة النشيد الوطني ومكانة الشهداء.

كانت هناء، بشهادة من حولها، تنعم بحياة رغد وترف مع زوجها الذي يملك مزرعة كبيرة للفطر ومصنعًا مجاورًا لتعليبه في مدينة سيق المشهورة ببساتين الزيتون وزيته الذي لا يضاهى. اقترنا بعد قصة حبّ لم ترق للأسرة الثّرية التي ينتمي إليها الزوج. بينما تتحدّر هي من عائلة متواضعة ممّن يسمونهم هنا «الشراقة»، أي القادمون من الشرق، حتّى وإن كان هذا الشرق لا يتعدّى مدينة غليزان التي تبعد بضعة كيلومترات عن وهران.

سبّب هذا الزّواج خيبة كبيرة لوالدها المعلّم الذي كان يحلم بأن تدخل ابنته الوحيدة كليّة الطّب بعد حصولها على البكالوريا بتفوّق. لكنّ الحكم الفصل كان لأمها التي لا ترى لابنتها مستقبلًا أفضل من زيجة مباركة بالمال والرفاه.

***

(هناء)

لم يبق أحد لم يلق عليّ اللّوم لتركي بيت الزوجية وطلب الطّلاق. فحين تطلبه المرأة ينبغي أن تقع حالتها ضمن سبعة أسباب تجيز أبغض الحلال. وإلّا تصبح ناشزًا وتُجبر على الرجوع. هذا ما عرفته من المحامي الذي أوكلته القضيّة وما تعلّمته في دراستي للحقوق التي شرعت فيها منذ ثلاث سنوات. انقطاعي عن الدراسة لعشرة أعوام إثر زواجي لم يفقدني نزرًا من توقي للتّعلّم. أسعد اللحظات أقضيها وأنا ألتهم الكتب ومسودات المحاضرات التي أحضرها وتلك التي أنقلها عن زملاء وزميلات الجامعة. لم أكن أريد أن أتّهم زوجي بأيّ من الأسباب السبعة تلك، وفضّلت الاستمرار في القول بعدم التوافق بيننا. استغربَ المحامي وأراني بعضًا من العرائض التي كتبها زوجي يتّهمني فيها بالفجور وبكلّ الموبقات. لكنّي أصرّيت. لا أريد لولديّ أن يكتشفا يومًا بأنّي شهّرت بأبيهما. في الحقيقة لم يكن إنسانًا سيّئًا، لكنّ غيرته العمياء حوّلت حياتنا إلى جحيم. إضافة إلى ما تنفثه أمّه وأخواته في أذنه من سمّ زعاف كلّما سنحت لهنّ الفرصة. أوّلها وأفظعها كان بثّ الشّك في نفسه في أبوّة ابننا البكر سامي.

أمور كثيرة لم أكن أعيرها اهتمامًا في بداية عشرتنا، كأن أردّ على الهاتف ويتّضح أنّ الرقم خاطئ، فأراه يرمقني بنظرات ريبة ويقول متصنّعًا المزاح:

- راكي متيقنة باللي ماشي صاحبك اللي يعيّطلك؟

أو عندما أعود من السوق ومعي باقة من الزهور تراه يختلق سببًا ويرمي بها في سلّة القمامة قائلًا بحنق:

- خطرة أخرى قوليلو يجيبلك خيط انتاع الجوهر...

لم أكن أردّ على مثل تلك التلميحات التي كانت تبدو لي سخيفة، ولأنّي أصلًا قليلة الكلام. تقلقني الضوضاء التي تحدثها ثرثرة الآخرين. ابني الأكبر سامي يشبهني في ذلك، وفي أشياء كثيرة أخرى منها التقاطيع والحركات. ملامحه نسخة طبق الأصل عن وجهي. وله خانة تحت إبطه مثلي تمامًا. أمّا سليم الأصغر فقد أخذ كلّ مورّثات عمّاته، بلون بشرة بيضاء كالثلج وطبع نزق ومرح في آن مع غيرة لا تتناسب وعمره خاصّة من أخيه. على الرّغم من أنّ والدهما لا يحاول أن يخفي تفضيله لسليم ويتجاهل كلّ محاولات سامي للتقرّب منه ونيل رضاه. كان لا يُفوّت فرصة لإهانته وضربه ضربًا موجعًا. لا زلت لحدّ الآن أتعصّر من الألم والنّدم كلّما تذكّرت وجهه المكدّم والمزرّق وهو ينظر إليّ من بين شهقاته متوسّلًا أن أخلّصه من براثن أبيه. أمّا أنا، فكنت أقف مشدوهة لا أحرّك ساكنًا. كنت أخاف منه. كان يبدو لي في لحظات هيجانه كوحش ضارٍ قد يفترسنا معًا. مع مرور الوقت، توسّعت رقعة عنفه لتضمّني أيضًا. وصار ينهال عليّ حين أحاول أن أبعد بينه وبين طفلي المسكين.

تعلّم سامي أن يصمت في كلّ الأحوال خوفًا من كلمة قد تثير زوبعة. لكنّ فترات صمته ازدادت وتعمّقت لتشمل كيانه بالكامل. أصبح منطويًا على نفسه وكأنّ العالم برمّته لا يعنيه. لا يظهر حزنًا ولا فرحًا. وحين أخبرني مدير مدرسته بأنّه سيعيد العام انفطر قلبي. قضّيت لیالٍ بأكملها لا أعرف النّوم. لم أكن سعيدة في هذا الزواج خاصّة بعد أن اكتشفت علاقة زوجي بمديرة مكتبه الشّابة والتي لم

يكلّف نفسه عناء إخفائها. وصار يدعوها لتناول الوجبات معنا، ويطلب منّي أن أطهو لها ما تشتهيه نفسها. لكنّي قبلت بالأمر الواقع نظرًا للظروف الأمنية العصيبة التي نعيشها. أين سأذهب بطفلين دون مورد مالي يضمن لنا حياة كريمة؟ مع كلّ ما نسمعه عن المطلّقات أو النسوة الوحيدات اللواتي يُعثر عليهنّ جثثًا دون رؤوس. أأهرب من جحيم العنف والخديعة في حياتي إلى جحيم دموي في الخارج؟ أيّ الجحيمين أرحم؟ القرار لم يكن سهلًا.

***

حين أخبرت زوجها بنيّتها في الانفصال والرحيل عن البيت، أجابها من وراء الجريدة التي كان يقرأها:

- ما احلى فراقك...

في اليوم التالي، حزمت أمتعتها وحوائج ولديها وخرجت بعد الظهيرة قبل عودته من المصنع. لم يكن لديها مكان تذهب إليه سوى بيت أبيها. قابلتها أمّها بجفاء وهي تبرطم:

- أيوه تخلّي العزّ وتجي للميزيريا[1]؟ اشتا خصّو راجلك؟ ياك يجيب القفّة كلّ يوم؟ اشكون غادي يخزر[2] فيك مع زوج عزّاب تكركري فيهم؟

التزم والدها الصمت، لكنّ بريقًا أشعّ في عينيه وهو يقبّل حفيديه ويضمّهما إلى صدره، وهرعت أمّها إلى المطبخ لإخفاء دموع طفرت من عينيها مسحتها سريعًا بكمّها.

---

(1) الشقاء.

(2) ينظر.

لم يمض أسبوعان حتّى عثرت هناء على غرفة في حوش بحيّ اكميل تسكنه عدّة عائلات ويملكه أحد مربّي المواشي بنواحي سعيدة. أعطته أجرة سنة مقدمًا خشية أن تنفد الدراهم القليلة التي رهنت بها مصوغاتها. كان ذلك بالنسبة لها ولولديها كالهبوط من الجنّة. لا علاقة للمكان بالفيلاّ المطلّة على البحر التي كانت تسكنها في أعالي المدينة. ولا علاقة لها بالتركيبة البشرية التي تؤمّ الحوش. تصحو على مناوشات وزعيق وتنام على دردشات صاخبة.

من بين السّكان لفت انتباهها صبية خجولة بدت لها في غاية الجمال والرّقة وأكبر من عمرها. ساعدتها من تلقاء نفسها في ترتيب حوائجها وبعض الأمتعة البسيطة التي اشترتها دون أن تنبس بكلمة. كما لوكان واجبًا تؤدّيه مع أيّ كان. وبين الحين والآخر ترميها بنظرة متسائلة إن كانت راضية عن عملها. صارت ترقب عودتها من العمل أو الجامعة وتعرض عليها المساعدة وحراسة ولديها في غيابها.

***

(هناء)

ارتحت لهُوَّارية، ابنة جارتي في الحوش. رأيت فيها فتاة بقلب كبير متلهّف للمسة حنان، مثلي تمامًا. خاصّة عندما لاحظت معاملة أخيها وأمّها لها. أخوها يناديها بالمصيبة وأمّها بالمنحوسة. استغربت لذلك مع أنّها صبيّة في منتهى الرّقة، وحين تحدّثني عن هشام الشاب الذي يتبعها، يحمّر وجهها خفرًا كلّما أتت على ذكره. لست أدري كيف كنت سأتدبّر أموري دون مساعدتها. كانت حين أعود متأخرة إلى غرفتي في الحوش، بعد يوم حافل بين العمل والدروس، ألفيها

قد حضّرت عشاءً للصبيين من حواضر البيت أو ممّا تجلبه من بيتها، وساعدتهما في عمل فروضهما المنزلية، وأوت إلى الفراش بينهما وكل ذراع تعانق ولدًا كما لو كانا فلذتها. مشهد استدرّ دموعي آنذاك، ولا يزال كلّما تذكّرته.

مع ذلك، فقد كان فيها شيء غريب بالنسبة لفتاة في سنّها. توقعاتها واستشرافاتها لأحداث قلّما تخطيء. كذلك اليوم الذي جاءتني فيه قبل خروجي للعمل مبكّرًا، ورجتني بل توسّلت إليّ كي لا أخرج. يومها، كدت أن ألقى حتفي على يد سائق مخمور، لكنّ الخوف تجاوز الأذى، فلم أصب إلّا برضوض ازرقّ لها بدني وتعافيت سريعًا. غير أنّها بعد خروجها من المستشفى إثر الجريمة البشعة التي راح ضحيّتها حبيبها، صار فيها شيء أغرب لا أجد له تفسيرًا عقلانيًّا، كأن تخبرني عن خيالات وأشخاص يظهرون لها ولا يراهم أحد. أو تُنبئني بنجاحي في امتحان قبل ظهور النتائج، وتطمئنّني بشأن ابنيّ. بالفعل، فقد تحسّن حال سامي وتفوّق في الدراسة، كما تحسّنت علاقته بأخيه. أمّا الأكثر غرابة فقد كان عندما أمسكت براحتي ذات يوم وأنا في قمّة اليأس والقنوط، وهي مشاعر تنتابني حين أعجز عن رؤية نهاية النفق، وقالت بثقة من خَبِر كلّ الأزمنة:

- خبزّتك ماشي هنا... قشّك راه مْرزّم... غادية ترحلي بعيد... قدّام البْحَر... غادية تسكني في دار كي تفتحي الطّاقة تلاقيك سجرة تنوّر أبيض...

ثمّ أضافت بنبرة حزينة:

- بالصّح من بعد تْقّطعي البْحرّ...

بعد أن أنهيت دراستي وعيّنت قاضية تحقيق في مدينة عين البنيان القريبة من الجزائر العاصمة، استأجرت بيتًا صغيرًا بحديقة تطلّ على البحر، غُرست فيها بعض النباتات المعرّشة وشجرة بَيْلَسان فريدة محمّلة بأزهار بيضاء. ولم يمض وقت طويل، حتّى وجدت عملًا في منظّمة دولية وقطعت البحر. نبوءة أم إيعاز؟

هواري

(هُوَّارِية)

لطالما شعرت بوخز الندم كلّما أتيت على وصف أخي. ربّما بسبب النعوت التي أستعملها، لمبالغتها في كثير من الأحيان، لكنّي لا ألبث، حالما تحضرني الطريقة التي يعاملني بها، أُقرُّ بقصورها. فهو مربوع القامة كأخواله. يميل إلى البدانة في الجزء الأعلى من جسمه، بساقين قصيرتين نحيلتين وقدم لها ستة أصابع تضطرّه دومًا لشراء أحذية بقياس أكبر، ولبس جوارب سميكة صيفًا وشتاءً، لا ينزعها إلّا وقت النوم. فيطلق روائح يصعب معها اجتذاب النّعاس خاصّة في ليالي القيظ التي يهيج فيها النّاموس والذّباب. فتذهب أمي لتنزع عنه الغطاء، وتعنّفه بحنق:

- هيّا، نوض تغسل كرعيك، راك صرعتنا «بمسك الليل». نهار كامل وأنت هايم في الدروب والزنق مع الزوافرة بلا فايدة. لا قراية لا خدمة لا زدمة.

ثمّ تخرج من الغرفة وهي تخاطب نفسها ويداها مرفوعتان إلى السماء، وهي طريقتها كلّما أحسّت بقرب تفجّر مرارتها:

- واشتا درت لك ياربي العزيز باه تبليني بهاد المصيبة، ما كفانيش همّ أبّاه وأخته باه يزيد لي محنته.

فيفتح عينيه الصغيرتين اللتين يطبق عليهما الجفنان، لتجعلاه يبدو، بحاجبيه الغليظين وجبينه الضيّق، كما لو أنّ أحدًا كبس على

رأسه وسطّح استدارة جمجمته التي يموّهها بشعره الكثيف السبط وغرّته الطويلة. ويجيبها وهو يعيد الإزار بعنف ويلفّه حول نفسه بحركة لولبيّة:

- قوليها لروحك. لو كان جبْتيني بصفة الناس، وقعدتي مع ابّا ما راكيش بهاد الغبينة. بغيتي تبيّني شطارتك... اشبعي من رايك!

أخذت سلاطة لسانه، وصلافة سلوكه تزداد يومًا بعد يوم. لا ينجو منها صغير أو كبير. خصوصًا بعد أن وسّع دائرة أصحابه لتشمل عصابات «كوشة الجير» و«رأس العين». حيث يباع ويُشترى كل شيء، من الأغراض إلى الأعراض. حتىّ أمي لم تكن تسلم من لذاعة تعليقاته. وإن كانت ترى فيها مقدرة ابنها على العيش وسط من تسمّيهم ذئاب وأفاعي جهنّم.

كنت غريمته منذ ولادتي. حتى قيل أنّه حاول كتم أنفاسي -ولا يزال بشكل أو بآخر- وأنا رضيعة لم أكمل شهري السادس. لكن تشبّثي بالحياة أحبط محاولته. وخيّب أمل أمي التي اسودّت الدّنيا في عينيها، وصارت تخشى ما ينتظرها مع بنت واهنة لامرأة تقاوم جبهات مفتوحة من كلّ جانب، وابن ترى فيه إخفاقها في تربيته وتبدّد أحلامها في أن يخرجها يومًا من دوّامة البؤس. إضافة إلى كل علامات الشؤم والنحس التي تلت مولدي: زواج أبي بابنة زميله هجّام عميد الحمّالين في الميناء، طلاقها، خروجها من المنزل الذي باعت كل مصاغها لشرائه، وكتبه لحماقتها ولشدّة حبّها لوالدي على اسمه، وفاة والدها واستحواذ إخوتها على البيت الذي نشأت فيه وسط الغابة

الصنوبرية انتقامًا منها، انتقالها للعيش في غرفتين توصل إحداهما للأخرى داخل حوش في «اكميل»، بمرحاض مشترك، تتقاسمه خمس عائلات صغراها تعدّ سبعة أفراد، وثلاث منها تعيلها نساء. وفناء يتحوّل في غالب الأحيان إلى ساحة وغى يتصارع فيها شقاء وتعاسة القاطنين. وآخرها، اضطرارها للعمل في خدمة الذوات، تحت رحمة ربّات البيوت التلمسانيات المتعجرفات.

في الواقع، لم يطردها أبي من البيت. لكنها فضّلت الخروج بمحض كبريائها، لأن السفن على حدّ تعبير زوجها المغرم بالبحر لا تحتمل ربّانين. وتحمد الله على أنّها خرجت، إذ كيف لها أن تتحمّل ضرّة تلد الذكور بالشفع والوتر. الكلّ كان يعاتبها تلميحًا أو تأنيبًا على الإفراط في تدليل ابنها هوّاري، وخاصّة أبي الذي كان يبدي سخطه أمام تفتّق بدن الصبي من السّمنة، وبلادته المتزايدة في الدراسة، ولا يفتأ يكرر على مسامعها:

- شوفي ولدك... راه كي القفّة يأكل ويرقد، ما يقرأ ما يندب، ولىّ كي البهيم ما يصلحش حتى يخدم دوكر[1].

محاولًا أن يحمّل العبارة الأخيرة شيئًا من التحقير ردًّا على تلميحاتها المتكررة بخصوص مهنته، لتردّ عليه كالعادة:

- إيه معليش، خموس على ولدي، وإذا دارت عليه الأيّام يخدم دوكر كيما اباه.

كلما طرق الزوجان موضوع أخي -وهو الموضوع الوحيد الذي يجمعهما منذ غيابات والدي المتكررة عن البيت- إلّا وانتهى

[1] حمّال في الميناء.

حوارهما باحتدام يليه صفق أبواب ودمدمات وبرطمات تشي باتساع هوة الخلاف بينهما. لتضع أمي نقطة الختام بإحدى أقوالها المأثورة:

- عمرك يا خمّاس[1] الكرموس[2] ما تشري برنوس.

بعدها يجمع أبي عدّة الصيد الموجودة في الردهة المظلمة خلف باب البيت مباشرة، ولا يظهر ثانية قبل يوم أو يومين. أثناء الشجار يستند الصبي إلى جدار غرفة النوم محاولًا كتم قهقهاته، مسترقًا النظر من شق الباب إلى سحنة والده الممتقعة، وإلى أسارير أمّه التي ترى في مبالغة استشاطة غضب زوجها نيّة مُبيّتة، وتبريرًا المخطّط في رأسه لا ينبئ بخير.

***

كان هذا الصبي، في الوقت الذي لم يكن قد تجاوز فيه الثالثة عشرة من عمره بعد، يعرف مدينة وهران ويحفظها عن ظهر جيب فارغ. يذهب كل صباح إلى مدرسة «عابد» الواقعة في شارع وجدة، الشارع الرئيسي في حي اكميل، بعد التهام فطور ضخم من «السفنج» الذي تتفنن أمّه في تشكيله في المقلاة، والكعك التلمساني الذي تحضره من عند ربّة عملها، وشطائر عريضة من خبز الدار المشبّعة بالعسل «الحرّة» التي تجلبها خصيصًا من مزارع وبساتين مسرغين، مهما خفّ رنين دراهمها في أزمنة الشّح، لأنّ العسل هو المذاق الوحيد الذي بقي لها من رفاه غابتها الصنوبرية المفقودة. فقد كان والدها مغرمًا بالنحل، لم يترك مكانًا أو فسحة في الغابة التي يحرسها

[1] المزارع الأجير.

[2] التين.

إلّا وأسكن فيها صناديق تأوي خلايا نحل تتغذّى من رحيق الأزهار البرية. وكان ما يجنيه من بيع العسل يفوق أضعاف راتب «الشنبيط[1]» المتواضع الذي يتلقاه شهريًا. كان هوّاري يحمل معه زوادة من الخفاف وتلك الشطائر، وأحيانًا يسرق بوقالًا من العسل ليرشو بها الحارس الذي يتركه يخرج من الباب الثالث للمدرسة بمجرد أن تودعه أمّه في الباب الثاني.

حين يجد نفسه في الشارع، يشعر بأن العالم ملك له وحده. يصول ويجول فيه دونما رقيب أو رادع. كان يكره أن ترافقه أمه كل يوم إلى المدرسة، ويخجل من نظرات السخرية التي يصوّبها نحوه أقرانه، المصحوبة غالبًا بعبارات من قبيل: «المازوزي»، «وليد ماما»...

اعتاد أن يتعلّق بعربة صهريج بائع «الماء الحلو» الذي يسقي أهل اكميل ماءً عذبًا. لأن الماء الذي يتقاطر -حين لا يكون مقطوعًا- من حنفيات مدينة وهران كان أجاجًا، يصعب شربه خاصة لغير الوهرانيين. وهو أمر ليس جديدًا، إذ يذكر كبار السن أنّهم لم يعرفوا في حياتهم طعمًا آخر للماء. لدرجة أنّه عندما تم تحديث شبكة توزيع المياه، وأُدخل الماء العذب للبيوت، صار هؤلاء يضيفون الملح للقهوة أو الشاي حين يشربونه.

كان يجرّ العربة حصان هرم، حززت خاصرتيه الأحزمة الجلدية وخلّفت جروحًا تنزّ قيحًا ودمًا، وتركت آثار السوط على مؤخّرته علامات طولية كأسياخ لا ينبت فيها وبر. شيئًا فشيئًا بدأ هوّاري يتعلّق بالحصان «عاطفيًا». يذهب للسوق البلدي، ويسرق ربطة من الجزر

---

[1] حارس الغابات.

ليطعمه بيده، مربّتًا على عنقه بحنان يصعب تخيّل هذا الولد الفظّ قادرًا على الإحساس به. ويجوب خلفه شوارع اكميل والدروب الخلفية. وعندما يئس البائع من زجره صار يستخدمه في الطرق على الأبواب التي تفتح على أحواش، تسكنها عدّة عائلات لا تسمع تبريحه حين يمرّ أمامها جرّاء صخب المناوشات الصباحية. وبدأ يقوم ببعض الأعمال التي يسخّره بها الباعة الجوّالون وأصحاب الدكاكين وحتى الأهالي. هكذا، تعرّف على غالبية سكان الحي: الشيخ هبري إمام الجامع والراقي الذي يحظى باحترام الجميع لهيبته وهيئته الوقورة التي يزيد من جلالها ضخامة بنيته المغطاة بلباس أبيض من رزّة رأسه إلى خفّ قدميه. والبقّال سي قادة الذي لا يزال يخلط القهوة بمسحوق الحمّص كما في زمن الحرب، ويمسح حين يزن الزّبدة أو يكيل الزّيت بقايا الدسم فوق صلعته على أمل أن ينبت فيها شعر. والإسكافي الذي يجلس كلّ يوم عند باب السوق البلدي بكامل عدّته، ويلقي التحية على الداخل والخارج من طرف فمه المزموم حول سيجارة مطفأة، وكلّما مرت أمامه امرأة سخيّة الاستدارات يتلمّس قالب تصليح الأحذية الحديدي الذي يشبه عضو الذكر واضعًا إيّاه بين ساقيه، ويطلق صيحته الشهيرة:

- الصبر مفتاح الفرج.

خاصة بعد أن عرف المعنى الآخر للفرج من دروس الشيخ هبري التي يواظب عليها دون أن يفهم الشيء الكثير، اللّهمّ إلّا ما كان لا حياء في الدين فيه. وبائع السمك الوسيم البارع في الإطراء، بحركاته الأنثوية وصوته الرقيق وهو ينادي على أسماكه بما يشبه الغناء:

- بغيت نكون حوتة في البحر... يا العوّامة. وعليّ تتخبّل الشّباك... يا دِلاّلي...

فتحلق حوله ربّات البيوت المترفات، يتحسسن بأطراف أصابعهنّ الناعمة مدى طزاجة البضاعة اللمّاعة المشبّعة بالماء والثلج. ولا تغادر واحدة منهنّ بسطه إلّا وفي يدها قراطيس من ورق الجرائد مملوءة بأنواع الأسماك المختلفة التي لم يذق هوّاري طعمها في حياته بخلاف السردين والخورير الذي تفنّن أمّه في طهيه على شكل طبق «ضولمة» شهيّ.

كما تعرّف أيضًا على الصيدلي، أو بالأحرى البائع الذي يعمل لدى الصيدلي الذي يكنّيه الجميع بهوبل الفارمسيان، لطول قامته ونحافته، بحاجبين كثيفين يشبهان حاجبيه، يؤطران لعينين مستديرتين سوداوين، تصغران أمام فمه الكبير المفتوح على أسنان ناتئة صفراء، تبدو فاقعة على بشرته الشديدة السمرة.

تعرّف عليه هواري حين قصده بحثًا عن دواء لجروح حصان عربة «الماء الحلو» الذي لم يعد يحتمل رؤية أسراب الذباب وهي تغور في ثناياها وتنهشها نهشًا. سخر منه في البداية عندما فهم أن الدواء الأحمر والضماد يتوجهان لحصان أجرب يجر صهريج ماء. فخجل من شعوره بالتعاطف مع حيوان وأطرق بينما راح هوبل يتهكّم عليه:

- ما تبغيش تشري لَهْ «الجيل» باه تسرّح له زعكته[1]؟ وإذا كانت

---

[1] ذيله.

عَودة[1] عندي الحمّاير والبودوري ماركة، «شانيل» يا صاحبي، وكاين حتى الماسكارا.

فيتجمع هواري شجاعته ويقول وهو يفتكّ الأدوية منه محاولًا تقليد لهجته التهكّمية ذاتها:

- تصنّتْ ليَّ مليح... البودوري لازمك تديره على هذيك الفيقورة[2] الكحلة، بالصح نقول لك: أنت يلزملك قنطار اتاع «الجيل» باه تسرّح هاد الكبّة اتاع الصوف اللي تحسب فيها شعر...

- يا ولدي ما تزعفش[3]، راني غير نزعّق[4] معاك...

لكن ما إن يتخطى هوّاري عتبة الصيدلية حتى يستدير ويرميه بشتيمة وهرانية يفشّ بها غلّه:

- أمُّكْ...

توطّدت العلاقة بينهما فيما بعد، وصار هوبل يكلّفه بمهام كثيرة، خاصّة في غياب صاحب الصيدلية. فهم هوّاري بعد ذلك أنّ البائع يسرق ربّ نعمته، ويحوّل صناديق من الأدوية إلى دكّان العشاب، الواقع في نهاية الشارع الرئيسي لاكميل باتجاه حي كوشة الجير. لكن الذي لم يفهمه في ذلك الحين أنّ بعضًا من تلك الصناديق يحتوي على أدوية يأخذها هوبل من خزانة مقفلة بمفتاح ذي رمّانة كبيرة، عرف فيما بعد أنّها مواد مخدّرة، يروّجها له العشّاب بعد خلطها بمواد

---

[1] مهرة.

[2] الوجه.

[3] لا تغضب.

[4] أمزح.

عشبية أخرى لدى «الطُّلْبَة[1]» والمشعوذين والمدمنين والمسكونين والشوّافات[2]. وقد كانت خيرة الهواوية شوّافة الحمري من أفضل زبائنه. الأرجح أنّ العشّاب من بلدياته، فقد كان يشبهه سمرة وصفرة أسنان، غير أنّه يبدو أكبر منه سنًا بالتأكيد من أنداف القطن الخشن التي تخرج من تحت عمرته البيضاء المخرّمة. لكنّه كان عشّابًا معتمدًا يشار إليه بالبنان، لأنّه أسود البشرة ودكّانه يواجه قِبْلَة البيت الحرام.

---

[1] المقرؤن والراقون.

[2] العرّافات.

هواري 2

كانت الساحة المجاورة لميدان الطّورو أو «حلبة الثيران» الواقع في نهاية شارع وجدة، هي المكان المفضّل لهوّاري. تتجمّع فيها عربات «الكارّو» بأحصتها التي تنوء تحت حمل أثقالها وقوة حاذيها. يدور فيما بينها. يتأمّل تفاصيل أبدانها الرائعة الاتساق. يتخيّل نفسه يخبّ فوق أجملها فارسًا تشرئبّ له الأعناق. أقسم أنّه عندما يكبر سيشتري أجمل حصان في وهران كلّها.

زجره أحد أصحاب العربات حين لاحظ كثرة تردده إلى المكان، وتسلّله بين الأحصنة، وتمسّحه بأبدانها وتربيته على أصداغها، ظانًّا أنّه يموّه لسرقة ما:

- واش بغيت؟ ركلة اتاع بغل... يا البغل. هيّا روح في حالك .

- راني غير نشوف.

- تشوف؟ تْشوف كيفاه تخْونْ وتعطي ساقيك للريح كي العَود؟

- لا، أنا نبغي العْواد[1]، نجي لهنا غير باه نشوفها.

لم يقتنع صاحب العربة بكلام الصبي، وأضاف بلهجة ساخرة:

- وإلا منّك بالصح تبغي العواد قول لمّامّا (ونطقها على الطريقة الفرنسية) تماركيك[2] في الكلوب إيكستر[3]. وما تزيدش تدور هنا.

---

[1] الجياد.

[2] تسجّلك.

[3] نادي الفروسيّة.

خمّن «هواري» بأنّ الرجل يسخر منه، لكنّه لم يفهم معنى عبارة «الكلوب إيكستر». بحث عن هذا الاسم مستقصيًا كل من يصادفه في طريقه. رجال ونساء وشباب وشيوخ ورجال شرطة ونساء شرطة، أصحاب دكاكين وحتى الباعة المتجولين.

الكلّ كان ينظر إليه هازئًا.

دلّه على المكان آخر من كان يتوقع معرفته بأمور الجياد: سي هجّام زميل أبيه الحمّال ووالد زوجة أبيه المقبلة. كان ذلك في إحدى خرجات الصيد مع والده. امتعض هوّاري حين رأى الرجل العجوز داخل الزورق. وبدأ لتوّه يبحث عن أجوبة لأسئلة أمّه التي ستمطره بها حين عودته:

- اشكون جاء معاكم؟ شيبة النار؟ الشيب العزيز؟ خرجوا يصيّدوا للالآت النساء، ياك؟ يوكلوها حوت... تاكل الرّهج[1] انشالله. قول لي على واش كانوا يهّدروا؟ وقتاش غادي يديروا العرس؟ وللا داروه وكملّوا؟

لم يكن هجّام رجلًا كثير الكلام. جلس قبالته وحدجه بنظرة متفحّصة. بينما كانت يداه تحسسان سطل القريدس الصغيرة الطازجة التي ستؤول طعمًا لأسماك ضعيفة الذاكرة. وفي سطل آخر برز عنق زجاجة نبيذ مفتوحة وغطّت أخرى خرقة مبللة وسخة. كان الصيد وفيرًا ذلك اليوم، وقبل أن تفرغ الزجاجة الثانية كان هجّام قد أخذ يدندن أغاني فرنسية لتينو روسي وليو فيرّيه بصوت جهوري تخطفه الريح تارة وترجعه تارة أخرى. كان ودودًا مع هوّاري الذي لم يتمكّن

[1] السّم.

من أخذ موقف عدائي تجاهه، ولو لمؤازرة أمّه على الأقل. رأى منه اهتمامًا لم يبده أبوه حياله مطلقًا، أو هكذا كان يظن. أعطاه صنّارته، وعلّمه كيف يثبّت الطعم، ويرمي الخيط إلى أبعد ما يستطيع. علّمه الإنصات إلى هبوب النسيم وهمس الموج وأنين السمكة العالقة.

حين بدأت الأمواج تدفع الزورق نحو الميناء مبطلة تجذيف والده ونسيبه المقبل، خرج بها هواري:

- تعرف كلوبي كيستر؟

- كلوبي كيستر؟ شتاوالا هاد الحيّة[1]؟

- إيوه... وين يتعلموا يركبوا العْواد.

نطق أبوه شارحًا بلهجة العارف:

- الفروسية... الفارس... الفرسان يعني les cavaliers. ما نعرفش كلوبي كيستر.

ضحك النسيب المقبل ملء شدقيه وقال:

- آه... قول لي le club équestre، باغي تركب العَود؟ قارع لي غدّة كي نخرج من الخدمة نديّك. راه جاي في السانية.

فطفق والده معتذرًا:

- ما تاخدش عليه... زعاقة انتاع الغراوين[2]، فَيْن يركب العَود؟

نطق بتلك العبارة وهو يمسخه بنظرة غضب ماسحة، ثم أضاف:

- هادا؟ ما يعرفش حتى يتمشى على كرعيه.

---

[1] ما هو هذا الشيء؟

[2] هراء أطفال.

فرد هواري وقد شعر بوخز التحقير يصدر عمنّ يُفترض أن يواسيه في بلوى أصابعه الست:

- واه، تمنّى خير من اصحاب خمسة.

- تلهّى بقرايتك وخليك من هاد الشكيل.

قضّى هواري ليلته يحلم بتلك المخلوقات البديعة الاتّساق. حلم بأنه يمتلك حرائس تخبّ فيها خيول متعددة الألوان والأشكال. تمتدّ على طول مسرغين وعرضها، وهي الضاحية الوحيدة لوهران التي كان يزورها صحبة أمّه لشراء «العسل الحرة». ومسرغين هي البلدة التي أجرى فيها الراهب كليمان أبحاثًا وتجارب في بداية القرن، أوصلته إلى إنتاج ثمرة يوسفي ذات طعم متميّز، حلوة المذاق وخالية من البذور، وباتت تحمل اسمه منذ ذلك الوقت لكن بصيغة المؤنث: كليمانتين. أخبره بذلك بائع العسل الذي كان يلاطفه لينال حظوة لدى أمّه. وحين عرف مدى حبّه للجياد راح يحدّثه عن حصان «البارب» المغاربي. كان هواري يعتبر الجواد صورة الكمال التي يتجلّى فيها منتهى الإبداع الإلهي. ويتساءل، حين ينظر إلى نفسه في المرآة، كيف تمرّ على خالق بهذا الحذق هفوات تكوينية فيمن يُفترض أنّه رسمه على صورته؟

لطاما كانت المرايا عدوّه الأول لابدّ أنّه كان يقدّر حجم دمامته ويرى ببساطة منطقه أنها حين تعكس شيئًا فإنها تعكس صورة مقلوبة مسطّحة لا يُعتدّ بها، وأنّ من يتباهى بجماله أمام المرآة لا يُبصر سوى فكرة مثالية عن نفسه كوّنها في لحظات جور أو إحباط قصوى. وقد لاحظ أيضًا فيما بعد أن أخته هُوَّارية تشاطره مقت المرايا. إذ لم يحدث أن رآها ولو مرة تتأمل نفسها كما تفعل الفتيات -هذا أيضًا

صنف آخر يكرهه– لكنّه كان متيقنًا من أنّ المخبولة أخته كانت تكره المرايا لأنها ترى فيها أشباحًا خفية للعيان. وهو ما كانت تردده منذ صغرها كلّما مرت أمام واحدة منها.

في اليوم التالي، راح ينتظر حما أبيه المقبل أمام بوّابة الميناء بعد انتهاء ورديّته. حرص على عدم إخبار أمّه، وخشي ملاقاة أبيه لئلاّ ينهره ويُفسد موعده الذي قضى الليل بأكمله يحلم به. انطلقت بهما سيارة الأجرة من المرفأ عبر الطريق السيار الذي يحوّط مدينة وهران باتّجاه ضاحية السّانيا. جلس هوّاري منكمشًا في المقعد الخلفي تحتضن إحدى راحتيه المتعرقتين الأخرى وعيناه مسمّرتان على النافذة المفتوحة إلى ربعها. أراد أن يحفظ الطريق عن ظهر قلب كيما يتمكن من الذهاب متى شاء بمفرده. ترجّل الاثنان من السيّارة. وجد هواري نفسه في غابة صنوبرية وارفة الظّلال تتخلّلها أشجار الكينا الباسقة. أحس برفّات النسيم تداعب وجهه وتبثّ في خشميه رائحة عضوية زكيّة. كان مدير النادي الشاب يتأهبّ للمغادرة وهو ينفض بعض الأتربة عن بنطاله الكحلي وسترته الرمادية متوجّهًا إلى سيّارته. اعترضه سي هجّام بلباقة البْلدي واضعًا هوّاري أمامه وممسكًا بكتفيه:

– الله يرحم الوالدين، رانا باغيين نسجلوا هاد الشير باه يتعلّم يركب العَود.

ألقى المدير نظرة سريعة متفحصة على هواري وأجاب وهو يكمل طريقه:

– ما يقدّش[1].

---

[1] لا يستطيع.

- علاه؟

ثمّ توقف وأشار إلى ساقي الفتى بشيء من النزق وأضاف بلهجة قاطعة:

- شوف، عنده كرعيه قصار بالزاف. ما يقدرش يركب العَود.

من المؤكّد أن المدير الوسيم الشاب لم يكن ليقدّر فظاعة الحكم الذي رماه باستخفاف على مسامع صبي يحاول جاهدًا أن يتصالح مع الحياة ومع نفسه. وأن يجد فسحة قبول تنفذ منها نوازعه الطيبة. تمنّى في تلك اللحظة أن تبتلعه الأرض. أن يتحوّل إلى هباء ينثر على روث الجياد. أن يستلقي فوق سكّة قطار لتهشّم ساقيه اللعينتين. لم يجد من الدموع ما يكفي ليغمر حزنه. وصلت صرخاته المكبوتة أذن العجوز الذي استدرك قائلا:

- واللي عنده كرعين قصار مايركبش العواد؟

ردّ المدير بنفاد صبر رسمه بتقطيب حاجبيه:

- لا.

فصاح هجّام بأعلى صوته بينما كان الشّاب يبتعد:

- ونابوليون كيفاه دار؟

لم يجب المدير وحثّ الخطى صوب سيّارته.

هواري 3

كان لمدرسة «عابد» الابتدائية المبنية على طراز بدايات القرن العشرين ثلاثة أبواب، أولها يفتح على الشارع الرئيسي لاكميل، مخصص للمعلّمين والإدارة والزوار، والتلاميذ يدخلون من الباب الثاني الواقع في الشارع الفرعي المتعامد مع شارع وجدة. أما الباب الثالث الذي يوجد في مؤخرة ساحة الفناء، فقد أغلقته الإدارة لأنه يوصل إلى الشِّعاب الضيقة الملتوية للجهة الشعبية من حي اكميل والتي تضمّ بين جنباتها، إضافة إلى بعض الشرفاء من الأسر الفقيرة التي نزحت إثر الجفاف، والذين كانوا يسمونهم «الشراقة» أي القادمين من الشرق، أو «الزواوة»، وهم القادمون من منطقة القبائل. كانت تلك الشّعاب تضمّ صفوة اللصوص، ومروّجي المخدرات، والقوّادين، وبنات الهوى. وكان هؤلاء يستدرجون الفتيات والصبية السذّج لإشباع نزواتهم، ولتسخيرهم في أعمال السرقة، والترويج للكيف، أو لإيصال الرسائل الغرامية. ولهم في ذلك أساليب شتّى، منها التقليدية باستعمال الحلويات والنقود، أو بعض النساء المسنات اللواتي يستجدين عطف الصغار: «سعدي بولدي، عاوني نوصل القفّة للحوش». أو: «أمّك راهي تلغالك[1]».

لم يكن هواري غِرًّا. لكنّه كان يقوم بتلك السخرات بدافع من الإحساس بأنّه يدخل عالم الكبار المليء بالإثارة. عالم يخرجه من أصماغ الحياة الرتيبة مع والديه، والمضبوطة بوتيرة مناقراتهما

[1] تناديك.

المتكررة. حتى خرجات الصيد التي كان يصطحبه فيها والده لم تعد تثيره، بل صارت تدبّ الملل في نفسه. وحمد الله أنّها انقطعت بعد أن تحوّل اهتمام أبيه كليًّا إلى زميله الحمّال وابنته. وصار يختلق المعاذير ليخرج بمفرده كل يوم تقريبًا، أمام نظرات أمّه المرتابة، التي أصبح كلامها ملونًا بالمعاني حين لا تملك الإفصاح جهرًا عن شكوكها بخيانة زوجها، تحقيرًا له وتلميحًا لمعارضة ذويها في الزواج منه:

- ما يأش[1] موت حماري، بيّ شفاية[2] الأعداء.

كما كان عالم الكبار يخرجه أيضًا من أجواء المدرسة المقيتة، ومن سيطرة معلّمه المتقزّم سي بن عودة، الذي يعرف الجميع متى عنّفته زوجته السليطة من زعيقه بمجرّد أن يدخل القسم، وانهياله على التلاميذ تعنيفًا وسبًّا وضربًا لا على التعين. تعلّم منه التلاميذ كل الشتائم البذيئة، والكنايات الازدرائية، الفصيحة والعامية التي يصفهم بها: «حثالة»، «صعاليك»، «ولاد الحرام»، «كعالة السلوقي»، «قشّ بختة»، «قشقاش الحملة»... ذات يوم كاد أن يفقأ عين أحدهم لمجرّد خطأ في الإعراب، واختفى لأزيد من ثلاثة أشهر ارتاح فيها هواري من دروس هذه اللغة التي يحبّ موسيقاها لكنّه لا يجد ما يربطها بالعربية التي يتكلّم بها مع أقرانه. لغة لا يسمعها إلّا في أقسام الدراسة والتلفزيون. وكان يكره دروس اللغة الفرنسية أيضًا، ويراها غريبة عليه، فهو لم يسمع في حياته أمّه تنطق بها، ولا حتى كبار السن

---

[1] لا يضيرني.

[2] شماتة.

من القاطنين في الجوار البائسة لحي اكميل الذين كان معظمهم يتكلّم الإسبانية بطلاقة. وقد خرج من المدرسة وهو غير قادر على تهجئة حروفها. بينما كان يرى في اللغة العربية أصواتًا وكلمات يألفها وإن لم يكن يفهم البعض منها. كان أشدّ ما يمقت هو دروس القواعد والإعراب. لكّن دروس «دراسة الوسط» كانت تسلّيه، لأن المعلمة البدينة التي تلبس جلاّبتها فوق قميص النوم، وتنتعل «شنقلة» تشحطها على الأرض شحطًا، لا تهتمّ بشرح الدروس، بل تطلب من التلاميذ إحضار أشياء للدراسة، تؤول كلها في القدر الجاثم على السخّان الكهربائي الصغير الموضوع فوق مكتبها. منهم من يحضر بصلًا -لدراسة النبتة طبعًا-، ومنهم من يحضر جزرًا أو بطاطس أو طماطم، وفي موسم البازلاّء والفول يتسابق التلاميذ بتقشير كمّيات منها لمؤونة المعلّمة وزميلاتها للشتاء المقبل. الميسورون منهم يجلبون قطعًا من اللحم أو الدجاج، تشهرها أمام الجميع وتقول:

- شفتوا، هكذا نبغيكم. تعرفوا باللي الدْجاج من حيوانات المزرعة؟

ويجيبها الجميع بصوت واحد:

- نعم سيدتي.

ثم تلتفت صوب من أحضر اللحم وتقول بلطف كما لو كانت تمتحنه:

- هادا بقري واللا غنمي؟

وقبل أن يجيبها ترفع غطاء القدر لترمي فيه القطع الوردية الطرية، أمام أنظار من لا يذوقونها ربّما إلّا في الأعياد. يتلمّظ التلاميذ مع

كل بقبقة يصدرها القدر. كان يُعرف طبق المعلّمة اليومي من روائح التوابل المنبعثة منه. وأحيانًا من الصحن الذي تسكبه للمدير وقت الغذاء.

انتهتْ حكايته مع المدرسة بمجرّد أن بدأت القطع النقدية ترنّ في جيبه. أخذ يجنيها نظير ما يُكلّفه به هوبل الفرماسيان وأهالي الحيّ من أعمال مشبوهة وغير مشبوهة. لم يكن يجد أيّ فرق بينهما. اللهمّ سوى القيمة التي يقدّرها أولئك لمشروعية المهام. وقد تعلّم كيف يُفاوض. يقايض. يسمسر. يرهن. يبيع. يشتري. و«يهفّ».

كان أول شيء اشتراه بنقوده التي جناها قيثارة. باعه إياها موسيقي فاشل من بين الكثيرين الذين كانوا يحلمون بأن يصبحوا في يوم من الأيام مثل «الشاب خالد» أو «الشاب حسني». لم يكن يتصور أنّه سيصبح يومًا عازفًا ماهرًا. لكن علاقة غريبة بدأت تربطه بتلك الآلة. بمجرد أن يحتويها ويحضنها يشعر بالأمان والامتلاء، ويحس بأن أوتارها هي التي تداعب أنامله وتستدرّها أنغامًا. كان يحب موسيقى الفلامنكو التي تنبعث من حانة كارنو. ينصت إليها بكل جوارحه، ويحفظ مقاطع منها ليتدرب عليها كل مساء. كانت تلك الألحان تناغشه من بعد سحيق، تلثم جروحًا يصله وخزها غضبًا لا يعرف له سببًا ولا تبريرًا. ربما ليس غضبًا بل بؤس من فقد نعيمًا لم يذقه ولا يفتأ يساميه.

لم يكن يُساهم ولا بـ«دورو» في مصروف البيت. مع أنّ الكلّ كان يعرف أنّه يكسب الكثير. من إيقاع حياته والملابس التي يشتريها

لنفسه، وآلة التصوير البولارويد التي اقتناها من محل كبير بشارع أرزيو، وصار يلتقط بها صورًا للأحصنة ولمن يتزّهنّ من النساء والفتيات. وعندما واجهته أمه ذات مرّة، حين عثرت في جيبه على رزمة من عشرين ورقة من ذوات الألف دينار وكانت تعادل قيمة راتب معلّم لعدة أشهر. سألته عن مصدرها، فانفجر في وجهها، ورفع يده عليها مهدّدًا:

- اشكون قال لك تخّربي في صوالحي[1]؟

- نخرب وين نبغي، راني في داري، وأنا اللي نخدم على القفّة.

- راكي حاسبة باللي راني نعوّل على الاربعة دورو اللي ترميها لك في الشهر التلمسانية بنت الآوآو[2]؟ اشكون يقدّ يعيش بيها؟

- هاذوك الاربعة دورو راهم يعمّروا كرشك اللي يعمّرها التراب انشالله. وتزيد تعلّي يدّك عليّ. منين راك تجيب هاد الدراهم الكل؟ راك تْخون[3]؟

- واه، راني نخون. راني نبزنس. وما عندك ما دخلّك.

ثمّ استدار نحو هُوَّارية التي انكمشت في زاوية من الغرفة العابقة بالشرر، ومدّ سبابته تجاهها صارخًا:

- هاد المصيبة هي اللي تحرّشك...

***

---

[1] أغراضي.

[2] أصلها القاوقاو أي الفستق يلفظها على الطريقة التلمسانية.

[3] تسرق.

لم تر هُوَّارية أمها بهذا الكمّ من الحزن من قبل قط. وهي تشهد بصيص أمل حياتها يتبدّد أمامها كالسراب. والكون بأسره ينطبق عليها ويسحقها سحقًا. الأب والأخوة والزوج ليختمها الابن. حين حطّت عيناها على نظراتها المتعاطفة، أبعدتها من طريقها بحركة نزقة:

- بعدّي من قدامي. جرّة البلاء.

هدية 1

البيت يغصّ بالنساء والأولاد. كل نسوة حي اكميل ومْدينة جْديدة والخْمري. الأقارب والمعارف ومعارف المعارف حضرن العرس من اليوم الأول. والمقرّبات منهن جئن قبل شهر من موعد الزفاف لتتّبع تفاصيل التحضيرات، وإسداء النصائح لأم العريس بخصوص الطقوس الواجب التقيّد بها:

- إيوه لاّ، فضّحتي، يلزم تحرحري[1] الحنّة بالماء زهر والبيض في الليل، وتبيّتيها في ضوّ القمرة، عادا باش تربطيها لهم من الغد.

- أنا منّك، نزوّره عند سيدي عابد قبل ما يدخل، ما سمعتيش بولد الطرّاح[2] اللي قعد سيمانة(3) باه دخل؟ وذيك المغبونة عروسته تهرّات، وأمّها ما صابت وين تصدّ.

لتردّ عليهما أخرى بمكر ريفي لاذع وهي مطرقة لتفادي نظرات الأخريات:

- الشيرة[3] قافزة(5)، هيّ تعاونه.

إشارة ضمنية إلى سمعة الفتاة الموسومة بالسوء. ثم لا تلبث إحداهنّ أن تطلق زغرودة لتفادي تعكير الجو، لتبدأ الأخريات في المزايدة على خصال العروس وحسنها.

***

---

[1] تذيبي.

[2] الخبّاز.

[3] أسبوع. [4] البنت. [5] شاطرة.

(هُوَّارية)

بالفعل هي فاتنة. أستغرب كيف لفتاة على هذا القدر من الجمال أن تقبل الاقتران بقرد مثل أخي هوّاري؟ قد يكون في وصفي له شيء من المبالغة لأني لا أحبّه، ولم أشعر نحوه بأي نوع من المودّة. وهو يردّ لي الصاع صاعين. لا زلت أتساءل عمّا إذا كانت تربطني به فعلًا صلة قربى مما يسمونه الأخوّة. ليس بمقدوري تعريف هذا الشعور أو تحديده دون أن أتحامل على نفسي أو دون أن أظلمه، لأنه أخي الوحيد، ويكبرني باثني عشر عامًا. يُقال إنّ أمي ظلّت لمدة طويلة لا تحمل إلا خُدَّجًا يستلطفهم الموت. وبقي هوّاري سنوات سيّد الدّار إلى أن حللت بها، وأسموني هُوَّارية تيمّنًا به. وقد وُلدت خديجًا أيضًا. غير أني لسوء حظّه لم أستلطف الموت. وصارعته فوق السنتين إلى أن اشتدّ عودي. حتّى أن أمي ضاقت ذرعًا بوهن بنيتي وهشاشة صحتي، وتمنّت لي الموت مرارًا، بعد أن تستغفر طبعًا وتعلن القبول بحكم الله.

بعد ولادتي بخمس سنوات تزوّج والدي من ابنة زميله سي هجّام، الحمّال في الميناء وأقدم عامل فيه. رجل زعبل تجاوز سن التقاعد ولا يزال يرفد أثقالًا تتعدى وزنه، كما يحلو لوالدي أن يكرر كلما سنحت له فرصة التعبير عن إعجابه بعميد الحمّالين الذي يتكلّم الفرنسية بطلاقة ويقرأ الكتب ويصاحب الوجهاء والمثقّفين. لا أريد أن أجزم بأن هذا الزواج هو سبب دعوات أمي لي بالموت: أولًا لأن أحدًا لن يصدّقني، وثانيًا لأنّ كل ما يقال ويكتب عن غريزة الأمومة منذ الأزل يجعلني أبدو كالمجنونة، أو قليلة الفطنة كما أشيع

عني بسبب فترات صمتي المريبة. لم تقبل والدتي الوضع بطبيعة الحال، وهي ابنة الموظّف في مصلحة الغابات، الحاصل على قسط من التعليم، والخبير بتربية النحل. وقد نشأت في منزل مبنيّ على الطــراز الكولونيالي بكل مرافقه، وسط غابة صنوبر ما زالت تتنفّس نضح أريجها على الرغم من مقتها للحياة الريفية. لم تقبل بهذا الوضع الجديد، مع أنّها ارتضت لنفسها حمّالًا لا يكفي قوت يومه، ووقفت في وجه أهلها الذين أبدوا معارضة شديدة. وعلى وجه الخصوص إخوتها الذين دفّعوها فيما بعد ثمن نزوتها. لكنّه كان وسيمًا كنخلة فارعة يانعة، بعينين عسليّتين شفّافتين مثل «دقلة نور». (أفكّر أحيانًا بأنّ شبهي بوالدي هو ربّما سبب دعوات والدتي عليّ). لم تفارق صورته مخيّلتها منذ أن رأته يسلّم والدها برفق وحذر شديدين حمولة شتلات لأنواع جديدة من أشجار الصنوبر شحنت من جزيرة كورسيكا. ورأت نفسها شتلة فريدة من هذه الشتلات في بستانه المزهر. كان يحلو لأمّي أن تقصّ حكاية حبّها لصديقتها الخيّاطة الهجّالة التلمسانية، كما لو كانت في كلّ مرّة تستعيد برهات من سعادة خاطفة. كنت حين أسمعها أشعر ببعض الحرج الذي سرعان ما يتلاشى، فقد كانت تبدو لي في تلك الأحيان شخصًا آخر غير أمّي.

أمّا أنا فليست لي أيّ ذكريات تحضرني مع والدي. كنت أعتقد أنّه لم يكن يراني. ربّما ضعف بنيتي وصمتي وخيبة أمّي لأنّي لم آت ذكرًا جعله يسايرها في عدم الاهتمام بي. كنت طفلة غير مرئية. ليست لي طلبات أو أمنيات. آكل حين يحضر الأكل ثمّ أنزوي حيث

لا يشعر بي أحد. أقف أمام نافذة المطبخ المطلّة على الشارع، ألعب بخصلات شعري، وأتفرّج على المارّة وعلى من يرافقونهم ممّن لا يرون. وعندما يأتي إلى البيت كنت أصطنع النوم تحسّبًا للملاسنات التي تدور جلّها حول أخي هّواري.

لاحظت في نظرات أمي لكِنّتها المقبلة هدية التساؤل المهموز نفسه عن سبب قبولها هواري زوجًا، رغم اعتراض أمّها الحاجّة هجيرة، خاصّة عندما دخل ببرنوسه الأبيض ليرفع طرحتها ويلبسها الخاتم وسط الزغاريد الملعلعة، وأغاني الأفراح والإيقاعات المتصاعدة للطبول والدفوف. شاقًا طريقه بين المدّاحات والراقصات الهائجات. وبديا معًا كالجميلة والوحش.

***

لم تكن هديّة، أو «هدية الله» كما تصرّ أمّها على تسميتها، غريبة عن حي اكميل مع أنّها تسكن في حي مُدينة جْديدة، حتى أنها تتمتّع ببعض الشهرة لما نسج من روايات حول شبقها. إذ تلوك الألسنة السليطة دعايات عن تلبّسها في تصرّفات أقل ما توصف به أنها غير محتشمة، في الجهة الخلفية من السوق البلدي لاكميل. حين تحل ضيفة على أختها هند -المولعة للمفارقة بالأفلام الهندية لدرجة أنّها ترسم دائرة بأحمر الشفاه القاني بين حاجبيها- والمتزوجة من صاحب قهوة بالقرب من حلبة الثيران أو الطورّو. وهناك من يحلف بأغلظ الأيمان بأن هدية تواعد أشخاصًا في هدأة القيلولة أو عتمة الليل خلف ذلك السوق، وبأنها تفضّل الوضعيات التي لا ينجرّ عنها تبعات. وهو ما يفضّله أيضًا غالبية عشاقها.

لا بدّ وأن ساورت الحاجّة هجيرة شكوك بشأن عفّة ابنتها، فقد كان قلقها باديًا عندما دخل هواري عليها من حركة شفتيها المكتنزتين اللتين كانتا تتمتمان بخليط من الأدعية والآيات الملحونة، ومن عينيها المسمّرتين على باب الغرفة، غير عابئة بتصاعد حدّة الأهازيج، وحالة الهستيريا التي تملّكت الحاضرات في الداخل، والحضور في الخارج. فتبادرها إحدى الجارات بنفاد صبر يضمر مكرًا:

- آه خيتي شتا راكي تقارعي[1] باش تقولي للوْزير[2] يطبطب عليهم. واك إنتي بنتك نعرفوها ما عندك علاش تخافي. شوفي الراجل كي داير حاله. هو يبان صحيح كي جا داخل. بالصح ما تحصيش[3].

لترد الحاجة مقوّسة حاجبها الأيمن باعتزاز متكلّف محاولة إخفاء اضطرابها:

- إيوه، قوليها وعاودي. بتي ما عندي علاش نخاف عليها.

ثم تضيف بنبرة فيها الكثير من التشفي لقطع دابر الكلام:

- وانتي بنتك اطلقت واللا ما زال؟

---

[1] تنتظري.

[2] المكلّف بأخذ منديل العذرية.

[3] من يدري.

هديّة 2

(هديّة)

اسمي هدية أو هدية الله كما تناديني أمّي، وكما يحب جلّ حديثي التديّن والمنافقين إضافة اسم الجلالة لأسماء ذرّيتهم المشكوك في نسبها غالبًا. أحبّ الحياة ولا تحبّني. ربما ولدت في المكان الخاطئ أوفي الزمان الخاطئ. لست أدري. لا أعرف الكثير عن الأمكنة الأخرى، ما عدا ما أسمعه من بعض المغتربين المتبجحين عن مباهج الحياة في فرنسا أو إسبانيا. وأظنّهم كذّابين. يعانون الأمرّين في مزاولة أعمال ومهن يتعففون عن القيام بها في بلدهم. ولا يأكلون ملء بطونهم كي يكتنزوا ما يمكّنهم من شراء سيارات فارهة وملابس مبهرجة، للتمتّع بنظرات الحسد والغيرة لدى أقرانهم، ولذرّ الرماد في العيون. كما أنني لا أعرف من التاريخ إلا ما علق في ذهني من فصول الثورة الجزائرية التي درستها قبل أن أهجر مقاعد المدرسة الإعدادية إلى غير رجعة. وشذرات مما يقصه عليّ هاشمي، مالك روحي وحياتي. لكن هذا لا يجعل منّي فتاة بلهاء. فالكلّ يشهد على فطنتي وبُعدُ نظري. وأنا من اقترح على والدتي الحاجّة هجيرة فكرة الذهاب إلى دمشق للتجارة. وهو ما غيّر أحوالنا بعد وفاة والدي الذي كان يكره البنات وابتليَ بخمس. لكنني كنت أشك في أنه من خلف نظراته المشوبة بالريبة واللامبالاة تجاهي، ينبجس أحيانا وميض إعجاب وتباه بجمالي الذي أغراه في صغري -وهذا أمر آخر لا أريد الخوض فيه- فقد كان لا يفتأ يردّد على مسامع أمّي المسطومة

بغيرتها الشديدة عليه بأنّ الحسن يغوي صاحبه قبل غواية الناظرين. كان بالتأكيد ينطق عن تجربة شخصية، إذ كان الجميع يناديه سي الهمّة وليس باسمه الحقيقي عبد القادر لأنه كان، علاوة على وسامته المتفردة، ذو هيبة أرستقراطية أورثنيها من بين ما ورثت عنه. وكنت الوحيدة من بين أخواتي الأربع التي أخذت عن أمي بياض بشرتها وجمال تقاطيعها، وعن أبي طول قامته ولون عينيه الشهلاوين.

كان غياب أميّ في رحلات التجارة الشامية يترك لي كامل الحرية في تسيير شؤون البيت، كما يترك لي حرية الخروج في أي وقت من الأوقات نهارًا أم ليلًا. لكنّي لم أكن أتجرّأ على الخروج في حيّ مْدينة جْديدة الذي وعيت على الدنيا فيه، فالكلّ يعرفنا فيه، بل كنت أفضّل حيّ اكميل حيث تسكن أختي هند المتزوجة من صاحب قهوة الطورّو. رجل يدّعي التقوى ويختزن المعاصي. وقد ضبطني ذات مرّة في الجهة الخلفية لحلبة الثيران بينما كان شاب يحاول تقبيلي ويده مدسوسة بين نهديّ. جرى وراء الشاب مهدّدًا، لكنّه لم يعنّفني حين عودته، بل قرص بأصابعه على حلمتيّ، وقال وريقه يسيل من طرف فمه:

- هادو ماشي انتاع البرّاني.

منذ ذلك الوقت وأنا أشتري صمته مقابل ترك يديه وشفتيه تعبثان بجسدي. وهو من علّمني كيف أنتشي من دون المساس بالمقدّسات.

غير أن حرصي لم يمنعني من الوقوع فريسة لابتزاز ذلك القرد الذي كان أضحوكة أهل اكميل ومرهبهم في آن. نصب لي كمينًا بالتواطؤ مع أحد شركائه الأشرار الذي دعاني ذات ليلة إلى بيته في

حيّ سيتي بيتي. بدأت السهرة بأقداح من لانيزيت ولا أدري كيف انتهت. لم أر ذلك الشاب مرّة أخرى، لكن هواري جاءني بعد أيام وأراني صورًا ما إن حطّت عيناي على إحداها حتى كاد أن يغمى عليّ. وآل بي الأمر أن صرت زوجته ومصدر رزقه الثمين. مع أنّه لم يختل بي منذ ليلة الدّخلة. وقد كانت ليلة غريبة بحقّ، فقد فضّ بكارتي بإصبعه، ومسح نزفي بمنديل خرج به نافشًا صدره كالدّيك. أشعرني ذلك بالإهانة التي تضاعفت بعد أن عرفت سبب اقترانه بي. كان يعطيني تعليماته قبل أن يخرج، من قبيل: انتظري في موقف باص «كوكا»، على الساعة كذا سيارة لونها كذا من نوع كذا. لم أكن معنيّة بالمقابل المالي لما أقوم به من خدمات تعرّضت في بعضها للكثير من الأذى جرّاء وحشيّة الزبائن. أحدهم كمّم فمي وقيّدني إلى عارضة سريره، وراح يطفئ سجائره فوق إليتي وهو ينعتني بأقبح الألفاظ. بقيت بعدها أكثر من أسبوعين طريحة الفراش، وحين أريت هوّاري ما حلّ بي لم يُظهر تأثّرا، بل نهرني شامتًا: «تستاهلي.» غير أنّي لا أنكر أنني كنت أبلغ ذروة اللّذة مع اللطفاء منهم وإن كانوا قلّة، وكان ذلك يمدّني بنشوة الانتقام لجسدي ولكبريائي.

لكن، منذ أن التقيت بهاشمي حياتي الماضية لم تعد تهمّني في شيء. احتل كياني وسكن أفكاري. صار هاجسي الذي أصحو وأغفو به. أعرف أنّه يشتهيني إلى أبعد حدّ، لكنّه غير مغرم بي. هو غارق في حبّ تلك الطبيبة التلمسانية الباهتة. رأيتهما يخرجان معًا أكثر من مرّة. وكلّما سألته عنها يجيبني بلهجة احتقار لا أدري كيف أحتملها:

- تغيري من هالة؟

- كيفاش؟ نغير من هذيك الورقة البيضاء بزوج نقاط للعينين وشرطة للفم؟

هالة: حتى اسمها ينتمي للذوات. سأرسم لها هالات زرقاء تحت عينيها. وسأهشّم رأس من أسماني هديّة. عندما سمعت أن هاشمي متزوج ولديه ولدان لم يضرني الأمر. تعلّمت من تجربتي ألاّ أخاف من الزوجات لأنّهن من خلال تلك الورقة التي تربطهن بأزواجهن يدخلن فيما أسميه غيبوبة الطمأنينة. خاصة بعد أن يرزقن بأولاد وإذا كانوا ذكورًا تصبح الغيبوبة أعمق. ما يقلقني لدى هاشمي أمران: معشوقته وسرّيته. لا يعرف عنه أحد شيئًا حتّى في محيطه الضّيق. لدرجة أني استعنت بجواسيس لتجميع المعلومات القليلة التي عرفتها عن حياته الملفوفة بالغموض.

يخرج من شقته في قاميطة قبل الفجر ولا يعود إلا في أواخر الليل. وفي تلك الأثناء ينتقل من عيادة أحد الأطباء الذي يعمل عنده صباحًا إلى المستشفى في بلاطو سان ميشيل، ثمّ إلى الجامعة في السانية فأماكن أخرى، متخذًا مسارات تنهك متبعيه وتجعله يفلت من رقابتهم. أحدهم رفض نهائيًا متابعة تقفيه على الرغم مما عرضته من إغراءات، وقال بنبرة من اكتشف ممسوسًا:

- والله ما نزيد نتبعه، هاد المخلوق جنّ وعفريت، يدخل في «بلاطو» يخرج في «لاباستي»، يدخل في «يتي» تلقاه في «شوبو»، اشكون يقدّ يجري من وراه؟ اخطيني... مانبغي والو... نزيدلك من عندي وبعدّيني...

حين قابلته للمرة الأولى في المستشفى وسحرني بمئزره الأبيض، لم أكن أتصور أن حياتي ستنقلب رأسًا على عقب، وأنّ كل ما عهدت نفسي عليه وعاهدتها به ستذروه رياح الهوى المحموم فيما بيننا. جسدي الذي كنت أوظّفه لافتكاك لذّات خاطفة، ولإرضاء زبائن زوجي، أصبح ملكه الخالص بعد أن كان ملكي الحصري. كشف لي فيه نقاط انتشاء لم أكن أعرفها، ولا يعرفها أحد من عابريه العرضيين الذين كانوا يتركون في حلقي غصّة اغتصاب كلّما افترشوه. علّمني هاشمي كيف أحبّ جسدي بدل أن أستغلّه. والهنيهات الوجيزة التي أقضيها في أحضانه تجعلني أشعر وكأنّي سمكة نادرة الجمال والألوان تنساب بخفّة في إناء حنانه البلّوري. لكن رغم كلّ ذلك، كثيرًا ما كان يقلقني كتمانه. فقد كان ذلك يجعل منه شخصًا وهميًّا خاطف الحضور. ويشعرني بأنّي قد أفقده في أيّ لحظة.

غير أنّ ما صار يقلقني أكثر هو التغيير الذي طرأ على زوجي هوّاري. لم يعد يحضر لي زبائنًا كعادته. لم أستوضحه في البداية، لأن ذلك كان يترك لي وقتًا أطول أقضيه مع هاشمي. لكن بعد أن أدخل آلة القويثرة في علبتها ووضعها فوق الخزانة أدركت أنّ شيئًا خطيرًا قد حدث، فسارعت إلى سؤاله:

- وعلاش تخبّيها؟

نظر إليّ مطوّلًا وأجابني بلهجة وقورة وهو يرفع غرّته إلى أعلى رأسه:

- الموسيقى تجيب الشياطين.

لم أتمالك نفسي وضحكت حتى انقلبت:

- الشياطين؟ وأنت واش تكون؟

وبدل أن ينهال عليّ ضربًا أو سبابًا كعادته، أطرق وخرج من الغرفة في صمت.

تفاصيل صغيرة نبّهتني إلى تغيّره، كأن يبدأ الأكل بعبارة باسم الله وينهيه بالحمد لله، وهو الذي لم يكن يذكر اسم الجلالة إلّا لسبّ الدّين. وصار يختلف إلى منزل بائع للمفروشات في حيّ شوبو، مدمن على العمرة والحج، ونساؤه وبناته لبسن النقاب حتّى قبل ظهور موضة التديّن. كان يأتي لاصطحابه هوبل الفارماسيان الذي ينتمي في اعتقادي لصنف آخر من أصناف الدمامة المختلف عن هوّاري. وكان كلّما حضر يتعمّد مصافحتي حتى يغرس وسطى أصابعه في راحتي. وهي حركة أعرفها تمامًا، وأقوم بها شخصيًا حين أرغب في الاختلاء بأحدهم. فأرميه بنظرة شفقة متكلّفة مع عبارة:

- كي ينوّر الملح...

صار ذلك المنافق الصديق الودود لزوجي ورفيق هدايته.

كل ذلك لم يكن يعنيني، حتى علامات التغير في الشكل والهندام التي طرأت على النساء والرجال لم تغيّر شيئًا من عاداتي. فقد كنت منذ بلوغي ألبس الجلابة وأتوشح بشال أغطي به رأسي. ولم تنل تغطية الرؤوس وإطالة اللحى من شبقية الفروج. بل صارت تبرّر بعبارات مستقطعة من آيات وأحاديث من قبيل: «نكاح المتعة»، أو «نكاح المسيار» «أو ما ملكت أيمانهم»، حتّى النساء عثرن على عبارة: «ما ملكت أيمانهنّ». أشياء لم تكن تخطر لي على بال ولم أكن افهمها. لكن ما أثار حفيظتي أنّ هواري راح بمعية عصابته المتخشّعة

يضع قوائم بأسماء أشخاص بارزين على الساحة الوهرانية، ضبطت بعضها في جيبه ذات يوم، وقرأت فيها أسماء لأشخاص كان بعضهم من الزبائن الذين كان يحضرهم لي، وسمعت عن اغتيال عدد منهم على أيدي جماعة إرهابية تنشط في المدينة. لكنّ عينيّ خرجتا من محجريهما عندما وقعتا على اسم: «هاشمي هجرد» وقد أحيط بعدّة دوائر نزقة: ذلك اللقيط يريد أن يسلب روحي.

نزلت كالمجنونة أبحث عن هاشمي.

هاشمي 1

حين رجعت هديّة لزوجها هوّاري، كان ذلك نزولًا عند إلحاح أمّها الحاجة هجيرة التي تعتبر الزواج بوليصة تأمين ضد نفاق المجتمع ونميمته. بعد أن كانت بالطبع قد رسمت كل تفاصيل العودة الميمونة بشكل يحفظ ماء وجه ابنتها، ولا يلطخ كرامتها وسمعتها التي اشترتها بسبعة أيام وسبع ليال احتفالًا بحج افتراضي إلى بيت الله الحرام. حضّرت كل السيناريو بمعيّة الهجّالة التلمسانية صديقتها الخيّاطة. ولم تترك فسحة لعكر الصدف. لم تكن تريد أن تفسد على بناتها الثلاث الباقيات فرصة إيجاد عريس غفلة لكل منهنّ. وهو أمر تخطط له مع الخيّاطة منذ زمن. وتستطلع أحوال العزّاب في كل بيت تزوره لترويج بضاعتها الدمشقية والبيولوجية.

قَبِلَتْ هديّة العودة على مضض، لكنّها فهمت من تلميح أمّها بأن الزوج «إزار الباب» دعوة صريحة لأن تعيش على هواها وتحتمي برباط الزوجية. راقتها العبارة، خاصّة وأنّها لا تزال تشعر بوخز الإهانة التي صفعها بها هوّاري حين أمرها ليلة عرسها، بعد أن فضّ بكارتها بإصبعه، بالمتاجرة بجسدها لحسابه. ليس لأنّها لا تحبّذ الفكرة من أصلها، ولكن لأنّه هو صاحبها. هو، بعلها الذي يفترض أن يعتبرها ملكية خاصّة حتى لو لم يكن يحبّها. فكّرت بأن رجوعها إليه سيمنحها الفرصة لتطبخ له انتقامًا بليغًا على نار هادئة.

جاءتها الفرصة حين مرضت أمّها ولزمت الفراش لفترة بعد أن عجزت عن شفائها الخلطات العشبية التي كانت تأتي بها صديقتها

الهجّالة التلمسانية من عند خيرة الهواوية شوّافة الحمري. انتقلت إلى بيت أمّها للسهر مع أخواتها على العناية بها. ومع استمرار تدهور حالتها الصحية، أصرّت على أن تصحبها إلى المستشفى لكي تعرضها على طبيب حقيقي. وكانت تردّ على اعتراضات أمها وصديقتها الهجّالة بسلاطة لسانها المعهودة، ولكن بحنق ينمّ عن فكر لا يؤمن بالخزعبلات الغيبية:

- ذيك القح... الحمراوية ولاّت طبيبة ذروك[1]؟ شنا والا[2]؟ باغين تقتلوها؟ من الغد نذّيها للسبيطار يشوفها طبيب انتاع بالصح وصحيح. وقولي لهاذيك الشوّافة انتاع أمّك تسرط ذاك الحشيش وتترهّج بيه بروحها...

كانت قاعة الانتظار في المستشفى تغصّ بالمرضى والجرحى والمرافقين. جاؤوا من كل حدب وصوب. منهم من قضى الليلة في انتظار أن يكشف عليهم طبيب أو حتى ممرّض. تجاهلت هديّة الجميع وطرقت بقوّة على باب المناوبة، ولمّا لم تلق جوابًا توجّهت صوب شبّاك المراجعة ودفعت بقوّة درفة النافذة الكدماء، ثم أدخلت كامل رأسها من الفتحة لتجد الغرفة فارغة فأخذت تصيح:

- شاوالا؟ السبيطار راه كونجي والّا[3]؟ ما كانشي طبيب والّا فرملي[4] يرقّب على هاد الغاشي[5]؟

---

[1] الآن.

[2] ما الأمر؟

[3] المستشفى في عطلة أم ماذا؟

[4] ممرض.

[5] الجموع.

ربّت أحدهم من ورائها على كتفها فاستدارت مذعورة، وقال بالفرنسية:

- أنا الطبيب. ما هو طلبك؟

ها هو انتقامها يقف كالنخلة الباسقة أمامها. فاجأتها وسامته وقامته. تفرّست فيه مرتبكة. وتساءلت للحظة عن سبب تركه لكل أولئك المنتظرين منذ ساعات أو أكثر واهتمامه بها. انتفخ غرورها مع صدرها الذي أحسّت بحلمتيه تنفران من تحت جلاّبتها الورديّة الحريرية. وراقها أن تحط نظراته عليهما. ارتسمت ابتسامة متواطئة على ثغرها وأشارت إلى والدتها وهي تميل برأسها بغنج:

- أمّا راهي مريضة.

ابتدأت العلاقة بينهما بسرعة لم تجد لها تفسيرًا. راودته عن نفسها فاحتواها دون مقدّمات. كانت تظنّ بأنها مجردّ مغامرة عابرة تزول بزوال النشوة. لكنها استمرت. وتوطّدت. وتعقّدت. كيف يمكن وصف علاقة بين طبيب مثقف على قدر كبير من الوسامة، وامرأة نصف جاهلة لكّنها بكل مؤهلاتها الأنثوية تساوي امرأتين أو أكثر؟ تختزن من نهم الحياة ما يكفي لنزع الاكتئاب عن مأتم في أوجه. ولا تحاول إخفاءه أو تمويهه بأي شكل كان. «أنا هاكدا ما عندي ما ندير!» وحتى عندما ينهرها هاشمي بطريقته المازحة، ويطلب منها أن تحسّن من ألفاظها وأن تغيّر من طريقتها في الكلام والملبس، تجيبه بالعبارة نفسها: «أنا هاكدا ما عندي ما ندير!».

أكثر ما كان يكيدها فيه سرّيته المنيعة. لا يتفوّه بكلمة عن نفسه أو عمله أو محيطه. وكأنّه مقطوع من شجرة. أفزعتها فكرة أنّه لو

اختفى فجأة فلن تعرف لأراضيه مقرّا، اللهمّ سوى المستشفى. وماذا لو غادرها أيضًا؟ لم يكن بمقدور امرأة تعلن كل ما يخفيه الناس، بل تشهر أكثر الأشياء حميمية أمام الملأ دون خشية رادع أن تجاري بئرًا من الأسرار بلا قرار.

أخذ فضولها ينغّص عليها حياتها. صارت تراقبه وتتبعه في كل مكان. وأحيانًا تضطر أن توكل هذه المهمة إلى بعض زعران الحُمري، نفس أولئك الذين كان يسخّرهم زوجها لمراقبتها والذين اشترت ضمائرهم وولاءهم ببضع جلسات حميمة. لكنّه كان دائمًا يفلت من أعين الرقباء، ويتلاشى في الطبيعة دون ترك أثر. كل ما عرفته أنّه يتردّد على أمكنة مختلفة، يخرج منها تباعًا أشخاص يلتفتون يمنة ويسرة قبل الانصهار بين جموع المارة. لكنّه حين يدخل، لا تراه يخرج. فيزداد فضولها تأجّجا. كلّ ذلك كانت لتتقبّله، لكن لمّا أخبرها الوشاة بأنّه يتردّد على شقة في سوق لاباستي تخرج منها قبله امرأة شقراء جنّ جنونها. كانت الشقة تقع في عمارة بمحاذاة السوق مما سهّل عليها نصب المراقبة. ولمّا تأكّدت من وقوع الخيانة، تبعت الشقراء فرأتها تدخل المستشفى. دخلت وراءها وعرفت بأنها طبيبة مقيمة.

تهالكت فوق أول مقعد حجري صادفها في حديقة المستشفى. وأحسّت بالشوك ينتصب في كلّ بدنها ليصل إلى حلقها. أي طعم هذا؟ أهو طعم الإهانة أم الخذلان؟ ولم هذا الإحساس بالامّحاق الذي يعتريها؟ هي تعرف بأنّه متزوّج، وتعرف في أعماقها بأنّ علاقتهما لا يمكن أن تؤول إلى أيّ درب من دروب الاعتراف الاجتماعي مهما كان ضمنيًا. إذن ما الذي يضيرها في أن تكون له علاقات أخرى مع

غيرها، وهي التي تعاشر من هبّ ودبّ؟ أغمضت عينيها ورأت نفسها صبية تحلم بفارس الأحلام. لم تذكر في حياتها أن تبلّلت وجنتاها بالدموع، بل تذكر الحنق والغضب والصياح وكظم الغيظ من دون نحيب أو شهيق. أيقظتها حرارة القطرات المنهمرة مدرارًا والنشيج الأصم الذي علق بحنجرتها، لتنفذ منها عبارة خرساء:

- روح لأمّك...

هاشمي 2

هذه الصبيحة، خرج هاشمي مكتئبًا. ليس من عادته الاكتئاب. يدّعي بأنه شعور لا يعرفه إلّا ضعاف النفوس. وهو محصّن بنوائب الطفولة بما فيه الكفاية. ولا يفتأ يردد: «كلّ شيء يتأصّل قبل سنّ السادسة.» والده اختفى مع ابنة معمرّ من أصول ألمانية، صاحب معمل للخلّ في بلدة سيدية الساحلية الواقعة قرب مستغانم، والتي يمرّ منها خطّ «غرينيتش». هذا الخطّ الذي فصل بينه وبين طفولته إلى الأبد. كان والده يعمل عند تاجر جملة في المواد الغذائية بمدينة وهران، ولم تسعفه أصوله التلمسانية من تبوء مركز فيها. ربّما كان خجله المفرط الذي أورثه إيّاه هو السبب. ويقول من عرفه بأنّه لا يجرؤ على النّظر في أعين الناس حين يخاطبهم. أمّا كيف تعرّف على تلك الألمانية وهرب معها إلى وجهة مجهولة، فتلك قصّة لم يقدر أحد على فكّ طلاسمها. حتّى أمّ أولاده السبعة لم تجد تفسيرًا.

كلّما فكّر في أمّه كره النساء جميعًا. فبعد أن فقدت الأمل في عودة زوجها، وزّعت إخوته الستة على المعارف والأقارب وحتى على مركز الأيتام. وتزوّجت رجلًا يدّعي أنّه تاجر جملة. لم يكن لينجو هو نفسه لو لم يكن أصلًا موزّعًا عند جدّته لأبيه ذات الأصول القلوغلية. لا أحد يعرف أنّ اسمها مامونيّة ويدعوها الكل باسم «لالاّ مينة».

لا يزال يرى من علوّ سنيه الستة وجه أبيه الممتقع بعد ليلة عراك مع أمّه، في تلك الغرفة التي تكاد تتشقّق جدرانها العفنة من أصداء بكاء الأطفال وهرجهم.

كان مستندًا على الحائط ينتظر حدوث فاجعة مؤكّدة. لم يدر ما الذي تداعى إثر ذلك: الحائط أم جسده الصغير.

وجد نفسه ثانية في بيت جدّته لالاّ مينة في العامرية، بلدة قريبة من وهران، كولونيالية الطراز والسكان. كان جدّه يعمل فيها مزارعًا لدى هوبير صاحب الكروم الشاسعة التي تنتج خمورًا منتشية بأشعة الشمس، تضاهي أفضل ما ينتج في فرنسا جودة. يعتّقها في أقبية تشغل مساحة مزرعته المترامية الأطراف. وقد بنى فوق أعلى رابية فيها بيتًا يشبه بيوت حكايا الجنّيات، لا تزال أطلاله ماثلة حتى الآن. لكن كلّ تلك الأراضي كانت في الماضي ملكًا لعائلة جدّه، ورثوها عن أسلافهم الذين طردوا من الأندلس حسب ما يتناقله الرواة، فاستقرّوا في تلمسان ومنها نزحوا إلى العامرية.

جرّدهم الاحتلال الفرنسي من ممتلكاتهم ومنحها مقابل الفرنك الرمزي لآل غونزاليس هوبير. تفرّقت عائلة جدّه هجرةً وشتاتًا في الأصقاع. منهم من رحل إلى بلاد الشام، ومنهم من اعتكف في أعالي جبال بلاد القبائل، ولم يبق منها سوى والد جدّه الذي مُنح منزلًا صغيرًا قرب أحد أبواب الأقبية على مشارف المزرعة. لكن الرواية تقول إنّه مات في سجون كاليدونيا عقابًا له على إحراق محاصيل آل غونزاليس.

نشأ هاشمي في بيت جدّته على رائحة الخمور تنبعث من الأقبية المجاورة. تلك الرائحة التي تشعره بالحنين كلّما وجد نفسه مع أناس يتعاطون النبيذ. فيسارع إلى فتح الزجاجات، ويأخذ من أعناقها أنفاسًا عميقة تعيده طفلًا إلى أرضية قبو العامرية، ورأسه تحت صنبور خزّان

النبيذ الخشبي، فاتحًا فمه لتلقّف القطرات العقيقية إلى أن يغيب عن الوعي. كم مرّة حملته جدّته وهرعت به إلى المستوصف ظانّة أنّه فارق الحياة. قد يكون ذلك ما أراده فعلًا. لكنّه كان آنذاك طفلًا لا يقدر على الموت. يهاله كمّ النفاق المتفشي حوله. الكل ينافق. اكتشف ذلك منذ أن كان في السابعة من عمره، بعد فرار أبيه مع الألمانية ابنة صاحب مصنع الخل في استيدية. ورأى كيف تسحّب الأهل والأصدقاء من حولهم شيئًا فشيئًا. وكيف تغيّرت معاملة الجميع لهم. حتى أمّه تغيّرت. تباعدت زياراتها له في العامرية التي كانت منتظمة، إلى أن انقطعت تماما بعد ولادة أخت له تبعتها أخرى، لا يراهما إلّا في المناسبات.

بالتأكيد كان مكتئبًا هذه الصبيحة رغم مكابرته. لم يجد زوجته في البيت عند رجوعه مساء البارحة. أحسّ بشيء من الارتياح. لكنّه لاحظ شيئًا غير عادي في الفراغ الذي تركته. شيء ينبئ بغياب طويل. علاقته بزميلته الطبيبة الشقراء هالة لم تعد سرًّا لأحد. من الصّعب إخفاء الأسرار في مدينة مثل وهران. الكلّ مرتبط بالكلّ بشكل أو بآخر. سواء في مجتمع الواهرانيين الأقحاح أوفي مجتمع التلمسانيين. لكن قلّما يلتقي المجتمعان. فالأول يعتبر نفسه من الأهالي الأصليين بأصالة غير مصطنعة، والثاني يترفّع عن الأوّل ويمارس فوقية من فقاعة التمدّن التي يتسربل بها. ولا أحد يعرف من أين خرجت كل تلك الأموال التي اشترى بها هؤلاء بعد الاستقلال أهمّ المرافق التجارية والعقارية، فأحكموا سيطرتهم على المدينة، لتصبح وهران الجزء الظاهر من جبل الجليد المالي التلمساني الذي

راح يمتد إلى أليكانت ومالاقا ومادور، على حدّ تعبير بعض الناقمين من أهل المدينة المضيافة.

تنتمي زميلته إلى واحدة من أعرق الأسر التلمسانية. أفرادها من أصحاب المهن الحرة، لكنهم ككل أبناء جلدتهم لا يشهرون ثراءهم. خوفًا من الحسد أو تهرّبًا من الضرائب. ويحرصون على تعليم أولادهم. تعرّف هاشمي على أخيها في إحدى السهرات التي ينظّمها بوزيّان رفيقه في التنظيم وأستاذ الاقتصاد في جامعة وهران. قدّمه له كواحد من المتعاطفين مع المبادئ التي يناضلون من أجلها. بدا له شخصًا سطحيًا يرمي بين الحين والآخر بمقولات ومفاهيم لمشاهير المفكّرين لا يفقه معانيها. لم يثر اهتمامه إلّا عندما أخبره بأنّ أخته تدرس الطبّ مثله وخمّن من الشبه بينهما بأنّها هي بالذّات هالة حبيبته.

كان والدها طبيبًا عُرف ببخله الشديد. يُلقبه المتفكّهون «بشهادة وفاة»، لأنه كان يذهب كل يوم بعد الانتهاء من معالجة مرضاه إلى البلدية ويوقع على شهادات الوفاة، فيجني قدر ما يُحصّله في عيادته في يوم واحد. ثمّ يعرّج على السوق ويشتري فضلتها بأبخس الأثمان. كوّن ثروة كبيرة لم يتمتع بها ذووه إلا بعد مماته. فانتقلوا بها إلى وهران، واشتروا عقارات في أرقى الأحياء، منهم من اشتغل بالتجارة ومنهم من فتح عيادات خاصة تحمل أسماء أسلافهم.

كان هاشمي معجبًا بذكاء زميلته الثاقب ومنبهرًا بأسطورة أهلها. كان يطمع لأن يصنع لنفسه مثلها، وينتقم من الفقر الذي كان رفيق دربه إلى أن دخل الجامعة وتسجّل في كليّة الطب. لهذا تزوج قبل

أن يبلغ العشرين من ابنة قاض مشهور واسع الثراء، والذي طلب منه هاشمي بعد شهرين من زواجه التوسّط لصالح بوزيّان زميله في النضال الذي عثر أعوان المخابرات في بيته على مناشير سياسية، وكان سيقضي أشهرًا أو سنين في السجن لولا تدخل ذلك القاضي. كان ذلك الطلب الوحيد الذي رجاه من نسيبه، باستثناء طلب يد ابنته. الكل كان يعرف أن مصدر ثروته الرشاوي التي يتلقاها عن كل قضيّة يبتّ فيها مهما كانت خطورتها. فهم مبكّرًا أن المال لا يشتري الذمم فحسب، بل يساعد على فقدان ذاكرة المعاصي، ورتق بكارة الفجور.

كان قد عاهد نفسه على ألاّ تبلّل شفتاه قطرة نبيذ مهما غارت رائحتها في طفولته. والبارحة نكث عهده. كان مدعوًّا لسهرة من تلك السهرات التي يعرف مسارها ومآلها جيّدًا. سهرة مجون ذكوري بأتمّ معنى الكلمة. يجتمع فيها في منزل صديقه بوزيّان رفقاء في التنظيم ممن نذروا حياتهم لتغيير المجتمع. ويعتبرون أنّه من الواجب أن تردّ لهم حثالته بعضًا من تفانيهم على شكل نشوة خالصة.

عندما كان ينهب السلالم بخفة قدميه، لم تخامره فكرة اصطحاب هديّة إلى الحفلة التي يقيمها رفقاء النضال في وكر المصلحين. لم يرها منذ أسبوع، لكنّه كان يحسّ بها تتقفّى كل خطوة من خطواته سواء بنفسها أو بالوكالة. لا يدري لم كلّما حضره ذكرها تتصاعد في عروقه موجات حارّة فيسارع إلى تغطية فاضحه بكنّاش إن كان في جولة المعاينات الصباحية، أو بالجلوس فوق أقرب كرسي حين يكون مع أقرانه. وحتىّ حين يكون مع حبيبته الأرستقراطية الشقراء يتخيلها تتقمّص سوقية هديّة بألفاظها البذيئة وحركاتها المثيرة. لكن

قلّما تتوافق التركيبة لمّا يضعهما جنبًا إلى جنب: تبدو حبيبته كطيف سماوي ينيره الذكاء في وسط من الألوان الصباحية الرقيقة التي يمحوها وهج السطوع. أما هدية فهي السطوع نفسه.

في نهاية السهرة، انتحى ركنًا من غرفة الصالون المفروشة بأثاث علاه غبار السبعينات. اقترب من الطاولة التي تكون قد شهدت في عهد مضى لمعان سطحها. أمسك بزجاجة النبيذ ورفعها إلى مصدر الضوء ليرى نقاء إكسيرها كما يفعل الضالعون في سكرة المدام. أخذ يعبّ منها إلى أن لوّن قعرها زرقة عينيه ببريق أخضر.

بعدئذ انقشعت كل غمائم ذهنه المكتظ. وشعر بدوار لذيذ. راح يجول ببصره في أرجاء المكان. لا أحد، لا شيء يستحق الرسوّ. النافذة ربّما. لولا ذلك الجسد السخيّ الذي يكاد يغطي كل منافذها. النافذة طبعًا. ها قد تحرك الجسد وكشف عن مفاتن أثارت في نفسه شهوة سحيقة احتجزتها ليلى النبيذ. من تكون صاحبة هذا الجسد؟ هل رآها من قبل؟ ليست هديّة بالتأكيد. هل أصبح يراها في كلّ أنوثة صارخة؟ كيف يمكن أن تحبّ جسدًا ولا تحبّ النفس التي تسكنه؟ في تلك اللحظة بالذات، تمنّى أن يكون ذلك الجسد الذي يسدّ النافذة جسد هديّة. أراد أن يضمّه إلى صدره، يقبّل كل مسامّة فيه، ويعتذر من تلك النفس العالقة بينه وبين هالة وما يطمح إليه في الحياة. غمره شعور بالخجل والذنب. ليس سوى واحد من هؤلاء الذكور المعربدين، غير قادر على تطبيق أيّ من المبادئ الجميلة التي ينادي بها ويناضل من أجلها. كيف يمكن إلغاء خمسة عشر قرنًا من تاريخ ذكوريّ متسلّط؟

لم يكن قد فكّ وثاق ساعديه المتعامدين حين توقّفت الموسيقى فجأة. حرّك الصمت النظرات بدوائر لولبية متعاكسة. كسهام فارقت أوتارها للتّو وخانتها الجاذبية. نظرات ما بعد منتصف الليل. فارغة، مستجدية. من محاجر أجساد متهالكة. في جوّ من الفوضى غير المتّسقة. كم هو كئيب هذا العالم. وهؤلاء المتزاحمون حول الجسد المنتشي بالصخب والدخان. أخذهم الإعياء على حين غرّة، فراحت ألثمة النفاق تتساقط عن سحناتهم الواحد تلو الآخر. لتحفر قسماتهم بأخاديد وأورام الشهوة.

كان من المفروض أن يعقد التنظيم اجتماعه في منزل صديقه بوزيّان بعد انتهاء الحفلة وانصراف المدعوين. لكن المعلومات أفادت بأن حركة مشبوهة لعناصر ملتحية قد تمت ملاحظتها في المنافذ المؤدّية للحيّ. فاقترح هاشمي عقده في شقة «لاباستي» التي استأجرها لتدوين أفكاره وللاختلاء بحبيبته الشقراء. مع أنّه لم يكن يريد لأحد أن يعرف مكانها. فهي على وضاعتها، الفضاء المقتطع من عاديّة الأحيان الذي يمكّنه من الارتقاء إلى ذرى الفكر النقيّ واللذة المهذّبة مع هالة التي تستهويه أرستقراطيتها. والمكان الذي يكتب فيه تصوّراته عن العالم المشرق والذكيّ الذي يحلم به. يقضي فيها أحيانًا أيامًا بأكملها يعيش على «الكارنتيكا» والخضار الطازجة التي يشتريها من السوق المحاذي. غير أنّها كانت الموضع الأنسب لاجتماع سريّ، لأنها تقع في الطابق الأرضيّ ومن السّهل رصد أي حركة مريبة عند الحاجة. وهو يعرف جيّدًا أن التنظيم الآن يجابه خطرين: أعوان المخابرات الذين عانى منهم الأمرّين من سجن

وتعذيب، وأعوان الإله الفتّاك الذين يريدون تحويل البشر إلى آلات راكعة ساجدة. خاصة بعد أن أسقطت أيادي هؤلاء أحد أصدقائه، وهو رمز من رموز الفن المسرحي في وهران.

كان في قرارة نفسه يشكّ في قدرة التنظيم على المجابهة. فما كان يحدث قد أثبت هشاشة الخط العقائدي وقدرته على النفاذ إلى عقول الطبقة المهمّشة التي يدّعي الرغبة في إنقاذها. كم من مرّة أراد أن يشرح ذلك لرفقائه، لكنّ نظام السّرية المغلق قد جعل من مسألة إحداث جوّ ديمقراطي في النقاش أمرًا مستبعدًا جدًا. لدرجة أنّ البعض راح ينعته بالمنشقّ. وقد كان في حقيقة الأمر منشقًّا فعلًا. منشقّ عن المجتمع الذي يعيش فيه، فلا شيء يربطه به سوى ذكريات الطفولة البعيدة التي ترجعه إلى عوالم العامرية، القرية الكولونياية النظيفة العابقة بروائح العصائر الإلهية، وإلى معلّمه الفرنسي في المدرسة الابتدائية الذي علّمه كيف يفكّر ويجادل ويُقلّد. ومنشقّ أيضًا عن أقرانه الذين لا يجد أحيانًا ما يجمعه بهم من عميق الفكر وقدرة الاستشراف القائمة على المنطق. لطالما كرر على مسامعهم أننا في الماضي كنّا نحارب عدوًّا نعرفه ونعرف وسائله، أمّا الآن فإنّ العدوّ بيننا أخرجته تعويذة شيطانية من رحم كتب صفراء بالية، ومن أذهان حجّرها الجهل والفقر. وحين يجد من يتوسّم فيه بعضًا من سعة البصيرة، يقوم بتحليل الأوضاع في المنطقة بأسرها، ودور النزعات الاستعمارية الجديدة الرامية إلى الاستحواذ على مسارات التزوّد بالطاقة والمياه، عن طريق زرع الخوف، وتأجيج الفتن، وافتعال الحروب. وبأنّ المجتمع البشري في التاريخ المدوّن قد مرّ

بعصور ثلاثة: عصر الأديان ثمّ عصر الإيديولوجيات وها هو الآن يشهد عصر المال، ولكلّ عصر رصيده الضخم من الضحايا. لكنّ عصر المال أشدّ فتكًا من سابقيه، لأن القائمين عليه، وهم قلّة، على استعداد للتضحية بثلاثة أرباع البشرية للمحافظة على امتيازاتهم. والغاية هنا تبرّر الوسيلة: خلق بؤر التّوتّر، استنفاذ الموارد الطبيعية، نشر الأوبئة... حتىّ أولئك المستنيرين من الرفاق كانوا ينظرون إليه باستغراب كما لو كان يحدّثهم عن صورة قاتمة لنهاية العالم.

وصلت الأوامر بتجميد كل نشاط للتنظيم. راقت الفكرة لهاشمي الذي لم يعد يؤمن بفعّالية النضال بالطريقة التي كان يمارس فيها إذّاك: نقاشات سفسطائية حول مواضيع إيديولوجية، وجدل بين أناس استرغدوا العيش في أبراجهم العاجية، فانقطعت أواصرهم مع عامة الشعب الذين يراهم هاشمي كلّ يوم يتوافدون إلى المستشفى مثقلين بأمراض معلنة وخفية. كان أكثر ما يحزّ في نفسه تغافل الرفاق عن تحذيراته المستمرة من حراك كامن يؤجّجه اليأس، ومن أنّ كلّ أماكنهم السّرية المخصّصة للاجتماعات لا يمكنها أن تقف في مواجهة أصحنة المساجد ومنابر الأئمة المأجورين، ولا لشعاراتهم الرنّانة في تحقيق العدالة الاجتماعية أن تقف أمام الوعد بالجنّة.

منذ مدّة وهو يفكّر في الانسحاب من التنظيم. بدأ يشعر بانعدام التناغم بين جماليات المبادئ ومفارقات التطبيق. اختلاطه بعامّة الناس زاد من قناعته بعمق الهوّة التي تفصل بين رفاقه المنظّرين لمجتمع افتراضي مؤدلج، وبين مرارة واقع الحال للسواد الأعظم من المجتمع الحقيقي. من السّهل أن نرجع لماضٍ نعرفه عن أن نطمح

لمستقبل نجهله. التغيير مخيف. ولا أحد يعرف ذلك أفضل منه. كم تمنّى لو كان فلاّحًا أو إنسانًا عاديًا لم يتلوّث فكره بأصناف المعارف النظرية. يعيش حياته يومًا بيوم، لا يكترث إلّا لارتفاع سعر البطاطا في السوق، ومنتهى السعادة لديه أن يُضحّي بكبش العيد ويُتخم باللحم والقدّيد.

عندما خرج من المستشفى في ذلك اليوم العاصف، وقد نزع سترته ليغطي بها رأس هالة ورأسه من غزارة الأمطار، ويده تعانق كتفها، لمح هديّة من بعيد واقفة أمام باب المستشفى. حاول تجاهلها أثناء مروره قربها، فصاحت به والشرر يتّقد في عينيها:

- راك في الليستة[1]...

ثمّ استدارت نحو مرافقته وقالت:

- إنتي حسابك عندي...

[1] أنت في القائمة.

هجيرة 1

(هُوّارية)

«في الحقيقة، الكلّ يعرف أن الحاجة هجيرة أمّ هديّة زوجة أخي لم تكن حاجّة بالفعل. فقد كانت تسافر إلى المشرق مرارًا للتجارة، وإلى دمشق بالتحديد، تجلب الأقمشة القشية، وفساتين الزفاف والسهرة المصممة لأميرات القرون الوسطى، ومفارش الأسرّة المزركشة بفتلات التبر الصاعي الوهاج، والحلي الذهبية من عيار أربعة عشر، والأحذية المذهبة والمفضضة وذات الألوان الصارخة، وقمصان النوم الشّفافة، إلى غير ذلك من لوازم العرائس. وقد لجأت إلى هذه التجارة بإيعاز وإلحاح من ابنتها هديّة، وبعد أن ذاقت ضنك العيش ومرارته عقب وفاة زوجها السكّير عبد القادر أو سي الهمّة، كما يُلقّب، بتشمّع في الكبد. وقد كان كلّما أنجبت له بنتًا يمعن في إدمانه. خامستهنّ قضت عليه. كانت قد أودعت في السجن مرّتين: لعدم تصريحها بالعملة الصعبة مرّة، ولتهريبها كميات من الحلي الذهبية وخيوط اللؤلؤ التي لفّتها حول خصرها في المرة الثانية. وعند خروجها من الحبس، ولتبرير طول غيابها، أشاعت بأنها كانت في البقاع المقدّسة لتأدية فريضة الحج. وأقامت احتفالًا كبيرًا دام سبعة أيام كلّفها الكثير، لكنها كسبت احترامًا على قدر نفاق محيطها.

رحلاتها الشامية لم تكن سفرات استجمام كما سمعت من بعض المواطنين أو بالأحرى المواطنات، إذ جلهم من النسوة الفقيرات، وأغلبهن يسافرن بالوكالة لحساب تجّار يستأجرون خدماتهن نظير

مبالغ زهيدة. سمعتها تحكي مرّة أنّه عندما حطّت بها الطائرة لأول مرة في مطار دمشق الدولي استغربت كيف ينادي العاملون فيه من شرطة الحدود وأعوان الجمارك كل القادمات من الجزائر باسم «خيرة» أو «مليكة»، ويعاملوهنّ بشيء من الظلافة التي تناقض ما يُعرف عن أهل الشّام من لطف وكياسة. زال استغرابها في رحلة العودة حين رأت النساء اللواتي لا ترى وجوههن من رزم الأكياس البلاستيكية السوداء والحقائب التي تحمل ضعف طاقتها، يجرّون عربات الأمتعة، ويخترقن الصفوف، ويتشاجرن لأتفه الأسباب أمام جمهور المسافرين المشدوهين من الأجانب والسوريين. كان ذلك يشعرها بخجل شديد، خصوصًا وأن عامة الناس هناك يكنّون تبجيلًا عظيمًا للجزائر وثورتها التحريرية كما كانوا يقولون. وكلّما دخلت متجرًا في سوق الحميدية يستقبلها صاحبه بكأس من الشاي وقطع من الحلويات اللذيذة كما لو كانت ضيفًا عزيزًا. لحدّ الآن، حين تأتي على ذكر دمشق وأهلها تقول: «ناس مْلاح... ناس مْلاح.»

بالطبع لم تكن راضية عن زيجة ابنتها لهوّاري أزعر الحيّ. لكنّ صديقتها الهجّالة التلمسانية، بعد أن اختلت بهدية لبعض الوقت، أقنعتها بضرورة عقد هذا القران، بحجّة أنّ نصيبها قد حضر، وأنّ شائعات مغرضة تحاك حول ابنتها قد تقضي على فرصها في الزواج نهائيًا.

حين دخل العريس، راحت النسوة تدفع الأولاد والفتيات دون سن البلوغ للخروج إلى فناء الحوش أو إلى الشارع. انتهزتُ الفرصة للخروج معهم، رغم أنني بلغت منذ سنتين تقريبًا. ولم يشفع لي

طول قامتي واستداراتي الأنثوية في أن أحسب في خانة الكبار. فقد كان انطوائي يفسّر غالبًا بالسذاجة إن لم يكن بالبلاهة. هناك لمحتُ «هشام» داخل الخيمة العملاقة المنصوبة للرجال وسط الطريق، يحمل الصواني المملوءة بأطباق الكسكسي باللحم وأنواع السلطات بالخس والطماطم والفلفل المشوي الحار والحلو. سار في اتجاهي ما بين الطاولات المفروشة بالمأكولات التي يتحلّق حولها ما يفوق طاقة استيعابها من البشر، وتلك التي تحضّر لإشباع نهم جموع أخرى تنتظر دورها وقوفًا. وتحتها تصول جمهرة من القطط الهزيلة تلتقط سقط العظم والشحم. ارتطم بي فاختل توازني تمامًا وكدت أن أسقط لولا أنه احتواني بذراعيه. تقابلنا وجهًا لوجه، وفتح عينيه الخضراوين على وسعهما، ورمقني ببريق دخلت على إثره في فترة صمت طويلة.

فجأة، تعالت الزغاريد، وبرزت الحاجّة هجيرة مشهرة رداءً أبيض ملطخًا بالدم، افتكّته من يد هوّاري الذي خرج كالديك المنفوش بخطى وئيدة لالتقاط نظرات الجميع. كنت أعرف أن أخي لن يكون سعيدًا مع هديّة. وأن هذا العرس سينقلب أتراحًا لهما ولمن حولهما. وسيفشّ انتفاخ الديك ليتحول إلى دجاجة لا تبيض. لكنني لم أكن أدري كيف أفسر ذلك بالطبع. أمور كثيرة كنت واثقة من أنني أعرفها مسبقًا وأعيشها كما لو كانت إعادة. فأصمت. كنت في الخامسة من عمري عندما قلت لأمي بأن والدي سينجب أربعة ذكور اثنان منهم توأم. وحاولت هباءً أن أشرح لها عدًّا أخرق على أصابعي الصغيرة أن البداية ستكون بولدين. لكنّها نهرتني. وأظنّ أنّها منذ ذلك الوقت

أخذت تتطيّر من استشرافاتي، خاصّة بعد ولادة التوأم. ما دفعني إلى التزام الصّمت أكثر فأكثر».

***

عمّارية هي أقرب بنات عمّ هديّة إلى قلبها، مع أنّها في الواقع الصديقة الحميمة لهند أخت هديّة التي تجاريها سنًّا ولو أنّها تبدو أكبر من هند بعدة سنوات. امرأة سمراء البشرة، مربوعة القامة، سخيّة الصدر والوركين على خصر نحيل كأنّها خرجت لتوّها من كاريكاتور لجورج البهجوري أو من إحدى تمثيلات بوتّيرو. أجمل ما فيها عيناها الواسعتان العسليتان اللتان كانتا علامتها الفارقة، حتّى حين لبست النّقاب بإيعاز من خطيبها بوعزّة، كانت عيناها واستداراتها تجعلها عصيّة على التمويه. وعلى الرغم من أنّها لم ترث مثل هديّة تلك الهيئة الأرستقراطية الفطرية لعمّها وأبيها، إلّا أنّها كانت محبيّة بخفّة ظل وروح فكاهة تدخلها في القلوب من دون استئذان. تزوّجت منذ سنة تقريبًا، واستقرّت مع زوجها بوعزّة -المقاول أمام العامة وتاجر المخدرات أمام الخاصة- في مدينة تليلات. وعلى نقيض عمّارية، كان بوعزّة قصير القامة ونحيلًا بوجه وسيم التقاطيع على بشرة بيضاء تخالها لأبرص وشعر أجعد أقرب إلى الشقرة. كثير الحركة وسريع الكلام، ما إن يجلس في مكان حتى ينهض ويغيّره من دون سبب ظاهر فأسمته هديّة «الزربوط». سعى لهذا الزواج زوج هند صاحب مقهى الطورو الذي تربطه ببوعزّة صداقة طفولة وعلاقات عمل مشبوهة.

كانت حرارة الصباح تؤذن بيوم قائظ. تراها قبل أن تشمها على الوجوه الملتمعة بالمساحيق الرخيصة، والسواعد والزنود الرطبة،

والآباط المبللة التي رسمت أنصاف دوائر غامقة من العرق المتفشي على الملابس الذي تختلط رائحته برائحة الحموضة المنبعثة من «الخيامة» أو المطبخ المفروش بالصحون والقدور الكبيرة، المملوءة بما بقي من مرق البارحة. اجتمعت القريبات والصديقات والجارات حول أطباق المسمّن المعسّل، والسفنج، والسفّة بالزبيب والعسل، والمقروط والطورنو، والقريوش المشبّك بالسمسم إضافة إلى بقارج القهوة، وأباريق الحليب، وبرّادات الشاي الأخضر بالنّعناع. وقد ارتدت كل واحدة منهنّ أجمل ما عندها من البلايز والقفاطين، وتلحّفت الفقيرات منهنّ بالجلاّبات المطرّزة بخيوط الحرير الاصطناعي. لبست الحاجّة «هجيرة» بلوزة ورديّة اللّون ذات رسوم نباتية خضراء من القطيفة الناتئة على نسيج من الموسلين المذهّب. وقد برز صدرها السخيّ من فتحة بلوزتها الواسعة التقوير، والكثيفة الطّرز. وغاص الحزام الذّهبي الذي أرادت له عبثًا أن يحدّد خصرها الضائع بين ثدييها الأشبه بالضّروع وبطنها المنتفخة كالحبلى. اشترت القماش في الأصل لـ«شهرة» بناتها الخمس. لكنها لشدّة إعجابها به، قررت أن تخيطه لنفسها عند الهجاّلة التلمسانيّة، أشهر خيّاطات اكميل. كانت قد استقرّت في الحي منذ سنوات، ولا أحد يعرف بالضبط إن كانت قد جاءت من تلمسان أم من مكان آخر من وهران. لكن الإشاعة التي رافقت مجيئها لا يختلف فيها اثنان. وهي أنها ليست مطلّقة بل أرملة. وكلمة «هجّالة» تفي بالمعنيين. وأنها كانت ضالعة في ترمّلها لأنها قتلت زوجها بجرعات من سم زعاف، ركّبته بعناية فائقة بمساعدة خيرة الهواوية، إحدى شوّافات الحمري

المتخصصة في كل أشكال الانتقام النسوي، من ربط الأزواج، ووضع «الثّقاف»، وإلهاب العواطف، وضرب «الخفيف»، وطقوس أخرى لا يعرف سرّها إلّا هي. وقد سميّت كذلك لأنّها تعمل على هواها أي «بالنّفحة» على حدّ تعبيرها، ولا تستقبل سوى من تتوسم فيهنّ بذور الشرّ، وتتلظّى بلفحات حقدهنّ. كانت الهجّالة التلمسانية، من بين زبوناتها المقرّبات، تزورها للاستشارة حينًا، ولاستقصاء الأخبار في غالب الأحيان. ما أضاف إلى مهارتها في التفصيل، امتلاكها لأسرار كلّ نساء الحيّ وبناتهنّ. وهي التي أوعزت لأم هوّاري حسب ما يقال بخطبة هديّة. لأنّها كلّما طفح بها الكيل من كنّتها، ترفع يديها إلى السماء وتقول بحسرة:

- الله يعطيك ما يليك يا الهجّالة!

كانت الحاجّة هجيرة في قمة سعادتها وهيجانها. تمسح من حين لآخر حبيبات العرق العالقة على شعيرات شاربها بمنديل ورقي مكرفس، وتعرض على المدعوّات، كما لو كانت صاحبة الدار، أصناف الحلويات والأطعمة وهي تطلق بين الحين والآخر زغرودة تتبعها بعبارة:

- حمّرت لي وجهي يا بتي يحمّر وجهك ويزيّن سَعْدك.

لكن يبدو أن حظ هوّاري التعس هو المعني الأول بالأمر، على حد تعبير هديّة التي قالت لابنة عمّها عمّارية بلهجة وهرانية قحّة:

- ما جابت فيّ أُمّا غير الخلاء إلا ما حطّيتهش عند روحه. غير لا بوّلتَهْ الدّم. ذاك القوّاد. يلعب مع اتاجه[1]. أنا بعيدة عليه.

---

[1] من في عمره.

(هُوَّارية)

كنت متكوّرة، وقد أخذ مني الإنهاك كل مأخذ، فوق أحد المطارح وراء هديّة حين روت ليلة دخلتها بكل تفاصيلها لابنة عمّها عمّارية في صباحية الزفاف. كان باديًا من رعشة نبرتها الحنق الشديد والغيظ المكظوم. فهمت من كلام هديّة المتأجّج أن أخي نصب لها كمينًا بالتواطؤ مع أحد عشاقها العابرين، وراح يراقبها في كل حركاتها وسكناتها النهارية أو اللّيلية، والتقط لها صورًا فاضحة اتّخذها وسيلة لابتزازها، وإجبارها على الزواج به. ليكشف لها في ليلة الدّخلة عن مشروعه الخبيث.

هجيرة 2

(هُوَّارية)

بعد أقل من شهرين على زواج هدية من المتعوس أخي، حزمت أمتعتها ورجعت «غضبانة» ليت أهلها. نظرتي لها المشوبة بالحذر، ونظرتها اللامبالية تجاهي جعلتنا نلتقي في منطقة محايدة من انتفاء دعوى الاكتراث. لم أكن موجودة بالنسبة لها. وكان وجودها امتدادًا لوجود أخي المنغّص. عراكهما المتكرر عدّل كفّة ارتيابي، وولّد لديّ شعورًا بالشفقة إزاءها. أنوثتها الفيّاضة، وغنجها غير المتكلّف يثيران إعجابي ودهشتي. تراودني فكرة تقليد حركاتها أحيانًا حين أكون بمفردي، لكن سرعان ما أزيح تلك الفكرة الغبيّة بمجرد أن أنظر إلى نفسي وتحطّ عيناي على قدميّ الكبيرتين داخل «الشقلة» التي تقصني بمقاسين. أراها في فترة الغذاء، بعد عودتي من المدرسة لتناول وجبة سريعة من ضولمة الخورير، أو البطاطا المقلية، تتمطّى بتكاسل وقد نهضت لتوّها من النوم. تغسل وجهها بضربات خفيفة من راحتيها المضمّختين ماءً، وتبلل شعرها وتمشطه بأصابعها، ثمّ تجلس القرفصاء أمام المايدة الصغيرة التي وضعت عليها صحني، قبالة النافذة المكتظّة بأشعة الشمس المتزاحمة فوق خيوط ذرّات الغبار، ترشف قهوة بالحليب بطرف فمها، ووجهها لا يزال مبلّلًا، وتمسح شفتيها بلسانها بحركة دائرية بعد كلّ رشفة فتومضا بألف بريق. كانت تبدو غضّة وشهيّة كفاكهة بكر باغتها النّدى. تحدّق بعينيها اللوزيتين الواسعتين في الفراغ منفصلة عن المكان وعن العالم.

وتفتل بأناملها خصلات شعرها الجوزيّ المائل للحمرة، والمسترسل على كتفيها ليغطّي منبت ظهرها المقوّس. كل ما فيها ملائكيّ. في تقاطيعها المرسومة بما يحاكي الكمال، وفي حركاتها العفويّة نفحة من الأرستقراطية التي تنقلب لنقيضها بمجرّد أن تفتح فمها لتتكلّم.

في تلك المرّة، علا صراخهما، وتناثر دبق الكلمات البذيئة التي يغصّ بها حلق أخي وهي تنابزه بأفحش منها. ثم صدرت أصوات ارتطام ولكم ولدم. تبعها صمت قصير. خرجتْ من الغرفة والرّعاف قد خضّب وجهها، وانهمر من بين أصابع يدها التي غطّت بها أنفها وفمها. توجّهت صوب أمي واحتمت وراءها صارخة:

- اقّبضي عليّ ولدك الشماتة بغى يقتلني.

- يا حَوجي! ولدي بغى يقتل المرا ويباصي[1]، ونقعد أنا نخدم على القفّة.

ثم أخذتها بين ذراعيها وراحت تربّت على كتفها:

- هدّني روحك سعدي بنتي. ديري ربّي والنّبي في قلبك.

تملّصت من حماتها بحركة عنيفة، وتراجعت خطوة إلى الوراء:

- ما سمعتيش اشنا قال لي ولدك القوّاد؟ يخدم بيّا؟ إيوه غاية. اللي ماشي قادر على شْقاه ما يجيش مرا. راني غادية لدارنا، نغدا عند أمّا. نولّي لعز دارنا. التّهْجَال ولا هاد العطّاي.

تبعها هوّاري ملوّحًا بعصا غليظة، وقد انغرزت عيناه في وجهه غضبًا، فبدتا كشقّين يقدحان شررًا:

---

[1] يتورّط.

- تديري كيما نقول لك وتبلّعي فمك المشرّك. العطاية باطل تجي عليك وبالدراهم ما بغيتيهاش.

ليضيف بتهكّم ركّز كل سخريته على صفة أمّها:

- غادية عند أمك «الحاجّة». بالاك تجريها في الجامع!

ثمّ أردف شاهرًا سبابته بحركة تهديديّة لطالما كانت تروّعني في الماضي:

- بالصّح نقول لك، واسمعيني مليح، يا لو كان تدخلي في زكّ الفأر نجيك.

وخرج صافقًا الباب خلفه.

كنت في تلك الفترة قد دخلت في إحدى نوبات صمتي الطويلة على إثر إصابتي بسهام عيني هشام وغرقي في خضرتهما. ولم يكن بمقدوري من علوّ سنواتي الأربعة عشر أن أستوعب جملة حيثّيات الموضوع. شعرت بأن أمي تكاد تنهار. انخطف لونها وجحظت عيناها واستندت إلى الجدار تقاسمه حمل ما سمعته لتّوها. كانت تعرف في قرارة نفسها أنّها أخفقت في تربية ابنها، لكن أن تصل به النذالة إلى أن يتاجر بعرضه، فهو أمر لم تكن لتصوّره على الإطلاق. فشلتْ في محاولة إقناع كنّتها بالبقاء لعجزها عن إيجاد حجّة بحجم فظاعة ما تفوّه به ابنها، رغم كل العبارات المأثورة التي سلسلتها كالمسبحة: «يا بنتي القلب الأبيض ياكل القلب الأكحل»، «الوافي ما يجافي»، «الخارجة من فريقها ناشف ريقها». «إذا كان صاحبك أعور شوفو على العين الصحيحة». وهي تمشي وراءها مبهوتة، بينما تابع هديّة لمّ حوائجها بعصبية وخفة من اعتاد على هذه المواقف

أو خطّط لها مسبقًا. لبست جلاّبتها كمّن يدخل في كيس، وعقصت شعرها الثائر ببرمة عقدته خلف رأسها بحركة لا تزال تدهشني لحد الآن. ثمّ توجهّتْ صوب الباب، واستدارتْ نحو أمي التي عُقد لسانها من الدهشة قائلة بهدوء واثق:

- وإذا كان ولدك رجل يتّبعني.

لم تفهم أمي حينها إن كان ذلك طلبًا أم توعّدًا. لكنّها وقفت مشدوهة لا تدري ما تفعل، إلى أن تفطّنت فجأة لوجودي ونظرت نحوي بحنق:

- آلو... مازالك في الدنيا... حيّة ولاّ ميّتة؟ إيوه نوضي تحرّكي اجري ورا مراة خوك جيبيها.

خرجتُ إثرها. مشيتُ وراءها بصمت. متقفّية خطواتها السريعة عبر أزقة وشوارع اكميل باتجاه حيّ مْدينة جْديدة إلى أن وصلتْ أمام باب بيت أمّها الواقع في شارع يتفرّع عن السّاحة الكبيرة، ضمن رف من البيوت مما يسمونه (Maisons de Maître). فانتبهتْ إليّ، ورمقتني بنظرة فيها مزيج من التساؤل والرضى. ثمّ شدّتني من يدي كما لو كانت تنفّذ فكرة لمعت لتوّها في ذهنها، وقالت بلهجة آمرة لم تمنحني فرصة للاعتراض:

- أيا لهنا، أدخلي معايا.

تخيّلت عندها أنّها تريد أن تدخلني إلى بيتها لتوسعني هي وأخواتها ضربًا انتقامًا من أخي، أو أنّها تود الاحتفاظ بي رهينة إلى أن تستعيد كل جهازها المكدّس على أكوام تكاد تصل إلى سقف الحجرة التي أثّثها أمي، بغرفة نوم ذات سرير من ألياف الخشب

المضغوط المطلية بغراء بنّي لمّاع، تزيّنها أطناف بلاستيكية مدهونة بلون ذهبي مؤكسد. وخزانة بثلاثة أبواب أوسطها مرآة، تقف على رجلين رفيعتين تشبهان ساقي أخي. فكّرتُ بأن رهني ليس فكرة سديدة، لأن أحدًا لن يضيره احتجازي. في حين أنّ الاحتمال الأول قد يولّد ردود فعل انتقامية شرسة يقوم بها هوّاري بالتواطؤ مع زعران كوشة الجير وراس العين والحمري. ليس من باب الدفاع عني أو الذّود عن كرامته، بل من قبيل الترويع والتحدّي. وهو أمر، إن لم تتفطّن له هديّة في غمرة غضبها، ستتوقّعه الحاجّة أمّها بالتأكيد. فشعرت ببعض الارتياح، مع أنّي لم أكن قلقة إزاء نوايا هدية.

أعفيكم من تعليقات الحاجّة هجيرة حين رأت ابنتها وبقايا آثار الدم والكدمات على وجهها. تركتاني في الردهة التي تنتهي بممر تتوزع على جانبيه أربع غرف مشرّعة أبوابها، اثنتان منها ذات نوافذ تطلّ على الشارع، وتفتح الباقيتان على فناء مبلّط مغمور بشمس بعد الظهيرة الوهّاجة. اصطفّت حواليه أعداد كبيرة من أصص نباتات مزهرة وأخرى خَضورة، وقد حددت الزوايا بنباتات معرّشة: إحداها ياسمين والثانية مجنونة، والليلكيتان تسلقتا جانبي الجدار المقابل للباب. وعلى الجانب الأيمن مطبخ معتم لا يتلقى النور إلّا من بابه المفتوح دومًا. يقابله «بيت الراحة» التركي الذي يستعمل حمّامًا أيضًا بعد سدّ فتحة المرحاض بلوح خشبي.

أطرقت هجيرة برهة، ثم التفتت صوب ابنتها الصغرى وقالت وهي تمسح وجه هدية بطرف ثوبها:

- روحي اندهي لخالتك هبيرة.

هبيرة

كانت الحاجة هجيرة التي تطلّ غرفتها على الفناء مولعة بالنباتات إلى حدّ الهوس. تجلبها من كلّ مكان. حتى أنّ رفيقاتها في رحلات التجارة الدمشقية كنّ يتذمّرن حين تطلب منهنّ، إضافة إلى ما تحمله من الفلّ المكبّس، والياسمين، والورد الجوري، والورد البلدي الذي أدهشها أن يُصنع منه المربىّ، تطلب مساعدتها في حمل شتلات «الأعشاب» على حدّ تعبيرهنّ، خاصّة هبيرة التي لم يكن لسانها يعرف المجاملة:

- فضّحتي، تقطعي سبع بحور باه تجيبي «الحشيش». راكي تخدمي على الغنم ولاّ على بني آدم؟

- هادوا خير من بني آدم. أمّا ختي كي نصبّح عليهم الدّنيا وما فيها.

- أنا اختيّك، عندكي[1]، راه في رقبتك خمس وليّات.

- إيوه، اللي خْلَقْ ما يضيّع.

ثم تستدرك الحاجة هجيرة وتحدجها بنظرة من حضرته حجّة دامغة في الحال:

- بالصح تصنتي لي: النوّار ولا القرعة والدّخان.

لتردّ عليها هبيرة بنغمة الراي وبلهجة فيها الكثير من التحدي واستثارة الغيظ:

---

[1] احذري.

- إيه، معليهش... نبغي القرعة والدّخان... ونبغي الروج اللي يطاشي[1].

كانت الحاجة هجيرة تكنّ لهيرة مودّة خاصة. وتعرف أنّها تتعاطى المشروبات الروحية وتدخّن خفية. ولم يكن ذلك في الحقيقة سرّا لأحد. لكنّ الكلّ يغضّ الطّرف لما لها من أيادٍ بيضاء على المحتاجين من أقاربها وجيرانها في حيّ مْدينة جْديدة. ويقال إنّها لا تفطر في رمضان قبل أن تتأكّد من أن «الحريرة» و«الجواز» على مائدة كل فقير ممن تعرفهم. ويذهب البعض إلى حدّ القول أنّها لا تصوم الشهر الكريم من رائحة السجائر التي تنبعث من فمها الذي لا يعرف الرياء. وتردّ على من يعاتبها في ذلك:

- ميمونة تعرف ربّي، وربّي يعرف ميمونة.

كان المرحوم عبد القادر أو «سي الهمّة» زوج الحاجّة هجيرة يتردد على «القعدات» التي تنظّمها هيرة بين الحين والآخر، وتدور فيها كؤوس الراح وتصدح أنغام الراي. وتتناقل الألسن النمّامة بأنه كان على علاقة حميمة معها لدرجة أنّه قرر الزواج بها قبل أن تخطفه يد المنون. وهو خبر ألهب غيرة هجيرة، وجعلها تفرح لموته وترى فيه انتقامًا إلهيًا لا تنكر في سريرتها إسهامها فيه، حين تركته يصارع نوازع الموت ليلة كاملة دون أن تحرّك ساكنًا.

تعرّفتْ عليها لأوّل مرّة عندما جاءت لتعزّيها بوفاته، وتعجّبت لوقاحتها. تقتل الميّت وتحضر جنازته. امرأة سمراء تقاوم الخمسين، بوجه مستدير، وتقاطيع رقيقة، إلّا من شفتين غليظتين تبللهما دومًا

[1] النبيذ الذي يخلّف البقع.

برأس لسانها بحركة عصبية. الحركة نفسها التي تقوم بها هديّة. بدت نحيلة ببلوزة «الوقرّ» التي كانت ترتديها بعد أن خلعت جلاّبتها ونزعت شالها الذي كشف عن شعر أجعد أصفر اللون قصير، سبّطته مكواة حامية، فبدت منابته البنية الغامقة المشوبة بالشّيب لتزيد من تحديد استدارة وجهها. ثمّ دخلت إلى المطبخ، كما لو كانت من أهل البيت، وانهمكت في مساعدة النسوة في تحضير عشاء المأتم للرجال الجالسين في الخيمة المنصوبة في الشارع قبالة البيت. استغربت هجيرة كيف كفّت عن رؤية تلك المرأة كغريمة بعد زوال من كان موضوع المحكّ. دسّت في يدها قبل أن تغادر صرّة صغيرة، وجدت فيها هجيرة مبلغًا معتبرًا من المال.

لم ينقطع خير هبيرة إلا عندما بدأت ترافقها إلى الشام للتجارة. لكنّ العلاقات بينهما أخذت تتوتّر منذ أن عادت ابنتها هدية من عندها ذات مرّة، وكانت آنذاك في السابعة عشرة من عمرها، شبه ثملة، ورائحة «لانيزيت» تنبعث منها.

***

(هُوَّارية)

فهمتُ من ردّة فعل الحاجّة هجيرة أنّ ابنتها لم تجرؤ على التصريح بالسبب الحقيقي «لغضبتها». لأنّها لم تطردني. واكتفت باتخاذي واجهة لصب جام حنقها على صهرها «التالف الراي» كما تقول، أمام صمتي الذي شجّعها على تذكّر كل ما كانت تخفيه في صدرها بخصوص تلك الزيجة المشؤومة. ونعي تبدد طموحاتها بعريس يليق بشابّة «بومبة» مثل ابنتها. نمت عندهن تلك الليلة

والليالي التي تلت. حين علمت أمي بمكوثي عند أنساب ابنها كفّت عن السؤال عني. ولم يضرها أن أتغيّب عن المدرسة. ربّما اعتبرت قبولهم بي بشير مصالحة محتملة. صرت أنهض صباحًا معهنّ، أتناول الإفطار مع هديّة وأخواتها العزباوات الثلاث، وأقوم بما يُطلب مني من أعمال منزلية وسخرات خارجية بصمت. بينما تكون الحاجّة هجيرة قد خرجت مع ابنتها الصغرى لزيارة العائلات التي تستعد لتزويج إحدى بناتها لكي تبيعها البضاعة التي أحضرتها من آخر رحلاتها الشامية.

كانت تتقصّى تلك المعلومات لدى خيّاطتها الهجّالة التلمسانية، التي تزوّدها بقائمة مرتّبة حسب تاريخ الزفاف ويسر أهل العروس. فلا تعود خائبة إلّا ما ندر. عاد هذا التحالف التجاري بالفائدة على الطرفين، لأن ما تبيعه الحاجّة هجيرة من أقمشة يصبّ عند الخياطة في آخر المطاف.

اعتاد الجميع على صمتي. وأصبح وجودي بينهنّ مفروغًا منه كعدمه. لا يكدن يعرنه التفاتًا. وكأني ألبس طاقية الإخفاء. يتذكرنني عندما تستكسل إحداهنّ عمل شيء ما فتأمرني به دون أن تنتظر ردًا. وأصبح اسمي «هاذيك». يتوجهن إليّ في حضوري بصيغة الغائب دومًا. كما تخاطب الأشباح. دون حتى النّظر إلي.

هديّة كانت الوحيدة التي تنظر إليّ بعينيها اللوزيتين بشيء من القبول أستدلّ به على وجودي. تصحبني حيثما ذهبت واثقة من دفن أسرارها في بئر سحيق. كنت أحيانًا أرافقها إلى السوق البلدي اكميل، لتتوارى خلفه بعض الوقت، وتعود وقد انفرجت أساريرها، وعلا

خدّاها حمرة خفيفة، ولمع في عينيها وميض برّاق. لم تكن تتكلّم في البداية، لكن بعد أن تأكّدتْ من استفحال انغلاقي، صارت تطلق بعض التعليقات على نحو:

- خلا دار شرّه كي داير[1].

وأحيانًا تترك نفسها على سجيّتها وترشقني بعبارات مثل:

- أمّا خيتي، ذاك «الماتيريل» الزين اللي عنده...

كانت رفقتي لهديّة تطمئن الحاجّة فلا تكثر السؤال. ولم تكن تعرف شيئًا بالطبع عن الزيارات المنتظمة التي تقوم بها ابنتها لصديقتها هيرة التي تحسّنت علاقتها بها بعد زواج هديّة من أخي. كما لم تكن تعرف شيئًا عن كؤوس «لانيزيت» التي تتجرّعها في بيتها الواقع على مشارف مُدينة جْديدة خلف المستشفى أو «السبيطار» غير بعيد عن حي الحمري. وترسلني قبل أن تغادر لأشتري لها نصف خبزة «مطلوعة» محشوّة بالكارنتيكا الساخنة والغارقة في الهريسة الحارّة، إضافة إلى ربطة من النعناع الأخضر، تمضغ أوراقه طوال طريق العودة لتزيل رائحة الشراب الفوّاحة. وهي تدندن آخر أغاني «الشابّة نجمة» أو «هوّاري الدوفان» أو «رضا الطلياني» أو معبودها «الشاب حسني» الذي لا تزال تبكيه. أحيانًا كانت تقرر المبيت عند هيرة، خاصة حين يكون من بين زوّارها فحل يهيّج حواسها، فتختلي به. أسدّ أذنيّ بأصابعي حتّى لا أسمع تأوّهاتها. وهكذا طوال الليل.

ذات مرّة، اختلت باثنين، لكنّها تركت الباب مفتوحًا، وأومأت لي بشدّ جفنها السفلي بإصبعها للأسفل إشارة للحيطة كيما أحرسها.

---

[1] يا له من فحل.

لكن المفاجأة أنّ الأمور أخذت تتأزّم حين اختارت من سيبقى معها في الفراش لتمضية بقية الليلة. فما إن رآني المقصيّ قرب الباب حتّى انقضّ عليّ، وطرحني أرضًا. ثمّ رفع ملابسي وأمسك بفرجي بكامل قبضته. ولم أكن لأنجو لولا تدخّل هبيرة بخبرتها، ومحاولتها ترضيته بأن أدخلته غرفتها لينام معها.

لم أكن أتصوّر بأنّي سأشعر يومًا بخوف يجاري ذلك الخوف الذي تملّكني تلك الليلة. انتابتني رعشة استشرت في كل أجزاء بدني كالشرارة، وأخذت في البكاء. لم يكن بكاء بل شهقات هستيرية تخرج من حنجرتي كالنهيق. وجدت نفسي بمفردي في غرفة الاستقبال الصغيرة المظلمة التي يفتح عليها الباب الخارجي مباشرة، بالإضافة إلى ثلاثة أبواب اثنان منها يؤدّيان لغرفتين ترقد في إحداهما هديّة مع عشيقها العابر، وفي الثانية هبيرة مع الزبون الهائج. والثالث يوصل إلى فناء داخلي ينتهي بمطبخ ودورة مياه. تعجّبت كيف لم يحرّك ما حدث لي شعرة من المرأتين. ودخلت كل واحدة منهما لتكمل ليلتها وكأنّ شيئًا لم يكن. وأنا، مجرد إحساسي بأن الرجل لا يزال في البيت سمّرني في مكاني، وجعلني عاجزة عن التحرك أو الجلوس على أحد المتكئين المتعامدين من جهة باب غرفة هبيرة. خفت أن تصدر مني حركة تُسقط الكؤوس وزجاجات النبيذ ولانيزيت الفارغة على الأرض، فتحدث جلبة تخرج ذاك السفاح من سباته. بقيت واقفة في وسط الغرفة إلى أن بزغت تباشير الفجر الأولى. وجسمي يهتزّ تلقائيًا إلى الأمام وإلى الخلف كأحبار اليهود على حائط المبكى. وما إن تبيّنت باب الفناء بعد انقشاع العتمة

حتى فتحته والتجأت إلى المطبخ لأختبئ في الرفّ السفلي لخزانة المؤونة فوق شكارة السميد.

في الضّحوة، بعد أن رحل الضيفان، بدأتا في البحث عنّي في كل مكان إلى أن وجدتني ربّة البيت. وقالت لهدية برصانة وهي ترشف قهوتها بصفير مسموع:

- ما تزيديش تعاودي. بغيتي تباصيني مع هاد الرجالة ومع أمّك؟

وأضافت موجّهة نظراتها إليّ:

- قولي لها تشدّ فمّها.

فأطلقت هديّة ضحكة رنّانة وقالت:

- هاذيك؟ هاذيك عقّونة[1]... وإذا الحجر ينطق هاذيك تنطق.

في طريق العودة، أفْلَتُّ من يد هديّة، وانطلقتُ كالسهم صوب حوشنا.

---

[1] خرساء.

ها!

(هُوَّارية)

أمي تناديني «ها» كما تخاطب البهائم. «ها وين راكي؟»، «ها وين كتي؟»، «ها أرواحي ترفدي معايا المطرح». و«ها» في لهجة منطقة الغرب الجزائري اسم نداء للحثّ بمعنى هيّا أو تعال. واسمي في هواتف الزبائن «هاء» أيضًا أو «H» بالفرنسية، إمعانًا في سرّية العلاقة، وخشية افتضاح أمر التردّد على عرّافة. طبعًا لا توجد أيّة فكرة ذكية وراء هذا الاختصار، مهارتي أو ذيوع صيتي مثلًا، مما زاد من عدد زوّاري، وبالتالي من دخلي. فصرت أطعم قطّي «هشّوم» من المعلّبات المستوردة بدل سقط اللحم والدجاج الذي كان يتركه لي جزّار السوق البلدي. لكن يروقني أن أرى بعضًا من سخرية القدر في أنّ عكس «هاء» هو «آه». ليس لأني أحبّ أن أتحسّر على حظي التعس. أترك ذلك لزبائني أو لمرضاي.

أحتار أحيانًا كيف أسمّيهم. زبائن أم مرضى أم زوّار. قد تكون زوّار هي الأفضل لأن المرء يزور الأضرحة والأولياء. وفي الزيارة حسنة. وبما أنّني لا أطلب بالمقابل مالًا بل فألًا، فالأمر متروك لسخاء الزائرة أو الزائر وتقديره، وغالبًا لمدى انبهاره بموهبتي في سبر الغيب. منهم من يترك قطعًا نقدية، ومنهم من يدسّ في جيبي حزمة من النقود من دون أن يعدّها. لهذا صرت أرتدي دومًا تفريعات أو جبّات ذات جيوب ظاهرة، للإيعاز، أو لتبديد الحرج المتبادل أحيانًا. قد تظنّون بأن أغلب زواري من النساء كما هو شائع. صدّقوني

لا. يوجد من يأخذ موعدًا مسبقًا ويؤكد على إخلاء المكان. الكثير من الرجال يقبعون في سيّاراتهم الفخمة أو حتّى في بيوتهم ويوكلون نساء لقراءة طالعهم. وأحيانًا يستبدّ بي الفضول فأتلصص عليهم من نافذتي المطلة على الشارع مباشرة، لأرى تلهّفهم إلى سماع ما ينتظرون، ولأقرأ تعابير الدهشة والتعجب لقدرتي على الولوج في حميميّتهم وتعرية أسرارهم. يملؤني ذلك انتشاءً، ويُفرح «احْوالي».

«احوالي» الذين غافلوا غيوبتي إثر الحادث المشؤوم وسكنوني. ملأوا كياني. أفرغوا رأسي. تكلّموا من فمي. احتلّوا فضاء أحلامي. منعوني من التفكير في «هشام» أو حتّى في جنس ذكر أيًا كان. خطوّا كتابات على راحتي لم أكن أعرف تهجئتها. طلبوا منّي أن أقيم الصلاة وألا أنقطع عنها. وأن أصوم الشهر الكريم والصابرين والعواشر وكل يوم خميس واثنين من الأسبوع. وألا أخلف تضحية العيد. وأنحر في وعدة سيدي يوسف. والآن هناك من يظنّ بأني أتظاهر بالورع لدواعي المهنة. لا شيء من هذا القبيل. كانوا يعذّبونني حين أتوقّف عن عمل أيّ من تلك الأمور. قاومت لفترة طويلة. لكنّهم عند كل محاولة ينهالون عليّ ضربًا. ضربًا مبرّحًا أحيانًا يزرقّ له بدني. ويترك آثار كدمات تحيّر من يراني ممن هم حولي. ولم يمسسني بشر. طبعًا لا تصدّقونني. لكن، هكذا كان الحال. ولا أملك قصّة أخرى لأفسّر ما حلّ بي.

في البداية، لم تكن مقاومة في الواقع. فلم أكن أعرف كيف أصلّي، ولم أكن أصوم. لم يعلّمني أحد. ولم يكن أحد يؤدي الشعائر في البيت. ولا في كامل الحوش. ما عدا المسنّات اللواتي يمارسنها

بحكم العادة على طريقتهنّ. أمي لم تكن تصلّي أيضًا لكنّها كانت تصوم في شهر رمضان. وتبتهج لقدومه لأنّها ترتاح من الطهي طول النهار. فتقوم قبل الإفطار بساعة تقريبًا لتحضير «الحريرة»، التي نكتفي بها مع الكسرة التي كانت تتفنن في صنعها بمناسبة الشهر الكريم بالسميد الرفيع وزيت الزيتون الصافي وتضيف إلى عجينتها الحلحال والنعنع والزعتر وأعشاب أخرى ورثت سرّها عن أمّها التي تتحدّر من مدينة سطيف واقترن بها والدها عندما كان يعمل حارس غابات في المنطقة. كان ذلك حين لا ترسل إحدى الجارات صحنًا من «الدجاج بالزيتون»، أو «كبدة دجاج مشرملة»، أو «فلفلة مشوية». وذلك في الأيّام الأولى من الشهر. و«هوّاري» يأكل ما حضر بسرعة ويصفق الباب خلفه ليلتقي أصحابه في قهوة الطورو التي يديرها زوج هند أخت هديّة. بعد الإفطار تخرج أمي لتسهر عند إحداهنّ. فأمكث وحدي في غرفة الحوش. تبدو لي كبيرة. مظلمة وبائسة. أحيانًا كنت أبكي. وأتساءل لماذا كانت تعاملني كما لو كنت عبئًا عليها، والسبب في كل أوجاعها؟ يداهمني إحساس مريع بالذنب. وأفكّر بالموت. أفكّر في هشام، الشاب الوسيم الذي لا يزال يتبعني في طريق عودتي من المدرسة. أفتح راحة يدي اليُمنى، أرى صورته مرسومة فوقها، تنفرج أساريري، ويغمرني فرح غامض، وأستسلم للنوم. وأحيانًا كنت أرى الدم ينفر من عنقه فأهيج كالمجنونة أضرب رأسي في الحائط إلى أن أخرّ مصروعة.

أعتقد أنّ أمّي كانت تكره البنات أصلًا. وتكره العوانس على الخصوص. تعتبر العنوسة وصمة عار كالقوادة. لا بدّ أنّها كانت

ترى فيّ عانسًا قيد التكوين. فقد سمعتها مرّة تقول لجارتها بأنّها على استعداد لرمي بين أحضان أول طالب للقرب. لكنّه احتمال تستبعده كلمّا اصطدمت عيناها بي، وأدركت حجم بلاهتي الظاهرة وسعة خيبتها العميقة. ولم تكن تتحرّج من إبداء أسفها علنًا حين تسمع بولادة أنثى بين أقربائها أو جيرانها. فتزمّ شفتيها وتهزّ رأسها بحركة دائرية تعبيرًا عن الأسى وتقول على طريقتها في استحضار الأمثال الشعبية أو نظمها عند الحاجة:

- هاذيك المسكينة، طاحت عليها بليّة. ماكلتها خسارة، ولباسها دبارة، وفضايحها ما عندها جبارة. يا خي مصيبة يا خي...

منها كان أخي ينعتني بـ«المصيبة» دائما حين يخاطبني، أو بالأحرى حين يأمرني أو يشتمني.

اضطررت آنذاك أن أذهب للشيخ هبري، إمام الجامع في حيّنا، ألتمس لديه العون فيما أنا فيه. هزّ برأسه وأنا أحدّثه عمّا جرى لي كما لو كان ينصت بتأدّب لمهذار سفيه. لكن حين رأى آثار الكدمات المزرقّة على زندي وفخذي، انتفض في جلسته، وراح يصيح:

- لا حول ولا قوّة إلا بالله. اشكون ضربك بالسوط؟ خوك؟ أمّك؟ اشكون؟

فأجيبه بصوت خافت، وأنا غير واثقة من أنّه سيصدّق كلامي:

- الاحوال.

- اشكون؟

- الاحوال اللي ساكنين فيّا...

- روحي يا بنتي ما كاين لا احوال ولا اخوال. قولي لي اشكون سوّطك وما تخافيش.

راودتني للحظة فكرة أن أتهم أخي، وأسجل ضدّه محضرًا في محافظة الشرطة لأنتقم منه وأرتاح من رؤيته لفترة. لكنّني شعرت في الحال بانقباض في حنجرتي كما لو كانت يد عظيمة تطبق على خناقي. فأزحت الفكرة من أصلها. وبادرته بما قصدته لأجله:

- سيدي الشيخ، علّمني نصلّي.

نظر إليّ مليًا كما لو فاجأه طلبي، وأراد أن يتحقق من صدق نيّتي، وسألني باستغراب:

- ما تعرفيش تصلّي؟

خجلت من الإجابة بالنفي، وبحثت بسرعة عن عذر يبرر جهلي:

- لا، علّمني نصلي كيما أنت.

- أنا نصلّي كيما يصلّي الناس، بالصّح معليش، وقت اللي تعوّلي، نرسلك عند بنتي تعلّمك.

خرجت من عنده وأنا أسمعه لا يزال يردد:

- لا حول ولا قوة إلّا بالله، ياخي أمّة ياخي. الله يهدي ما خلق.

تكررتْ زياراتي لبيت الشيخ هبري. كانت تستقبلني ابنته التي غافلها سنّ اليأس وغافلت والدها حين اختفت لعدّة شهور كما كان يختفي الشباب والشابات في تلك الحقبة. ويبدو أنّها تعيش عودتها وعنوستها كحالة مرضية. حين سألتها عن اسمها لم تجب. حتى الجيران لا يعرفون اسمها وينادونها «بنت الهبري». أما أنا فقد أطلقت

عليها لقب «هبرية»، مع يقيني بأنّه لا يناسبها لأنّ الهبر هو اللحم المشفى من الشحم والعظم، وهي جلد على عظم. كانت ترتدي حجابًا طويلًا يصل إلى تحت خاصرتيها واعتقد أنّها لا تنزعه مطلقًا، لأني لم أرها ولا مرّة واحدة من دونه. وقد زاد طوله من استطالة وجهها النحيل، وأبرز عظمتي خدّيها لتغور بينهما عيناها الصغيرتان السوداوان اللتان ترسمان دوائر متداخلة على نظّارتها الطبية السميكة. تمسك بطرف إحدى عدستيها بين إبهامها وسبابتها كلّما أرادت أن تشرح لي شيئًا تتصور أن إدراكي المحدود لأمور الدّين لن يستوعبه. مثلًا لماذا لا تصلّي النساء وقت الحيض؟ ولماذا يكون الجماع مكروهًا في ذلك الوقت؟ وكيف ينغلق رحم النفساء في اليوم الأربعين بعد الولادة، وتنكمش فتحة مهبلها ليستمتع زوجها كسابق عهده. وأن المرأة خلقت لمتعة الرجل وطاعته وخدمته. وتسرد عليّ أحاديث نبوية لدعم حججها بلغة فصحى أفهم منها شذرات يتيحها السّياق. وما لي وهذه الأمور؟ فقد جئتها لأتعلم الصلاة فقط. ثم أخذت تحدّثني عن عذاب القبر وأهوال جهنّم. لم أكن بحاجة للمزيد من الترويع فقد كنت أعيشه ندبات على جسدي البض، ووصمات على روحي التائهة. حاولت أن أشرح لها أن كل ما أريده هو تعلّم أصول الصلاة لا غير كي يكفّوا عن تعذيبي. لكّنها على ما يبدو كانت تعتبرني صك غفرانها. وتعتبر مهمّة هدايتي مفتاح الفردوس الذي ينتظرها لتكون ربّما إحدى الحوريات اللواتي وُعدَ بهنّ المؤمنون في جنّة الخلد.

كانت حين تصف لي الجنة، تنزع نظّارتها. تنفرج العقدة بين حاجبيها. تسترخي وتباعد بين ساقيها، وينزلق بدنها على المتكأ

ملقية رأسها فوق المسند. وتسهب في تصوير أنهار العسل والحليب والخمر وكل الملذّات بما فيها النكاح. كلام يجعلني أتساءل: كيف يتوق المرء لشيء لم يذقه ولملذة لم يعرفها؟ خفت أن أسألها لماذا أحلّ الله كل شيء في الآخرة وحرّم أشياء في الدنيا؟ فكّرت أنّي لو سألتها لانتصبت واقفة وأشهرت إبهامًا مهددًا ورمتني بأقبح النعوت، كما فعلت حين طرحت عليها سؤالًا لطالما حيّرني: لماذا يتقاتل الناس باسم الله وهو الرحمن الرحيم؟ سؤال بريء قابلته بنوبة غضب حسبتها ستزهق روحي لولا تأكّدها من غبائي وحسن نيّتي. ثمّ إنّي لم أكن أريد أن أبدّد نشوتها. لكن ماذا لو صدق ما تحلم به، وأصبحت فعلًا حورية؟ من سيقبل بمضاجعتها؟ حتى المكفوفين يُقال بأنّهم يسترجعون بصرهم في الجنّة. إلّا إذا كانت هناك عيادات لجراحة التجميل، فهي بحاجة لجرّاح ماهر. أضحك في سريرتي رغمًا عنّي. أعترف بأني أشعر بوخز قاتل للضمير حين تتسلل إلى ذهني مثل تلك الأفكار. أحاول طردها بكلّ ما أوتيت من قوة. فتنتابني رعشة ترهب من حولي. وتجعلهم يظنّون بأنّني أعاني من نوبات الصرع، فيسارعون إلى وضع مفتاح حديديّ في يدي.

ذات مرّة، أثناء أحد تلك الدروس، حين راودتها حالة النشوة تلك، مدّت يمناها نحوي دون أن تنظر إليّ. أمسكت بيدها وتوغّلت في راحتها. هالني ما رأيت: تلك العاهرة، قد ذاقت وعرفت كل شيء.

هذه هي مواهبي. صحيح أنّها ليست مؤكّدة دومًا مثل توقعاتي التي يثبتها الزمن ولو على المدى الطويل. يمكن بالطبع الادعاء بعدم الإيمان بالعِرافة والغيبيات، لكن من لم يرد في قرارة نفسه أن يعرف ما

تخبّئ له الأيام؟ سأفشي لكم بسرّ: معظم زملاء المهنة كذّابون. حتّى أنا أكذب أحيانًا. هو ليس كذبًا بالمعنى الصحيح. أسميّه أنا تخفيفًا لوطأة الحقائق. إذ لا أستطيع أن أقول لمريض على شفا الموت وقصدني طلبًا للشفاء بأنه سيقابل وجه ربّه بأسرع ممّا يظن. الكذب في هذه الحالة بلسم للسائل. ثمّ إنّ الأعمار بيد الله. ولا أستطيع أن أنبئ عانسًا بأنها لن تعرف دفء قدمين تتحسسان ساقيها في فراش بارد. ولا لأم غادرها ابنها بحثًا عن لقمة عيش كريمة في الخارج بأنّه يعاني الأمرّين، لكنّه لن يعود. ولا يعقل أن أقول لرجل من وجهاء السياسة البارزين بأن زوجته المصون تخونه مع سائقه. وهل لي أن أقول لذاك الذي يتباهى بذرّيته بأن نصفهم ليسوا من صلبه؟ أو لتلك الأم القلقة على تغيّر حال ابنتها بأن زوجها وابنها يتناوبان على اغتصابها؟ هل يُعدّ هذا كذبًا؟ الحقائق مرّة. والناس تقتات بالأوهام. وأنا أصغي لوميض النجوم وأتكسّب.

على الرغم من الشهرة التي بدأت أتمتّع بها في الحيّ والجوار، كنت أشعر بأن زوّاري ومن حولي يرونني طيفًا يعتمر نبوءة، ولا يشعر أيّ منهم سوى بكفّه الحامي في يدي اليمنى، الموصول بشاشة راحتي اليسرى التي تعكس لي صوتًا وصورةً وإحساسًا سيَرهم المعلنة والخفيّة. كان يخيّل إليّ بأن أحدًا لا يعرفني حقّ المعرفة ككائن بأبعاد ثلاثة. حتّى أمّي صارت تنظر إليّ كما لو كان بيننا حاجز غير مرئيّ أتلاشى خلفه بمجرّد أن تشيح ببصرها عنه. الوحيدات اللواتي قابلنني بالقبول وبشيء من سبر الأطراف هما هدية زوجة أخي وهبة التي سترتبطني بها الأقدار وهناء جارتي في الحوش. هديّة بفطرتها

وسجيتها، وهبة بالمعرفة التي تفك شفرة المستور، وهناء بعطفها الأثيري المخلص.

حين حاولت القراءة في كفّ هديّة، نهرتني وصاحت بغضب:

- اشتا غادية تصيبي؟ الزْهَر المْقوّد مع خوك؟ شوفي بعينيك خير لك.

نشأت في اكميل أو كمين كما نسمّيه. حيّ وإن كان شعبيًا، غير أنّي حين أفتح راحتي أراه عالمًا خرافيًا، نورانيًا يكمن خارجي، لكن لا وجود له من دوني. أدور في شوارعه وأزقّته، أتوقّف في دكاكينه، أشمّ رائحة القهوة المحمّصة عند قهوة نزيار، وأملأ حواسي بألوان ونكهات البهار والأعشاب لدى العطّار والبقّال. أمرّ أمام مدرسة المحامي عابد التي أتممت فيها المرحلة الابتدائيّة، خلافًا لأخي هوّاري الذي لم يكمل السنة الخامسة قبلي بسنوات. أرى البراءة والتّرقب في وجوه الأطفال المتدافعين للخروج. أتخيّل حياة لكلّ منهم. أتبعهم في بيوتهم وأتقفّى مصائرهم: برهات السعادة وثقل الأوجاع، وأنا بينهم طفلة في جسد صبيّة تخجل من تفتّقه قبل الأوان.

هبة 1

من بين كل زوّارها وزائراتها كانت هُوَّارية تفضّل هبة. شابة تحايلت على الثلاثين ببراعة نبوية. سمراء بوجه طفولي يحاكي الملائكة، وجسد منحوت بإزميل عاشق. مشت في ممر البيت بخطوات خفيفة.

تنتقل فوق مربعات البلاط الأبيض والأسود كما لو كانت رجلاها بيادق تنطّط على رقعة شطرنج. تقابلنا أمام باب المطبخ المفتوح. رأت هُوَّارية أمامها كيانًا يموج بعذابات أزلية. يقبع في برزخ بين حيوات. منها ما اكتمل ومنها ما لم يكتمل. كانت تجرّ وراءها تاريخًا يصعب تتّبع أثره، وكأنّها عاشت أكثر من حياة فيما غار من أزمان.

***

(هُوَّارية)

لم تصادفني حالة كهذه من قبل قط. تأجّج فضولي. دخلت خلفها إلى غرفة «عيادتي». كانت تحمل محفظة جلدية تُفتح من لسانين يتهيان بمثلّثين معدنيين، ويبدو واضحًا من اهترائها أنّها رافقتها لفترة طويلة. بالأحرى لم تكن تحمل المحفظة بل كانت تحتمي بها ضامّة إيّاها إلى صدرها بكلتا ذراعيها. جلست وهي لا تزال تعانق محفظتها، وبادرتني قبل أن أنطق بسلسلة عبارات الترحيب بصوت ملأ الأرجاء عذوبة:

- ما جيتكش باش تشوفي لي زهري...

كنت معتادة على مثل هذه المقدّمات التي تستهلّني بها بعض المتحذلقات ممن يغلبهنّ فضولهنّ ويرفضن الاعتراف برغبتهن الحارقة في استشارة عرّافة.

فقلت لها بابتسامة عريضة لطمأنتها:

- معليش... مرحبا بك على كل حال. اشتا بغيتي؟

اعتدلت في جلستها واقتربت أكثر من حافة المتكأ كمن يهمّ بالانصراف بمجرّد التفوه بمطلبه تحاشيًا لرفض محتمل:

- رسلوني عندك باش تعاونيني.

قلت بلهجة عبّرت عن استغرابي:

- نعاونك؟

- راني نخدم في بحث على الأولياء الصالحين في وهران.

ضحكت من كل قلبي، وقلت لها مازحة:

- وأنا في ميزك نعرفهم الكل؟

رمقتني بنظرة حمّلتها كل الجدّية التي يمكن لوجه طفولي أن يعبّر عنها:

- خبريني علّي تعرفيهم.

ملتُ بظهري على المسند السميك المغلّف بالقطيفة الكحلية الناتئة على خلفية مذهّبة، وقلت متصنّعة الفضول:

- واشتا يديروا بهذا البحث؟

قالت وهي لا تزال تحتضن محفظتها:

- تعرّفو على les rites et les pratiques[1] في الزْويّ[2] يعني... وأكملت بالفرنسية:

- L'influence du maraboutisme sur la société[3].

ثمّ استرسلت كمّن يستظهر درسًا حفظه عن ظهر قلب بلغة فرنسية لم أفهم منها الكثير، فقاطعتها:

- اهدري بالعربية يرحم بوك.

عضّت على شفتيها، ثمّ أضافت:

- اسمحيلي... حبّيت نعرف كيفاش تدير والوعدات والحضرات... واش هي المواسم، وعلاش تديروها؟ واشتا تقراو في كل موسم؟

شعرت ببعض الإهانة من تبسيط كلامها المفرط، فأردت أن أفهمها بأني لست أمّيّة:

- لا، قلت لك تكلّمي بالعربية باش نفهمك. أنا ما نيش جاهلة. لحقت حتى للباك. بالصّح الرومية نسيتها شوية.

ارتبكت الشابة، وضمت محفظتها إلى صدرها بشدة أكبر. وبدا لها أنها خدشت مشاعري. فراحت أصابعها تنقر بسرعة على ظهر المحفظة الجلدية تباعًا كما لو كانت توقّع لحنًا. الخنصر فالبنصر فالوسطى فالسبابة، بينما اختفى الإبهام خلف المحفظة. ثمّ انتصبت

---

[1] الطقوس والممارسات.

[2] زوايا الأولياء الصالحين.

[3] تأثير الزوايا الدينية على المجتمع.

واقفة دفعة واحدة، وتوقّفت أمام باب الغرفة، وبعد فترة صمت قصيرة، قالت كما لو كانت تفشي سرّاً:

- راني نحوّس على مخطوط اسمه «الياقوتة».

ثمّ استدركت:

- كتاب منسوخ باليد، تعرفي وين نلقاه؟

فاجأني طلبها، وأدركت أنها تعرف أكثر مما تعلن عن عالمنا وأسراره. فازداد فضولي:

- واشكون خبّرك على «الياقوتة»؟

همهمت بالفرنسية بشيء لم أفهمه. ثم عبرت البهو صوب باب الدار بخطى أقلّ ثقة، وخرجت من دون أن تنتبه للقطّ النحيل الذي راح يشمشم ساقيها والذي أحضرته معي من وعدة سيدي يوسف الموسم الماضي. لا يزال هزيلًا ضامر البطن كما كان حين رأيته أول مرّة. أذكر هناك كيف جاء يدور من حولي ويتمسّح بي، وينظر إليّ بعينيه الخضراوين اللتين ذكّرتاني بعيني «هشام». كانت نظراته ملحّة ثابتة كأنّه يعرفني. ولم يبد أيّ مقاومة حين وضعته في قفّتي. فقررت تبنّيه وأسميته «هشّوم». ولا أفهم لحدّ الآن لماذا يموء مواءً يشبه العويل ويرتمي أرضًا كلّما أرخى الليل سدوله، ولا يسكت إلاّ بعد أن أحضنه ويدخل كامل رأسه تحت إبطي. حينها فقط يحسّ كلانا بالسكينة.

لم تسنح لي فرصة الاختلاء براحة يمينها كي أسبر أغوار ذلك الكيان الهشّ. لكنّ إحساسًا قويًا شدّني إلى تلك المرأة. ذكريات

ورؤى كثيرة طفت على سطح ذهني. بعضها يرجع لحقب خلت، ويعيد بعضها الآخر تركيب صور مفككّة لأناس عرفتهم أو سمعت عنهم. حضرتني صورة هاجر في بيت الراهبات والصليب النحاسي يتدلّى من يدها، ورأيت خيال طبيب فرنسي بمئزره الأبيض يحمل رضيعًا ويمشي بمحاذاة باش آغا بكامل حلّته في طريق ترابي ممهد، تكلله الأشجار من الجانبين، وينتهي بمنزل أشبه بالقصر. قد يكون الطبيب دوبيري. رأيت هشام يجري وراء شاب أحمر الشعر على جسر من دون دعائم، تغوص نهايته القصية في البحر وذلك الشاب يمشي فوق الماء ويتلاشى في الأفق. ورأيت في عينيّ الصبية الماثلة أمامي جذوات حرقة الفقدان.

تواعدنا قبل انصرافها على اللقاء في أول خميس من الشهر المقبل كي أصحبها إلى مقام سيدي يوسف. أخبرتها أني سأعرفها بمقدّم الزاوية سي هنّان الذي يعرف كل الزوايا والأقطاب والغيّاث والمريدين في المنطقة. وقد تجد طلبها عنده.

حين أغلقت الباب خلفها شعرت وكأنّ لفّات أخرى انفلتت من بكرة الخيوط السماوية التي تربط بين حيوات الناس ومواقيت الصدف.

هنّان

(هُوَّارية)

كان سي هنّان حين التقيته أول مرّة، بعد أن أفقت من إغماءة ضربة شمس، رجلًا بدا لي طاعنًا في السن وضخمًا كعمالقة الواق الواق، مُرهبًا، ببشرة بيضاء لوّحتها الشمس وغلّظت تجاعيدها. تناثرت عليها شعيرات بيضاء تحت الخدّين وأسفل الذّقن، وبعينين واسعتين غطّتهما طبقة زجاجية تجعل من الصعب تحديد لونهما، وجفنين خاليين من الرموش تقريبًا. يعتمر رزّة بيضاء موشّحة بشريط أصفر، وجلابيّة حائلة من اللون نفسه، فوقها برنوس من الصوف الرقيق رمى بطرفيه على كتفه الأيسر.

كنت إذّاك لم أتجاوز الخامسة عشرة من عمري، حين رافقت أمّي التي اصطحبت هدية لتزوّرها إثر نوبة جنون أصابتها بعد عودتها لبيت الزوجية. طبعًا نتيجة أول «عركة» بعد المصالحة مع أخي هوّاري. خرجت من غرفتها وهي تصيح وتشدّ شعرها وتمزّق ثيابها بحركات هوجاء هستيرية. ثم انطرحت أرضًا، وضاع بؤبؤيها في محجريهما، وراح فمها ينفث زبدًا. لم تكن أمّي تريد أن تغضب هدية ثانيةً، ليقينها من أنّها ستكون غضبتها الأخيرة.

عنّفت هوّاري بشدّة، ووصلت مشاحنتهما إلى أن طردته من البيت. لم تكن تريد أن تعرف السبب، فالسبب الأكبر معروف ويندّي جبينها كلّما تذكّرته. لكنّها حوّلت كل حنقها على ابنها وضيق ذرعها

بي إلى عطف غامر أسبغته على هدية. كانت أمّي ترى في ثورة زوجة ابنها انتقامًا من والده ومن صنف الرجال أجمعين، وتمرّدًا على كل من كان سببًا في قهرها، ومن ذلك الزمن الأغبر الذي جعلها تترك غابتها الصنوبرية وتدفن نفسها في هذا الجحر.

كانت تلك المرّة الثانية التي أزور فيها زاوية سيدي يوسف. المرّة الأولى لم تترك أثرًا يذكر في نفسي. قرّرت أمي أن تصحبني مع هديّة كي يرقي لنا الشيخ هنّان بعد أن راودها القلق من طول فترة صمتي. كنت في ذلك الوقت أعيش حالة صخب شديد في داخلي. أصوات متداخلة ومتنافرة، صرخات استغاثة، آنات ألم وفجيعة، بكاء أطفال، حتّى الحيوانات يصلني صدى شكواها. وما إن أفتح فمي لأنطق بشيء حتّى تتزاحم تلك الأصوات كما لو كانت تريد الخروج مجتمعة. فيصدر عنّي لغط غير مفهوم يخيف من حولي وخاصّة أمّي التي يحمرّ وجهها حرجًا. لذا قررت أن أصمت.

لكن الآن شيء ما في ذلك المكان زعزع كياني. يبدو من الخارج بيتاً عاديًا، يفتح على فناء مربّع تحوّطه الأقواس الرخامية، بغرف في كلّ ضلع كُسيت جدرانها الخارجية بالزّليج الملون على الطريقة الأندلسية.

وحين دخلت الضريح، بهرتني بساطته. غرفة صغيرة من دون نوافذ، ذات باب يضطر عابره للانحناء مهما قصرت قامته، وقد انتصب على أحد الجدران صفّ من الأعلام الكبيرة الملوّنة المركّبة على قوائم نحاسيّة. وفُرش على كامل القبر غطاء أخضر حريري مطرّز بخيوط الذهب بآيات قرآنية، اهترأت أطرافه من كثرة التقبيل.

وعلى جانبي الضريح صفّان من المبخرات الطينية والنحاسية تعبّق المكان بروائح بخور الجاوي الزخمة.

تملّكتني قشعريرة مع عرق بدأ يتصبّب من كل أنحاء جسدي. أحسست بتيّار كهربائي لفني فيما يشبه الدوّامة. كاد أن يُغمى عليّ. فخرجت لآخذ نفسًا في الهواء الطلق. رفعت رأسي إلى السماء. بهرتني الشمس. كنّا في أواخر الربيع والأرض لا تزال فاردةً بساطها الأخضر. يمكن للمرء من المكان الذي تنتصب فيه الزاوية بقبّتها الخضراء أن يرى البساتين الممتدة على مرمى البصر، تتخلّلها مساحات حمراء من شقائق النّعمان، وأخرى صفراء من الحمّيضة، وتبرز هنا وهناك حزم الخزامى البنفسجية التي تبدو غامقة تحت ظلال أشجار الزيتون المتلألئة الأوراق. يسترسل أسفل القبّة سهل يحيط بالزاوية كالخاتم المرصع بخيم متعددة الألوان. وُضعت أمام كبراها مواقد تتربّع عليها قدور ضخمة شحّرها السّخام. يدور حولها رجال ونساء وأطفال من مختلف الأعمار. كلّ منهمك في عمل شيء ما. منهم من يسلخ الأضحيات ومنهم من يفصّلها، والنساء مشغولات بتقشير الخضار وتقطيعها وفتل الكسكسي وتفويره. والأطفال بينهم يطاردون القطط والكلاب التي جذبتها الروائح النفّاذة للحوم النيّئة والمطبوخة. وبين الحين والآخر تنبعث أهازيج تبدأها مجموعة لتنضمّ إليها مجموعات أخرى. اندسست بينها وأخذت أردد معها:

- لا إله إلا الله

باسم الله بيها ابديت بيها يدا البادي

وعلى النبي صليت ربحي محمدي

يا شيخي راني مريض وأنا جيت نداوي
عند الشيخ اللي طبيب بوعلام الجيلاني
يا شيخي العار عليك عارك لا تنساني
سْلّكْني من ذي وذيك في وجه الرحماني
يالغادي خوذ الطريق والغى بالجلالة
ذكر الله ديرو رفيق يقضي كل بسالة
والصلاة على النبي خير من كل مسألة
هي طبة قلبي مفتاح الجلالة

***

بقيت أصداء التهاليل ترن في أذنها طوال اليوم بينما كانت تتقفىّ الوهج الوضّاء الذي أخذت تشعر بحرارته على كل المسامات الظاهرة من جسدها. لم تكن ترى سوى ضوء ساطع يغلفها بهالة كثيفة تمور من خلفها خيالات مائجة منتشية، راحت تبتعد شيئا فشيئًا مفسحة المجال لنور مزيّغ يتمركز في نقطة تلاشٍ متلألئة. زيارة خاطفة للمطلق.

***

(هُوَّارية)

ما إن توقفت عن ملاحقة الشمس حتى شعرت بالأرض تدور من تحتي، وأنا شبه غائبة عن الوعي وفمي يلهج بتعويذة لا أدري مصدرها. تجمهر حولي رجال ونساء من أعمار مختلفة. إحداهن تمسك شعري والأخرى تشد ثوبي، وثالثة تصيح بالصلاة على النبي

من الخلف، وآخر يضع في راحتي قطعة نقدية ويقول وهو يشيح بوجهه عني كمن يحتمي من إشعاع ما:

- هاكي الفال، قولي...

تهالكت على الأرض كنجمة آفلة، وقبضت على حفتي تراب رفعتهما إلى السماء وخرجت من حنجرتي كلمات لم أقلها من قبل قط كما لو كنت أسمعها للمرة الأولى:

- بسم الله بيه نبدا... والصلاة على الرسول البارح واليوم وغدّة... الله الشافي والمعافي... اللي دارو في القلب ما تجيه غبينة وما يتأذّى...

وهي التعويذة التي لا زلت أرددها لحدّ الآن، قبل أن أُبحر في راحة أي طالب في الاستشراف ومساءلة النجوم.

ساد صمت مهيب، ثمّ تراجع الجمع من حولي بضع خطوات وشكّلوا حلقة كنت مركزها.

تهجّيت في راحات أياد كثيرة ذلك اليوم. حيوات متنافرة، منفصلة، متشابكة، متعارضة. وكأنّ الكون خيوط متصلة يتمسّك بها الأفراد بإيعاز علوي. ويصعد كل من ينفلت منها إلى سدرات السكينة المتراتبة في فسيح السماوات راسمًا طريقًا نورانيًا للعودة. وإلّا، فكيف تتراءى لي كل تلك الخيالات الوهاجة المتلألئة تحت الشمس؟ وكيف يصلني لغط تخاطرها طنينًا، ليتحول شيئًا فشيئًا إلى نغمات هلامية الطبوع، تتفكك شفرتها في رأسي على شكل رؤى تمور في الزمن وأسماء تبحث عن وجوه؟

فتحتُ عينيّ لأرى وجوهًا تطوّقني وتلفّني بأنفاسها اللزجة. يتصدّرها أنف برزت شعيراته الخشنة من منخريه كالنوازل في مغارة معتمة، وسط وجه غليظ التقاطيع يغرس فيّ نظرات متفرّسة. هل رأيت هذا الوجه من قبل؟ أبعد الجموع بمنكبيه العريضين، مالت رزّته البيضاء لتغطي جبينه، ورفع طرف برنوسه ليلقيه على كتفه الأيسر بينما كان يهمّ بالنهوض. بدا لي عملاقًا كمئذنة تناطح السحاب، وردد كلمات سريعة تبتلع إحداها الأخرى:

- ها هي فاقت، يا حضرات. دارت فوضى كبيرة.

تراجع إلى الوراء بخطوتين، ثمّ جاء صوت من خلفه بلهجة آمرة:

- خذوها للمركز.

تبينت هيئتين بلباس دركي. أمسكني أحدهما من كلتا يدي وأوقفني بصعوبة على قدمي الواهتين. تناهى إلى مسامعي صوت أمي تصرخ من وراء الجمع باستعطاف أدهشني:

- شيرة صغيرة ما تعرف والو، وراهي مريضة.

ارتفعت أصوات من ورائها مكررة:

- شيرة صغيرة... مريضة... خلّيوها في حالها...

نطق الدركي الأكبر سنًا بلكنة عنّابية:

- يا زامانا هيّا، كل واحد يروح في حاله. خلّيونا نخدموا.

حين عدت إلى رشدي، سألت أمي عن ذلك الرجل العملاق فقالت لي بأنّه الشيخ هنّان مقدّم زاوية سيدي يوسف. لم يتوقف عن الكلام منذ أن ركبنا عربة الدرك الرباعية، تقاطعه أمي إثر كل جملة

يتفوه بها ليخلقا لغوًا قابله الدركي بصمت، كضابط تحقيق محنّك يستجمع حيثيات قضية من تقاطع معلومات. وعندما وصلنا إلى وحدة الدرك الواقعة على حافة الطريق المؤدي إلى تلمسان، أمسك الدركي بيدي وقادني إلى داخل الوحدة ذات البناء المسبق الصنع. وبحركة صارمة من يده الأخرى أمر والدتي والعملاق بالمكوث خارجًا. إحساس غريب انتابني لحظة احتوت راحته الضخمة يدي. كما لو كان قمع دوامة يشفطني ليسكنني في وجدانه. رأيتني مع أناس غرباء أراهم ولا يرونني. اقتحم ذواتهم، أقرأ مشاعرهم وأتبع أحلامهم. تندفع إليّ اللحظات القوية في حيواتهم كشريط قصير متقطّع يملأ لحظات سنواتي الفارغة. ترطب دموعهم وجنتيّ، وتنفرج ابتساماتهم على ثغري كلمسات البتلات الطرية لنوار العشب الندي. أنصهر فيهم وتطوّقني هالاتهم. رأيت الدركي ينحني ليعانق جسدًا مسجّى لصبي في حدود العاشرة من عمره. خرجت العبارة من فمي دون استئذان:

- البركة في راسك... راه في الجنّة.

انتصب جذعه فجأة ورمقني بنظرة يشوبها الخوف والتشكك:

- اشكون؟ اشكون هادا اللي راه في الجنّة؟

وليدك... ما زال سخون... الله يرحمه ويوسّع عليه...

وانطلق لساني يحكي بتفصيل دقيق قصة ذلك الصبي المعوّق الذي غادر الدنيا اعتذارًا لوهنه وشفقة على والديه. تفوّهت بأشياء أخرى كثيرة وذكرت أسماء وأماكن جعلت الدركي يقف على قدميه ويتراجع إلى الوراء كمَن رأى لتوّه عفريتًا. ثم خرج كالسهم وهو يتمتم:

- بسم الله الرحمن الرحيم... بسم الله الرحمن الرحيم...

رأيت الشيخ هنّان من النافذة مطأطأ الرأس يصغي باهتمام شديد إلى حديث الدركي الذي لا بدّ وأن انفعاله قد زاد من سرعة كلامه، بينما كانت أمي تضرب كفًا بكف.

منذ ذلك اليوم تكفّلني الشيخ هنّان برعاية خاصة. وصار يحجز لنا في كل موسم أنا وأمي وكل من يحضر معنا أفضل مكان لنصب خيمتنا حيث يمر من أمامها قطعًا كل القادمين للتبرك بضريح الولي الصالح. إذ أن ورع الشيخ لم يمنعه من أنْ يرى فيّ الإوزة التي تضع بيضًا من ذهب. فجرى الاتفاق مع أمي ضمنيًا بأن يتقاسما حصيلة الفأل الذي يتركه الزائرون بسخاء بعد كل معاينة يخرجون إثرها فاغري الأفواه. ويزايد الشيخ هنّان بأنني بركة سيدي يوسف ليضاعف المتلهفون العطاء للزاوية.

أما هدية فقد وجدت نفسها دون رقيب مع انشغال أمي بصفقتها التجارية الجديدة، فوسعت دائرة معارفها، من الذكور طبعًا. وصارت تغيب بعد غروب الشمس لتعود إلى الخيمة في هدأة الليل وتندس بجانبي في الفراش كالسحلية. لم تكن عين أمي بغافلة عنها لكنها كانت تتظاهر بالنوم ليلًا وبالجهل في باقي الأوقات. ولا تعير اهتمامًا لتلميحات النسوة، خاصة من اختلت برجالهن. وأحيانًا تبالغ في وصف ساكني كنّتها من الجن لتبرير تصرفاتها، مع قناعتها بأن الجن الأكثر نيرانية هم تلك الجحافل من النساء الماكرات والأولاد الشياطين وبعولتهن الإمّع وما ملكت أيمانهم. جاءت كل واحدة منهن بمخطط جهنمي للأذية أيًا كان هدفه. يشعلن فتيل الشجار لأتفه

الأسباب. ويفجّرن الملاسنات للفت الأنظار. طبعًا، كانت أمّي قاسية في حكمها على زائرات المقام لأنها لم تتعرّف مثلي على ما يُدمي ويُحجّر قلوبهنّ.

يدوم موسم وعدة سيدي يوسف خمسة عشر يومًا وأحيانًا شهرًا كاملًا. وتعود أمّي فرحة برزمة النقود التي تخفيها في صدرها بعناية، وبعدد من القفف المليئة بالمؤن من سكر وقهوة وسميد وغيرها من الأطايب. كانت تلك الثروة تجعلها تتوقف عن العمل لدى التلمسانيات لفترة إلى غاية نفاذ الحصيلة.

أمّا أنا، وبعد السنوات السبع التي أمضيتها في الزاوية، فقد واظبت على حضور مواسم وعدة سيدي يوسف حتى بعد أن وافت أمي المنية، وزُجّت هديّة في السجن وانقطعت أخبارها بعد خروجها، ودخول أخي هواري في عداد المفقودين. ثمّ تفرّغت تمامًا لشؤون العرافة. ولا زلت الإوزّة التي تبيض ذهبًا بالنسبة للشيخ هنّان، خاصّة بعد أن طمأن تقرير الدركي العنّابي السلطات المحليّة بأنّي لست «مشعوذة» بل «روحانيّة»، على حدّ تعبيره. وكان ذلك يُفرح «احوالي».

هنّان 2

لم يكن هنّان شيخًا قبل أن يصبح حاجًّا، ويعتكف في زاوية سيدي يوسف منذ ما يقارب العقدين. في غضون تلك الفترة التي جاءت فيها أمّ هوّاري وهي تسحب وراءها فتاة لا يضاهي جمالها سوى البلاهة التي تبثّها نظراتها الفارغة.

توجّس شرًّا حين رآهما. إذ غالبًا ما تحضر النسوة المتخلّفين والبلهاء من أولادهنّ، أو من يستأجروهن، لاستجداء عطف وكرم الزّوار. وهو لا يريد أن يلطّخ سمعة وكرامات التّقيّ الصالح بمثل هؤلاء المتطفّلين.

الغريب في أمر هنّان أنّه لم يكن في حياته شخصًا متديّنًا، ولم يكن يفقه الكثير في أمور الدين. كان يملك دكّانًا صغيرًا في سوق مدينة جديدة يبيع فيه «الكارنتيكا» أو «الكاران» كما تسمى اختصارًا. يوجد في مؤخرة الدكان فرن تقليدي يتّسع لصينية كبيرة من الصفيح، بجانبه طاولة خشبيّة تكفي بالكاد لوضع ماعون كبير من النحاس يخلط فيه مقادير وصفته التي ورثها عن والده: كيلة من دقيق الحمّص، وخمسه من الماء وكيلة من الزيت. يضيف إليها الملح والكمّون بذرات لا تخطئ العيار المطلوب. وكان يحضّر خلطته في المساء ويترك المنقوع ليتشرّب إلى صباح اليوم التالي حيث يسكبه في الصينية ويزجّ به في الفرن الحامي، مردّدًا في كلّ مرّة قول والده: شريك الماء لا يخسر. تجارة كانت تضمن له عيشة كريمة، فهو أعزب وليس له من يعيله بعد وفاة أبيه. كما كانت له خلطته الخاصّة للهريسة الحارّة. فهو

لا يكتفي بإضافة الماء إلى المعجون اللّهاب، بل يحسّنها بالدّرسة. وهي مهروس من الثّوم والكمّون والفلفل العكري.

لم يغادر هنّان حي مْدينة جْديدة أو قرية العبيد كما كان يسمّيها الفرنسيون منذ أن رحل إليه مع والده من دوّار سيدي البشير بعد موت أمّه. استأجر أبوه غرفة في حوش وقبل أن تنفد دراهم البيت الذي باعه في سيدي البشير، اشترى دكّانًا أخبره كلّ من رآه أنّه لا يصلح لأي تجارة. وهو لا يعرف إلّا الفلاحة. لكن كانت المرحومة زوجته امرأة صارمة وطاهية ممتازة ومدبّرة، تصنع أشياءً من لا شيء. فقد كانت لا ترمي قشور البصل والبطاطا والخضار الأخرى، بل كانت تيبّسها لتصنع منها حساء في الشتاء في أيام العوز. وحين أقعدها المرض صارت تملي على زوجها كيفيات طبخ الأطباق القليلة التي يتداولها الفلاّحون في المنطقة.

ومنها تعلّم صنع الكاران. وبقي يترحّم على زوجته كلّما أدخل صينية في الفرن.

كان حيّ مْدينة جْديدة بالنسبة لهنّان يلخص العالم البهيج الذي لا يريد أن يفارقه مقارنةً بدوّار سيدي البشير حيث قضّى أولى سنوات مراهقته، ولم يغادره إلّا لزيارة بعض الأقارب في دشرة بن عودة المجاورة التي كانت مأهولة بالفلاّحين العاملين في مزارع المعمّرين الفرنسيين والذين كانوا يتباهون بأنهم الأقدم في المنطقة. غالبًا ما كان والده يردّد بزهوّ كبير بأن أصولهم ترجع إلى البيّض وإلى اولاد سيدي الشيخ بالتحديد وهم من الأشراف. لم يكن ذلك ليشعره بأيّ نوع من الافتخار، فقد كانوا فقراء معدمين والفقر لا يترك حيّزًا للفخر.

كثر زبائن هنّان، خاصّة بعد أن اشترى ثلاّجة قديمة ملأها بالمشروبات الغازيّة والعصائر الملوّنة التي يركّبها بإضافة الماء والسكر والملوّنات إلى مُرَكّز الليمون والبرتقال المصنّع. وأصبح له زبائن دائمين يأتونه وقت الغذاء وحتى في الصباح الباكر. فقد كان يدخل صوانيه في الفرن على الرابعة صباحًا، ويفتح دكّانه على السادسة لاستقبال العمّال الذين يتزوّدون بفطورهم وغذائهم قبل الذهاب للعمل. كان سي هجّام الذي يشتغل حمّالاً في الميناء من أظرف المبكّرين. يأتي قادمًا من ساحة الطحطاحة، رافعًا عقيرته بأغان فرنسية يؤدّيها بطريقة أوبرالية محوّرًا كلماتها لوصف مزايا الكارانتيكا، يلتفّ حوله عدد من الرجال ويفتكّ الابتسامات الصباحية للقلّة من النساء، فيشتري الكاران من لم يكن ينوي ذلك.

نما نوع من الألفة بين الرجلين، تحوّل شيئًا فشيئًا إلى صداقة. صار هجّام يعرّج عليه بعد انتهاء ورديّته في الميناء ويحتسيا معًا العصير المفبرك. أحيانًا كان يضيف إلى كأسه جرعة سخيّة من زجاجة كحول صرف من محجوزات الجمارك، يخبّئها في الجيب الداخلي لسترته الزرقاء «شنغهاي». ثمّ أخذ يصحبه إلى «القعدات» التي تقيمها هبيرة بين الحين والآخر، ويحضرها ثلّة من وجهاء الحْمري واكميل وبعض عابري السبيل من البقّارين الذين يبيتون في الحمّامات المجاورة.

كانت هبيرة في ذلك الوقت في أوج عنفوانها وشبابها. ولمّا رآها هنّان للمرة الأولى، أحسّ أنّ قلبه سقط بين قدميه، وأنّ أنفه انتفخ واحمرّ واحتل كامل صفحة وجهه. بهرته بشخصيّها القوية التي ذكّرته بأمّه، وحركاتها الواثقة التي تحوّل بؤرة الموبقات التي يمثّلها بيتها،

كما يُشاع عنه في الحيّ، إلى المكان الحقيقي الذي ينبغي العيش فيه. كان مجرّد وجوده بقربها يشعره بطمأنينة غريبة في الاستسلام لضعفه أمامها، وكأنّ العالم كلّه سيكون بخير حين يفعل. لم يكن يرى فيها بغيًا، بل امرأة متحررة من كل رابط، تعيش حياتها يومًا بيوم كما يحلو لها، ويزداد إعجابه بها عندما تفرض احترامها على كل الرجال الموجودين. لم يكن أحد ليجرؤ على الإتيان بحركة داعرة. كانت، إن حصل، تقف وتفتح الباب الخارجي على مصراعيه، وتأمر المذنب بالخروج بإشارة من يدها الممدودة من دون أن تنبس بحرف. ثم تغلق الباب بخبطة يرجّ لها الحائط، وتدمدم بصوت مسموع: «هاد الدار ماشي بورديل[1].» فيعمّ السكون للحظات، وما يلبث أن يستعيد الضيوف بهجتهم، وتبدأ هبيرة بالتمايل على موسيقى الراي المنبعثة من شريط التسجيل ومعها أخريات ممّن جئن مع أصحابهنّ. كانت أجواء المرح التي لا يرى فيها ما يضير تسلّيه إلى أبعد حدّ.

أجمل ذكرى علقت في ذهنه من سهرات السمر كانت عندما حضر موسيقيّ مغمور يحمل عوده وراح يصدح بأغنية مسّت شغاف قلبه. كان يغنّي بإحساس شديد ويتحسّر على وهران. يتذكّر كلمات تلك الأغنية التي كانت تبثّها الإذاعة المحليّة والتي كانت لمطرب مشهور: وهران وهران رحت خسارة

هجروا منّك ناس شطارى

قعدوا في الغربة حيارى

والغربة صعيـة وغدّارة

[1] بيت بغاء.

تركت فيه تلك الأغنية أثرًا عميقًا لم يعرف له تبريرًا. تغيّرت نظرته للمدينة. أصبح يرى فيها بعدًا أنثويًا لطيفًا كالمرأة التي يحلم بها. ويُقال إنّ بعض الصيّادين العائدين إليها من البحر حيث يقابلهم النفق الذي يصل الميناء بوسط المدينة، يتخيّلونها امرأة مستلقية تُشهر مفاتنها الحميمة. تبدّت له مظاهر التداعي في أبنيتها وشوارعها التي لم يكن يلاحظها من قبل وكذلك الاستهتار واللامبالاة في سلوك أبنائها تجاهها. لم تعد وهران بالنسبة له سوى «حشيشة طالبة معيشة»، كائن هشّ يجب حمايته، ورنّت كلمات الأغنية في ذهنه كالنبوءة.

من بين الأماكن القليلة التي كان يرتادها هنّان كانت جلسات «الحضرة» أو «الذكر» التي ينظمها سرًا مجموعة من دراويش مدينة جديدة في حمّام سيدي بلال غير بعيد عن المسجد الذي يحمل الاسم نفسه. دعاه إليها أحد زبائنه المبكّرين بعد أن أقنعه بإقامة الصلاة في المسجد حين ينتهي من عمله. كان يشعر بالسكينة تتخلل جوارحه إثر كلّ جلسة. يميل بكامل جذعه يمنة ويسرة على إيقاع البنادير، ويردد مع الحاضرين أسماء الله الحسنى وبعض المدائح الدينية. في البداية لم يشعر إلّا بالعرق يتصبب من جسده المنهك بالتمايل والدوران. لكنّه شيئًا فشيئًا أخذ يحسّ بالتنميل يستشري في أوصاله وبالخفّة تستأثر ببدنه.

لم يمرّ وقت طويل قبل أن يتأكّد هنّان من عدم جدوى تلميحاته الخجولة لاستمالة عواطف معشوقته هبيرة. كان ذلك عندما انضمّ إلى الشلّة رجل وسيم الطلعة، طويل القامة يدعى عبد القادر. كان يملك طاولة في السوق يبيع فيها الخضراوات والفواكه. كما يبيع

تحت الطاولة أصنافًا من المشروبات الروحيّة والسجائر المهرّبة. أطلق عليه جيرانه لقب سي الهمّة لشدّة إعجاب النسوة به وتحلقهم دومًا حول بسطته. ولم يكن أحد يناديه بغير ذلك الاسم. كان يأتي وهو يحمل تحت إبطه زجاجة نبيذ في كيس ورقي، ورائحة الكحول تسبقه بأمتار من دون أن تبدو عليه علامات الثمالة. شعر هنّان، من الوهلة الأولى، أنّه إزاء غريم لا يمكن مجاراته، خاصّة أنّ هبيرة كانت مشدوهة تمامًا أمام ذلك الصرح من الوسامة. حتىّ أنّ أفكارًا إجرامية أخذت تتغلغل في ذهنه المضطرب بالغيرة. تنبّه هجّام لحال صديقه الذي أخذ يفتعل المبرّرات كي لا يرافقه إلى «القعدة» الأنيسة. حاول أن يجرّه إلى حضور اجتماعات خلية التنظيم في الميناء، إلّا أنّ هنّان أخذ يتنصّل منها لأنّه لم يكن يفهم الرطانة التي يتحدّث بها المجتمعون. ولم تجد تعابير تُلفظ بحماس شديد، مثل «صراع الطبقات» أو «الرأسمالية المستغلّة» أي مرجعية في بساطة أفكاره. بل جعلته يلجأ، نزولًا عند نصيحة أحدهم، إلى دروس الشيخ «هبري» إمام مسجد اكميل الذي يتكلّم لغة يفهمها وإن استعصى عليه بعضها.

الزيارة التي قام بها رفقة أحد أصحاب «الحضرة» إلى زاوية سيدي يوسف كانت المعلم الفاصل في حياته. باع دكّانه وهجر حبيبته ليستقرّ في مقام الولي الجليل قرب بلدة الرّمشي معاونًا لمقدّمه الطاعن في السن.

هبة 2

(هبة)

اسمي هبة. كان والدي يلقّبني بهبة «المْدْرّحة» أي المغشوشة. الابنة الصغرى الوحيدة على خمسة ذكور من زوجة والدي الأولى. توفيت والدتي أثناء وضعي. ومنها جاء اسمي. أصغر إخوتي يكبرني بستة سنوات وأكبرهم باثنتي عشرة سنة، فارق السن نفسه بين هُوَّارية وأخيها. فقد كان أبي لأسباب أجهلها يحمّلني ذنب وفاة أمي التي تزوّجها بعد طلاقه من زوجته الأولى. وكان إلى زمن غير بعيد حين يعود إلى البيت تسبقه روائح النبيذ والتبغ النتنة، ينفلت لسانه بما يكتم ويرشقني بعبارة:

– لو كان ماشي انتي، لو كان ما زالها عايشة...

يقال إنّ أمّي كانت ابنة باش آغا معروف في الغرب الجزائري، لكن العارفين بخبايا الأحداث المستورة يؤكدون أنها لم تكن من صلبه بل أنّه تعهّد بكفالتها إثر ولادتها بطلب من صديق فرنسي حميم يعمل طبيًا في قسم الأطفال بمستشفى وهران. وهو القسم الذي يرأسه والد زوجة ذلك الطبيب. حكايات شتى نسجت حول هذه القصة، منها أن حما الطبيب المذكور كان على علاقة بإحدى العاملات في المستشفى أثمرت تلك الطفلة، ومنها أيضًا أنّ الطبيب نفسه وقع في حبّ ممرضة في القسم، فأوكلت المولودة للباش آغا لدرء الفضيحة وإنقاذ سمعة الطبيب، خاصة وأن تلك الممرضة كانت من أصول مجهولة يُرجّح أنّها عربية. اختلفت المصادر في

الكثير من حيثيات تلك القصة لكنها تجمع كلها على أن زوجة الباش آغا رفضت ضمها إلى ذريتها، فقرر الباش آغا توظيف مربية خاصة لها تسهر على تنشئتها، ما حدا بزوجته إلى طلب الطلاق. وهكذا احتضنتها خالتي بختة، الوحيدة التي تعرف أنّ جدّتي لأمي هي هاجر الممرضة الغامضة. فقد بحثْتُ عنها بطلب من أمّي التي ماتت قبل أن تعلم بوجودها.

نشأت في أسرة كل أفرادها ذكور، ما عدا خالتي بختة المربية وراعية شؤون البيت التي أحضرتها أمي على ما يقال مع جهازها، وكانت شرطًا من شروط زواجها. أتفهّم الآن ذلك جيدًا عندما أنظر إلى صورة أمّي مرتدية ثوب زفافها، وأتعجّب للشبه الشديد بيني وبينها. الملامح نفسها، الجسد النحيل المنمنم نفسه الذي لا يكاد يظهر تحت ملابسها الفضفاضة، العينان العسليتان الواسعتان، والثغر الحاضن لمشروع ابتسامة متوجسة. الفرق الوحيد بيننا هو لون البشرة. بشرتها ناصعة البياض وأنا سمراء.

كان والدي ميسور الحال يتحدّر من أسرة عريقة ترجع أصولها إلى الأندلس. وقد أغدقت الإدارة الفرنسية على جدّه لقب «باش آغا» نظير جهوده في احتواء مقاومة بعض القبائل في نواحي تيارت. وجدّته لأبيه كانت أول امرأة تقود سيارة في المنطقة الوهرانية بأكملها. لكنه فشل في الحفاظ على الثروة الكبيرة التي ورثها عن والديه بصفته الابن الوحيد، فآل به الأمر إلى أن يعمل «موّالًا» يتاجر بالأغنام وله قطعان يسرح بها رعاة في سهوب عين تموشنت وتلمسان، ومزارع شاسعة في سعيدة وبلعبّاس وتيارت التي يمتلك فيها حرائس يربي

فيها خيولًا أصيلة يجلبها من كلّ مكان بأبهظ الأثمان. لدرجة أنه على استعداد لمقايضة مزرعة بأكملها مقابل فحل نقيّ السلالة. كما أنّه يملك عقارات كثيرة يؤجّرها في وهران بأحياء مُدينة جْديدة واكميل وشوبو. ويقال إنّه اشترى شقة فاخرة في شارع «لوبيه» بوسط وهران خصصها للنفيسات ممن يقعن في حبائله.

حتىّ بعد أن طلّق زوجته الأولى بطلب منها، لم يتزوج بعد وفاة والدتي، فقد كان يحبّها حبًا جمًّا، ولم يتمكّن من إسعادها لغيرته الشديدة عليها ولريبته في كونها «بنت حرام» كما أوعز له أحد النمّامين. لكنه استحق لقب زير نساء بلا منازع، من سعيدة حيث نعيش إلى أعماق الصحراء جنوبًا وشواطئ المتوسط شمالًا. ولا يجد حرجًا من عدم إخفاء ذلك. فقد شهدت طفولتي توافد أعداد من المربيات الوهرانيّات والنايليات، رغم احتجاج خالتي بختة، الطيبة لدرجة السذاجة والتقية لدرجة التصوف، والتي فهمت أخيرًا مهام هاتيك المربيات الخصوصية جدًا.

لكنّ والدي رغم انشغاله بمحظياته كان يصرّ على أن يجعل مني فارسة تمتطي أجمح الجياد. فكان يحملني معه على ظهر جواده، حتى قبل أن أتعلّم المشي، كلما خرج لتفقّد مزارعه وحرائسه، متجاهلًا اعتراض خالتي بختة ونظراتها المتوجّسة. لا زلت أحسّ براحته الضخمة تحتضنني وتشدّني إلى صدره العريض، وبالهواء يلسع وجهي ويغمر خشمي، وبذلك الشعور بالأمان والاستسلام الذي لم يتملّكني ثانية سوى مع هاني. وحين بلوغي السادسة من عمري اشترى لي فرسًا مرقطًا بالأبيض والأسود أسميته «آباش».

وكان المزارع المغربي الذي يعمل لدى والدي يحضر لي الجزر والفواكه ويجعلني أطعمه بيدي. تربّت علاقة وطيدة بيني وبين آباش، أفهمه ويفهمني. وصرت أمتطيه من دون سرج وكأني امتداد لصهوته الوبرة وأسرح في المراعي. كنت أستطلع أخباره من المزارع المغربي قبل أن يتخلّى أخي الأكبر عن خدماته. إلى أن سمعت أنّه نفق. حزني على فقدانه لا يعادله سوى حزني على غياب هاني.

بعد وفاة والدي لم يترك لي إخوتي الخمسة من إرثه سوى البيت الذي أقطن فيه مع مربّيتي في المدينة. واعتبروا ذلك كرم أخلاق يجدر أن يشعرني بالامتنان.

كنت على استعداد لمقايضة البيت بإحدى الحرائس التي تحرس ذكريات اللحظات الآمنة التي كنت أقضيها مع والدي، وتحديدًا تلك المتاخمة لمزرعة الساقية الحمراء، المزرعة التي كنت أتحرّ وسط أشجارِها وأزهارها، وحتّى بين نباتات القنّب المتوارية خلفها من كوابيس عقدة الذنب لأعانق حبّي لهاني وولهي برؤية الجياد الأصيلة تخبّ في المراعي.

أمّا في البيت، فإن الكلمة الأولى التي تبادر إلى ذهني عندما أتذكّر طفولتي فهي الوحدة، إن لم تكن الوحشة. فارق السن بيني وبين إخوتي الذين تفرّقوا كل في مكان ولم نعد نراهم حتّى في المناسبات لانضمامهم إلى صفّ والدتهم، ولخجلهم من سيرة والدهم وتهتكه، واتساع البيت الذي لم يكن يتناسب وصعوبة حركة امرأة عجوز وطفلة يلاحقها شبح أمّها، كل ذلك جعلني أقلّص من فضائي ليقتصر على غرفتي وغرفة تلك العجوز. لم تكن حكاياتها

عن مدى فرحة أمي بقدومي وأمنيتها في أن تلد أنثى ليقلل من وطأة شعوري. لقد ماتت بسببي. وسأعيش بقية حياتي ربّما أكفّر عن هذا الذنب.

كان والدي حين يعود من وهران لتجميع كراء الأحواش التي يؤجرها في بعض الأحياء الشعبية من تلك المدينة يحضر معه فتاة لتساعدنا في أشغال البيت، أو شابًا ليسرح بقطعانه في السهوب المحيطة كنظير عيني لأجرة لم يتمكن المستأجرون من دفعها. كنت أفرح بالقادمة الجديدة عندما تكون من سني، فأجد رفيقة تشاطرني وحدتي. لكن فرحتي لم تكن لتدوم أكثر من شهر، لتأتي أخرى تختزل فظاظة تلك الأحياء وبؤس أهلها. ثمّ ما لبثت الدراسة أن شغلتني عن وحشتي، خاصّة بعد أن دخلت الجامعة، وبدأت اهتماماتي تتوسع ليتفتّق شغفي بعلم الأنثروبولوجيا الذي لا شكّ وأنّ لمربّيتي خالتي بختة يد فيه.

لكن، حدث ما لم يكن في الحسبان. فقد حضر والدي ذات يوم رفقة شاب لا زلت إلى اليوم عاجزة عن وصف الانطباع، لا بل الأثر العميق، الذي تركه فيّ مروره العابر إلى غرفة المكتب. كما لو كان طيفًا خرج من سحيق أحلامي.

لم يلتفت إلي، أو أنّه لم يلحظ وجودي أصلًا، وتبع والدي الذي كان يتحدث عن المزرعة والقطعان وحال المراعي والحرائس، بينما كان هو مطأطأ الرأس إصغاءً، إلى أن استوقفه أبي قائلًا بلهجة من ينتظر ردًّا بالإيجاب:

- ياك تفهم في المحاسبة؟

فرد الشاب متلعثمًا:

- آه... لا... شويّة ... بالصّح قريت الرياضيات في الثانوية.

وحسم والدي الأمر كعادته:

- لا علينا، ساهل... ساهل. حسابات بَرْك. تحسب واش دخل واشكون يغمّس في العسل...

وأنهى عبارته بضحكة متكلفة، مضيفًا وهو يشير إلى إحدى خصلات شعر الشاب الشاردة من تحت القلنسوة:

- وجزّ شوية من هذه الكبّة.

إلى غاية تلك اللحظة لم أكن قد رأيت وجه ذلك الشاب. فقد كان يلبس قشّابية غطت قلنسوتها جلّ رأسه إلا من شعيرات لمعت كالذهب المحمّر تحت ضوء المصباح. لكني سمعت صوته، وصدق من قال «الأذن تعشق قبل العين أحيانا». كان صوتًا رخيمًا مع خنّة تزيد من طلاوته. تخاله رجعًا لصدى همس السهوب وهسهسة الريح وتنفس البراعم. لا توجد كلمات بشرية تحيط بعذوبة كل ذلك الرنين. بالطبع، لم أذق طعم النوم في تلك الليلة.

فهمت من مربيتي أنّ والدي اكتشف في هذا الشاب فطنة لم يعهدها في باقي الرعاة الذين توافدوا على المزرعة. ضبطه وهو يقرأ كتابًا باللغة الفرنسية. ضحكت مربيتي حتى كادت أن تنقلب على قفاها، وتمتمت من بين شهقاتها:

- يقرا القصايد بالرومية[1].

---

[1] الفرنسية.

كانت تعتقد جازمة، وهي من حفظة الشعر الملحون، أنّ «القصايد» هي اختراع محليّ، «انتاعنا» كما تقول، وليس «للقُورّ» أي للفرنسيين شأن بها. تدندنها وهي تمشط لي شعري الكثيف وتجدله خصلات رقيقة تصل إلى فوق خصري. وقد حفظت عنها بعضًا منها، وأحلاها إلى قلبي قصيدة «يا قامة غصن الياس» وهي لشاعر شعبي قديم من تلمسان اسمه ابن مسايب مطلعها:

- يا قامة غصـــــن اليـاس ** يا قامة غصــــــن اليــــاس
راني طامع بوصالــــــــها ** مانقطعــشي اليــــــاس
يا قامة الغصـن الرطـــــيـب ** في البـتان الباهي العجيب
وحْشَكْ يشَيَّبْ من لا يشيب ** والقــلب فــي تهـــواس
يا صفة البــدر لا يغيـــــب ** وظريفــة فــي تِكــــياس

كانت مربيتي بالتأكيد هي من غرس في نفسي الشغف بالتراث الشفهي. كانت في البداية تروي لي تلك القصائد على شكل حكاية تبدأها بأول مقطع من القصيدة وتختمها بآخر مقطع. وكانت أحيانًا تغنّيها على طريقة شيوخ الطرب الشعبي. لم تكن محبّة بصوت جميل لكنها لم تكن تنشّز.

عرفت فيما بعد أنّ القصيدة التي كان يقرأها الشاب -واسمه هاني- هي للشاعر أراغون. كما وجدت فوق المكتب الذي يعمل عليه كتبًا أخرى، منها كتاب لجلال الدين الرومي أمضيت ليلة بأسرها ألتهم سطوره. لم أفهم كل شيء فيه في البداية، لكنّه خاطب حسًّا دفينًا لم أتمكّن من تميز كنهه آنذاك. وقد كبرت لأعرف أنّه سيوجّه

حياتي. أظنّه قد تفطّن لتجسسي على قراءاته، فقد صار يترك كلّ يوم كتابًا جديدًا. أعجبتني فكرة أن أراه ولا يراني، لكنّه كشف سرّي ذات صباح جاء فيه مبكّرًا.

تفاني هاني في العمل وضبطه للدفاتر كأبرع محاسب، إضافة إلى انطوائه وحيائه، وهي صفات أقلّ ما يُقال أنّ والدي يفتقدها، جعله لا يرى مانعًا في أن يرافقني إلى المكتبة لشراء الكتب وأحيانًا إلى الجامعة. وفارق السن بيننا زاد من اطمئنانه. وهو أمر لم أشعر به إطلاقًا. فقد كان من النضج والحكمة ما يحسده عليهما أرزن الشيوخ.

كان غيابه لزيارة أهله يشعرني بفراغ كبير. لم أكن أعرف عنهم الكثير. علمت أنّ له أخًا أصغر من القلق الذي انتابه قبل الإعلان عن نتائج امتحان الباكالوريا في الصيف الماضي ومن حزنه على رسوبه. ولم يزوّدني بمعلومات سوى أنّ اسمه هشام وأنّه، على صغر سنّه، واقع في غرام فتاة غريبة الأطوار. وكان يخشى أن تُلهيه هذه العلاقة عن دراسته. اكتشفت فيما بعد أنّ ظروفًا سوف تجمعني بغريبة الأطوار تلك.

بالفعل، غيابه كان يلفّني بسحابة كآبة. لا أجد نظيرًا أتحدّث معه. والدي مشغول بمزارعه وقطعانه وخيوله، و«بإحداهن»، من وقت لآخر، في عرينه الوهراني في شارع لوبيه. ولم يعد من حديث يجمعني بمربّيتي بعد أن كبرت سوى عاديّ الكلام المتعلق بأمور المعيشة الرتيبة. كنت أحسّ بنظراتها تسبرني، وأسمعها وهي تدعو بحرقة حين تنتهي من صلاتها:

- الله يقّي الستر... الله يعّد البلاء...

لكنّ القلق بدأ يتسرّب إلى خاطري حين تكررّت غياباته، وصار حين عودته يهجس بالرحيل. «نبغي نقطع البحر...» عبارة أصبح يرددّها وهو يستشرف أفقًا غير مرئي بعد تنهيدة طويلة تخرج من أعماقه. وعندما أسأله إلى أين؟ يجيب باقتضاب:

- ما نعرفش، وين ما جات...

أنهيت دراستي الجامعية في علم الاجتماع. ولم يبق لي إلا رسالة التخرّج التي كان موضوعها: «زوايا الأولياء الصالحين ودورها في نشر الوسطية وروح التسامح الديني.» وهو موضوع فُرض عليّ، وظنّي أن مواضيع مشابهة فُرضت على باقي الطلبة. فقد كانت الفكرة السائدة لدى أصحاب القرار آنذاك، أنّ الوسيلة الوحيدة لتجفيف منابع الأصولية تكمن في العودة إلى الموروث من التقاليد، ولو كانت بالية، وتشجيع النهج الصوفي وطرائقه. ومن حسن الحظ أنّ ذلك كان من صميم اهتماماتي. كان هاني يرافقني في أكثر الزيارات التي كنت أقوم بها لتجميع مادّة بحثي. في الظاهر لحمايتي في ذلك الوقت العصيب من انعدام الأمن. لكنّه في واقع الأمر كان أشدّ اهتمامًا ببحثي منّي. خاصّة بعد أن سمع بقصّة مخطوط «الياقوتة». كان يريد أن يصدّق بأنّ كاتبه ليس سوى شمس تبريز، فهو لحزنه على فقدان الرومي لذلك الرجل الذي كان توأم روحه، أراد أن يجعل من تلك الأسطورة فصلًا يفكّ فيه لغز اختفائه.

ساعدني هاني كثيرًا. كانت سعة ثقافته تبهرني، وتجعلني أبدو ذات ذهنيّة منمّطة، كمّن حفظت درسها لا غير، على الرغم من مساري الجامعي ومن سنواتي الثلاث التي تفصله عن مولدي. فجوة

ثقافية عميقة كانت تقف بيننا. يُخيّل إليّ أنني أحتاج لحياة أخرى من أجل تجسيرها. في الواقع، الفجوة كانت روحية أيضًا. فقد كان فيه شيء سماوي لا أقدر على تحديده. نبيّ بُعث في غير زمانه. ويحيّرني ظنّي بأنني لم أكن أبالغ. فقد كان الكلام يخرج من فمه كالأطواق المرصّعة. بطلاقة خطيب لا تعوزه الحجج، ولا تخذله المعارف. وسلاسة تنهل من معين الأنبياء، ومنطق لا يُسلّ له حُسام. وهو أمر أكاد أحسد نفسي عليه، لكنّه كان يجعلني أحسّ بضآلتي وتفاهة محيطي. وما كان يحزنني أكثر هو أنّه حين يتلمّس منتهى حدودي أثناء نقاشاتنا المتنوّعة، يختصر الحديث ويغيّر الموضوع. كان ذلك يُشعرني بوخز إهانة تنصب شوكًا في حلقي. غير أنّ ما لا يدع مجالًا للتشكيك هو الحبّ الذي يربط بين قلبينا. مع أنّ أحدنا لم يصرّح للآخر بشيء. إذ لم يقل لي مرّة: «أحبك». ربّما لأنّه مثلي لم يسمع هذه العبارة في حياته من قبل. أو أنّه يعتبر ما بيننا رباطًا أعمق من الحبّ، متأصّلًا لا تقوى أعتى العواصف على زعزعته. قد يكون الإيمان كما يقول هاني. الحب عاطفة تتحكّم بها عوامل عدّة نفسيّة واجتماعية وحتى ثقافية. وهو يعتقد أنّ الإيمان شيء يمليه العقلاني واللاعقلاني في آن. شعور راسخ يتجاوز العقل ويغطي الأسئلة المعلّقة بظلال الطمأنينة. أحسّ بتلك الطمأنينة في قرارة نفسي. حتىّ الآن، وأنا أتحدّث عنه بصيغة الماضي، يبدو لي ماضيًا أقوى حضورًا من أيّ أوان.

أخذت علاقة أبي وثقته بهاني تتوطّد أكثر فأكثر، وصار يأتمنه على كلّ حساباته وعلى مراقبة مزارعه ومراعيه وحرائسه، مما زاد من

طول غيابات والدي في وهران. كما خصص له راتبًا شهريًا متواضعًا مقابل الخدمات والمهام الجمّة التي يقوم بها. وأعطاه غرفة في مؤخّرة المرأب المغلق لسيارة الفورد من طراز 1910 التي يقول، لمن يريد أن يسمع، بأن جدّته كانت تقودها. وبما أنّ هاني كان يمرّ عبر المرأب ليصل إلى غرفته، فقد أضاف له والدي مهمة تنظيف السيارة وتلميع هيكلها من حين لآخر، ليتفاخر بها أمام أصحابه في حفلة الحصاد التي يواظب على تنظيمها كل صائفة في مزرعة الساقية الحمراء. يدعو إليها الوجهاء والتجار من مدن سعيدة ووهران وتيارت حيث يبيع ويشتري الجياد الأصيلة، وأحيانًا من مدن ومناطق بوّابات الجنوب الجزائري.

كانت الخيام تنصب في المزرعة، وتمتلئ الطاولات، الممدودة على طول الفسحات الخاوية بين صفوف الأشجار المثقلة بالثمار، بالخراف المشوية والكسكسي بكل أنواعه: السّفة بالزبيب والعسل، وتافوّرَتْ بحبوب البازلاء والفول اليانعة، والطّعام بالمرق الأحمر الحار والخضار المشكّلة، وآخر بمرق أبيض تزيّنه كراديش لحم الضأن وقطع الكوسا واللفت وأنصاف حبّات من البيض المسلوق، والكسكسي المخلوط بالخضار على طريقة أصحاب الجنوب بمذاق حار وحرّيف يُلهب البلاعم، ويكاد يُخرج الدخان من أنوف وآذان من يأكله. كانت لي فيه تجربة قاسية لن أنساها ما حييت، جعلتني الآن لا أحتمل حتى ذرّات الفلفل الأسود في الأكل. كنت أحضر تلك الحفلات وأستمتع بأجواء المرح الغامر، ويقطف ثمار الفواكه من على أشجارها، إلى أن نبتت ثمرتان في صدري فحُجبت عنها.

كم كانت تُسعدني مرافقة هاني في جولاته التفقدية لأملاك والدي في غيابه، إذ لم يكن مسموحًا لي، بحضوره، الذهاب إلى أيّ مكان يخصّ عمله، ما عدا الإسطبل حيث يُربط آباش. فقد أذن لي بعد إلحاح شديد أن أعتني به وأمتطيه من وقت لآخر. كنت أحسّ في تلك الأوقات بأنّي أريد أن أمضي حياتي مع ذلك الجواد الرّائع، أتنفّس رائحته، وأتحسس كسوته الناعمة وحركات عضلاته، وأتنشّق عبير البراري في مختلف الفصول.

زرت مع هشام مزرعة الساقية الحمراء التي كفّ والدي عن جعلها مسرحًا لعرض أُبهته. وكانت نظرات الإعجاب، بل الانبهار والخوف أحيانًا، التي يرمقني بها هاني حين أقفز فوق ظهر آباش، ويعدو بي في البساتين المحيطة تملأني زهوًا وتدغدغ غروري. حاولت مرارًا أن أشجّعه على الركوب معي، لكن خوفه كان أقوى من حماسه. تناقصت صفوف الأشجار المثمرة التي تكتسي في الربيع حلّة من مختلف الألوان وتنضح بأعذب الأريج. بعضها يبس وحلّت محلّ البعض الآخر مربعات لزرع الخضار الموسمية والنعناع والبقدونس والكزبرة ذات المذاق المتميّز، وأنواع أخرى من الحشائش التي كان يغرسها الفلاح المغربي الذي استقدمه أبي من وجدة منذ زمن. اكتشف هاني أنّه كان يزرع في قطعة أرض متوارية بين الأشجار القنّب الهندي. وعندما جاهره بذلك أخبره أنّه للاستعمال الخاص لصاحب المزرعة، ونصحه بعدم تبليغ ربّ عمله كي لا يحرجه. لم يدر هاني إن كان عليه أن يصدّقه. لكنّه كان الأمر الوحيد الذي أخفاه عن والدي إضافة إلى مشاعره تجاهي.

هدية 3

عادت هديّة ذلك المساء إلى البيت وهي تجرّ رجلًا وترخي أخرى من شدّة الإعياء والألم الذي فطر قلبها. جالت في شوارع وهران طولًا وعرضًا على غير هدى. لم تتمالك نفسها عندما رأت هاشمي مع حبيبته وهو يحميها بسترته من الأمطار بينما كانا خارجين من المستشفى. مشاعر مختلطة تنازعتها: الخيانة والإهانة والأسى وعبثيّة وجودها برمّته. استرجعت شريط حياتها. من تكون أمام تلك الأرستقراطية المثقفة، ابنة العائلة الثرية التي تفاخر بأعمام وأخوال وأقارب من الأطباء والمحامين والمهندسين وكبار التجار الذين لم تزعزع سنوات الجمر من مكانتهم بل زادتهم غنىً؟ بمن يمكنها أن تُفاخر؟ بزوجها اللعين ذي القدم بأصابع ستة الذي فضّ عذريّتها بنصره؟ أم بزوج أختها هند الذي لم يكفّ عن مراودتها عن نفسها حتى بعد زواجها؟ بأمها «الحاجّة» المزيّفة التي تجاهلت تلميحاتها بخصوص تحرّش أبيها وصارت تغار منها بدل أن تحميها، أم بهبيرة التي كانت ترى فيها شبابها وتريد من خلالها أن تحقق ما لم تقدر على تحقيقه من نزوع جامح إلى الحرّية؟ وما هي هذه الحرّية بالنسبة إليها؟ التنكّر للتقاليد ومجابهة النّفاق بالكشف عن المستور والدّوس على المقدّسات؟ تلك المقدّسات التي لم يراعها أقرب الناس إليها. أم الانتقام من احتقارٍ وكراهيةٍ معلنة لجنس النساء برمّته؟

ما الذي فعلته بحياتها؟ انقطعت عن الدراسة قبل أن تكمل الطور الإعدادي. وخرجت مع أول شخص اشترى لها زجاجة عطر «بلوم

بلوم». وتبعه آخرون لم يشتروا لها شيئًا، بل كان من قايضها بالعنف اللفظي وحتى الجسدي الذي لا تزال آثاره ندبات سجائر أُطفأت فوق إليتها اليمنى. ماذا عساها أن تتذكّر؟ سهرات العربدة في الشقق المشبوهة، وهي لم تزل بعد مراهقة مع من يكبرونها بعقود، تحتسي «لانيزيت» حتى تغيب عن صوابها، أم تواريها خلف السّوق البلدي لاكميل أو حلبة الطّورو مع أي أزعر هائج يغمز لها؟ وتعود إلى البيت لتسمع أن أمّها قد ذهبت عند خيرة الهواوية شوّافة الحْمري لإحضار خلطات جهنّمية، علّها تعيد بها زوجها الغارق في أحضان هبيرة في مْدينة جْديدة، أو عند أيّ مومس أخرى، أو علّها تقتله ببطء وهو ذروة المبتغى. بينما تكون هالة في تلك الأثناء -هكذا فكّرتْ- تراجع دروسها في فيلتهم الفخمة بحي سانت أوبير، وخادمتها تحضر لها القهوة بالحليب و«الميل فوي» على صينية ملبّسة بالفضة. وتنجح كلّ سنة بامتياز ليهديها والدها الطبيب عقدًا من اللؤلؤ أو من الماس، من يدري؟ أو يرسلها مع أمّها إلى باريس لتشتري عطورها وملابسها الفاخرة. كيف لها أن تجاريها؟ لا مجال أصلًا للمقارنة. امرأتان يباعد بينهما كلّ شيء، واجتمعتا على حبّ رجل واحد.

لكن، مهما كان الأمر، فهديّة لا تنوي التفريط بهاشمي. لأنّه الشخص الوحيد الذي يشعرها حين تكون معه أنّها تعيش، وتمارس الحبّ وليس البغاء. وكاد أن يبكي عندما رأى الندبات على إليتها اليمنى. أخبرته أنّها دمامل تقيّحت وجفّت، لكّنها لا تستطيع أن تكذب على طبيب في مثل هذه الأمور. كانت تشعر أن تلك الندبات تختفي حين يقبّلها الواحدة تلو الأخرى. هاشمي يَقْبَلُها دون إصدار

أحكام، وإن كان يفكّر بها في سريرته فهو لا يعلنها على أي حال. هاشمي هو من ألغى كلّ الرّجال، وجعلها تمتلئ بكنز أنوثتها. وهو كلّ ما تملكه.

توقّفت هنيهة أمام باب الحوش، ومسحت ما تبقّى لها من دموع. لم تجب حماتها عندما دعتها لتناول العشاء، ولم تلحظ هُوَّارية الجالسة بجوار المايدة. دخلت مسرعة إلى غرفتها وأوصدت الباب خلفها. الغيرة أوقدت جمرًا في أحشائها. انطرحت على السرير بخبطة مسموعة وباغتتها نوبة من النشيج. سخرت في سريرتها من نفسها: كان لا يزال لديها من الدموع ما يكفي لغمر ليلة بأكملها بكلّ راحة. فمنذ أن تخشّع هواري صار يقضي معظم الليل صحبة حلفاء الشيطان يخطّ قوائم العزاء، وينظم نحيب الثكالى وعويل الأيتام.

ندمت أن صاحت في وجه هاشمي أنّ اسمه في قائمة المحكوم عليهم بالذبح. من تريد فعلًا أن تزهق روحه بيديها هي تلك الباهتة الملامح هالة. لا يزال اسمها يغيظها برنّته الأرستقراطية.

في الصباح، بعد خروج أم هوّاري للعمل، أخبرتها هُوَّارية أن هشام يريد اصطحابها إلى عيون الترك لقضاء سهرة الخميس في الاستماع إلى مغنية الراي الشابّة مختارية، ورجتها أن تأتي معها وتجد عذرًا مقبولًا لأمّها. فصدّتها هديّة من دون مقدّمات:

- نجي معاك؟ واشا اندير مع الغراوين[1]، نلعب الكارطا؟

- يرحم بوك، قولي لذاك الطيب يجي معاك.

---

[1] الصغار.

لمعت الفكرة في ذهن هدية، ستكون مناسبة لإعادة المياه إلى مجاريها، فهي لن تصبر طويلًا على القطيعة، وستقنعه بأنهما سيقومان بذلك لدواعٍ إنسانية: مرافقة عاشقين صغيرين في بلدٍ يحرّم العشق.

توقّعت أن يعاتبها على الهاتف على موقفها السخيف أمام الملأ. لكنّه لم يُلمّح إلى الأمر وكأنّه لم يحدث. طلب منها اسم الملهى، وضرب لها موعدًا قرب المستشفى على السادسة والنصف مساءً. تزيّنت كما لم تفعل من قبل، وتحممّت بقارورة عطر صبّتها على كلّ بدنها. هذه الليلة ستعيده إلى مربطها خارًّا طائعًا. وأطلقتها عبارة مسموعة:

- الليلة نجيه يحبي على ركايه، وموتي يا «بنت الآوآو».

لكنّ «بنت الآوآو» لم تمت، الذي مات شرّ ميتة هو هشام حبيب هُوَّارية الأول والأخير. قُتل خطأً، لأن المقصود كان هاشمي حبيب هديّة الأول وربّما الأخير.

حزنت كل أحياء اكميل وبيتي ومدينة جديدة، وحتى رأس العين وكوشة الجير، على الشاب أخضر العينين الذي لم يفرح بنجاحه بمعدّل مقبول في الباكالوريا بعد تجربة ستين، والضليع في فن الارتطام-الاحتواء.

هاني 2

(هاني)

نزل عليّ الخبر كمخاض في الحلق. لم أصدّق أنّ أخي في الشقاء أو «الميزيريا»، كما كان يحلو له أن يقول، قد لقي هذا المصير الشنيع. ذبحوه من الوريد إلى الوريد، وفصلوا رأسه عن جسده. عندما ذهبت للتعرف عليه في مركز حفظ الجثث، كانت يد غير خبيرة قد أخاطته من عنقه فبدت رقبته قصيرة مزرورقة. لم تكن على ثغره ابتسامة السكينة، كما يُروَّج عن المقتولين غدرًا في هذه الأيام. بل تغضُّن بين حاجبيه السوداوين انحبس فيه ألم وأسئلة كثيرة. ارتميت بجذعي على صدره البارد، وأجهشت بنحيب صامت حجّر الدمع في المآقي. لماذا أنت؟ أنا الذي يريد الموت ويسعى إليه. أنا من وُلد هرمًا تعشّش فيه سنون الآخرين. كيف لي أن أمضي إلى حتفي وأنا أخجل من موتك؟ هكذا؟ ذبحًا؟ كيف يمكن لهذا العالم أن يكون من دونك؟ كيف لعالم كهذا أن يكون أصلًا؟

أمسك الممرّض بخصري وأبعدني برفق عن الدُّرج الحديدي الذي يرقد فيه أخي، ثمّ أغلقه بدفعة من يده اليسرى. وددت لو كنت أنا في ذلك النعش المعدني. أخبرني أنّه سيسمح لنا بإخراجه حالما يعدّ الطبيب الشرعي تقريره. فجأة، لسعتني برودة المكان ووخزت خياشيمي رائحة الفورمول النفّاذة، فخرجت مهرولًا وسط عويل يأتي من آخر القاعة: دُرْجٌ حديديٌّ آخر انفتح على الفاجعة.

تهالكت فوق أوّل مقعد حجري في أحد الممرّات المشجّرة للمستشفى. صورة ذلك الشاب الوسيم المخيّط الرقبة كدمية محشوّة بالقشّ المبلل لم تفارق مخيّلتي. أهذا هو الفرق الذي يحدثه طلوع الأحد وعشرين غرامًا التي تزنها الروح على ما يزعمون؟ أهذه هي الصورة التي سأحتفظ بها لأخي إلى أن ألحق به؟ كيف يمكن لإنسان أن يقتل إنسانًا آخر لا يعرفه ولم يبادر بأذيّته؟ تكفير بالدّين أم تكفير عن ذنب؟ لابدّ وأن قاتله قد اقترف من الذنوب ما لا يُغتفر حتى يُكفّر عنها بهذه الوحشيّة. تملّكتني فكرة العثور على ذلك القاتل. أردت أن أنظر في عينيه وأنسلّ في تلافيف مخّه لاستخرج صورة أخي المندهش ربّما لأنّه يعرف ذلك القاتل. أزحت تلك الفكرة من ذهني تمامًا حالما تخيّلت أن يكون المجرم أحد إخوتي. وماذا لو صحّ ذلك؟ فلطالما سمعنا عن أولاد يقتلون آباءهم وأمّهاتهم إرضاءً لربّ جبّار اخترعوه، يقتات جثث الأبرياء ويرتوي بدمائهم. ربٌّ لا يُفصح عنه أيّ دين. قد يكون هوّاري، أو هوبل الفارمسيان أو أيّ واحد من شبّان الحوش الذين كبرنا معهم؟ على أيّ حال، أنا الآن في وضع لا يسمح لي حتّى بالتفكير. عليّ أن أذهب إلى قسم الاستعجالات لأرى ماذا حلّ بأمّي التي دخلت في غيبوبة عميقة. لم تصدّق الخبر حين رماه عليها من دون مقدّمات أخي الشنوي. ظنّت أنّها إحدى مزحاته السمجة. إذ كان من عادته أن يأتينا بأخبار مآسي الأقارب والجيران يبالغ في تضخيمها، وأغلبها من صنع خياله. ثمّ ينفجر ضاحكًا على قدر ردود الفعل المتوقّعة، لتتحوّل عيناه إلى خطّين يسيل من طرفيهما الدموع، ويجري خارجًا وهو يردّد:

- احشيتها لكم... احشيتها لكم[1]...

لكنّه في هذه المرّة لم يبالغ ولم يضحك، بل تسمرّ في مكانه والدموع تسيل من طرفي عينيه.

لم يستطع أحد في قسم الاستعجالات معرفة مكانها، فالحالات كثيرة والأطباء قليلون، يتغيّرون حسب أنظمة المناوبة ووتيرة الهجرة القسريّة. راقب حيرتي أحد الممرضين، فاقترب مني وهمس في أذني بفرنسيّة مكسّرة وكأنّه يفشي سرًا مهنيًا:

- إذا لم تجدها هنا وهي ليست في البيت ولا في الثلاّجة، فابحث عنها في غرف العناية المركّزة في الطابق الثاني.

ثمّ حدّق فيّ كمّن ينتظر مقابلًا نظير تلك المعلومة السرية الخطيرة. تجاهلته وهرعت إلى هناك ورحت أنظر عبر المربعات الزجاجية أعلى الأبواب إلى أن وجدتها في رابع غرفة.

كانت أشعة الشمس ترسل آخر أنوارها على صفحة وجه أمّي وتفرش على المكان أولى غلالات المغيب. اقتربت منها، وأمسكت يدها الموصولة بأنبوب المصل المعلّق على خطّاف الحامل المعدني. لم تُحرّك ساكنًا. تحسست جبهتها ثمّ أغمضت عينيّ ورحت أتلمّس تقاطيعها كما يفعل المكفوفون. لم تفلح السبعة والخمسون سنة في تغضين بشرة وجهها البضّة، على عكس ما فعلته مواد التنظيف في يديها. ثلاثون عامًا قضتها في غسل صحون المتخمين لكي تملأ صحون الأفواه الجائعة، والقطط الهزيلة أحيانًا. وها هو ذا فم يُغلق إلى الأبد.

---

[1] أكلتم المقلب.

أشياء كثيرة كنت أريد أن أقولها لها. لا أذكر أني تمرّغت في دفء حضنها وهي تشبعني تقبيلًا. لم يكن أحدٌ منّا يتقن تعابير المحبّة كما لو كانت ترفًا لا يليق بالفقراء. لكنّني أذكر كم كانت تتفنّن في صنع طاجين الخرشوف بلحم الضأن الطري والحمّص لأنّها تعرف أنّه طبقي المفضّل. وتطبخ لهشام البركوكس بالكروية والفلفل الحار كل يوم جمعة، لأنّه لا يستسيغ أكلة الكسكسي الأسبوعية. فيأكله وهو يتلمّظ وينظر إلينا متشفّيًا. وعندما يحتجّ إخوتي الصغار، تسكتهم بعبارة لا تملّ من تكرارها:

– ولدي زاد نهار الجمعة، وكلّ جمعة ندير له السبوع...

لكننا لن نحتفل بالسبوع بل بالأربعين. ويشاء القدر أن يُدفن يوم جمعة. أمّا أنا، فدفنت وجهي في صدر أمّي ورحت أناجيها من بين دموعي: «تريّثي أرجوك، لا ترحلي. أمهليني وقتًا لأواسيكِ وأواسي نفسي. لن أدعك تعملين بعد اليوم وسأشتري لك غسّالة صحون كتلك التي تحلمين بها... سأشتري لك مرهمًا مرطبًا لليدين... أعرف أنّك تسمعينني... أرجوك لا ترحلي... سيُقفر العالم مرّتين إن أنت رحلتِ.»

رفعت رأسي، فرأيت ما خُيّل إليّ أنها ابتسامة على ثغرها. خجلت من سذاجتي. ليس ذلك ما أردت قوله. على أيّ حال، ما نفع القول إذا فات أوانه.

هاشمي 3

(هاشمي)

لم يكن ما صاحت به هديّة في ذلك اليوم الماطر مجرّد وعيد، بل تهديد حقيقي أكّده لي التنظيم. وعندما خابرني في الملهى رفيقي في التنظيم بوزيّان قائلًا: «اُهرب بجلدك»، لم أتوقّع أن يد البطش ستطال ذلك الشاب المسكين. حزنت لمقتله. وتراكم الحزن فوق أحزان أخرى على أصدقاء وزملاء اغتيلوا بأبشع الطرق. أدهشتني اللامبالاة التي قابلت بها هالة الخبر. كما لو كان من عاديّات الأحداث أن ينحر شاب في مقتبل العمر. ما أدهشني أكثر هو ردّة فعلها حين أنبأتها بأنّني كنت أنا المقصود. اكتفت بأن نظرت إليّ مليًا كما لو كانت تريد أن تتحقّق ممّا قد يحدثه بها اختفائي إلى غير رجعة. الأرجح أنّها وجدت الأمر محتملًا، من السرعة التي غيّرت بها الموضوع.

صديقي الجرّاح مراد هو من خاط رأس الفتى إلى بدنه. ومع أنّه من أكبر اختصاصيي الدماغ في المنطقة الوهرانية كلّها، إلّا أنّه أسرّ لي وعيناه مغرورقتان بالدموع، بالرعشة التي تنتابه وهو يرتق أشلاء الأبرياء. وانبرى وهو يمسك رأسه بكلتا يديه:

– أنا لست خيّاط جثث. أنا طبيب وباحث في الدماغ والأمراض العصبية. المفروض أن أعالج الأحياء... الأحياء يا هاشمي... لا أن أرقّع القتلى.

ضممته إلى صدري، وربّت على كتفه. حركة لا أذكر أنّي قمت بها مع أحد من زملائي أو أصدقائي. لم أجد ما أقول لمواساته.

أعرف أنّه رجل متديّن من مواظبته على الصلاة، وقد يكون من أصحاب: «إن صحّ قولكمُ فلست بخاسر... أو صحّ قولي فالخسار عليكمُ». لا يتعاطى أيّ نوع من المعاصي. ليس من فرط تقوى فقط، بل من شغف لا يُحدّ بالعلم. أبحاثه الرصينة تتلقّفها أشهر المجلاّت العلمية. وحين يهنّئه الزملاء على إنجازاته يردّد ضاحكًا العبارة التي علّمته إيّاها لشاعر عربي لا أتذكّر اسمه: «حفظت شيئًا وغابت عنك أشياءُ». وهي عبارة تلخّص تواضعه بالفعل. دخل معي في التنظيم دون أن يجد في ذلك تناقضًا مع معتقداته. فالعدالة الاجتماعية في نظره هي الهدف الأسمى للأديان مجتمعة. وعرفت من زوجته بعد اغتياله أنّه انكبّ على دراسة الفقه وعلوم الدين، وكان يجتمع بعد صلاة الجمعة برهط من المصلّين يناقشهم فيما توصل إليه بفكر علميّ بعيد عن الشطط انطلاقًا من إيمانه الراسخ. كانت تحكي بحرقة وولداهما متشبّثان بثوبها وكأنّها تحاول عبثًا إيجاد مبرّر لمقتله. ثم أعطتني مصنّفًا سميكًا قرأت على صفحته عنوانًا بالفرنسية:

– Le coté jardin de l'Islam أي «الوجه المضيء للإسلام».
استغربت لهذا العنوان، وكأنّ صاحبه يفترض وجود وجه مظلم. وقالت وهي تمسح دموعها: «لم يكن يثق بأحد سواك».

قضّيت الليل بأكمله في قراءة المصنّف الذي لم تكن أبوابه سوى تعداد للقيم الإنسانيّة النبيلة مقرونةً باستشهاد من القرآن فقط دون الحديث. حيث ذكر في مقدّمة مخطوطه بين قوسين «ما دُوّن بعد ما يفوق القرنين لا يُعتدّ به»، وكأنّها ملحوظة مرشّحة للحذف. أدهشني أسلوبه الرائع في الكتابة، وتوثيقه لكلّ معلومة من جهابذة الفقهاء

والفلاسفة واللغويين والمؤرّخين. يخاطب الأذهان من موقع علاّمة متواضع يحترم قصورها. وبدت لي كتاباتي كبيانات وجداول تفتقر إلى ركائز الواقع، وتتوجّه إلى النُّخب دون غيرها. أغلقت المصنّف وأنا واثق من أنّه لن يرى النور.

كنت أشعر بنفاد صبر مراد من التنظيرات الحزبية أثناء اجتماعاتنا. إذ كان غالبًا ما يقاطع المتحدّث وهو يفرك إبهاميه ببقيّة أصابعه، كما نفعل عندما نريد الإشارة إلى الدراهم: «ماذا علينا أن نفعل بشكل ملموس... ملموس؟» وكان سي «هجّام»، رفيق آخر يعمل حمّالًا في الميناء، يتندّر عليه ويكرّر وراءه مقلّدًا حركاته: «ملموس... محسوس... عندك الحقّ».

صحيح أنّ الأزمة اضطرّت الكثير من زملاء المهنة إلى الهرب للضفة الأخرى من المتوسّط. نزيف الأدمغة طال جلّ القطاعات، وعلى الخصوص الجامعات والمستشفيات. لم يبق سوى من ليس له خيار آخر، أو المستفيد من الإرهاب، أو أمثالي ومنهم زميلي الجرّاح مراد ممّن يرفضون الرحيل. كانت تلك الفكرة من بين أسباب الخلاف التي أدّت إلى القطيعة بيني وبين زوجتي، إضافة بالطّبع إلى علاقاتي النسويّة التي تخمّنها ولا تقدر على إثباتها لحرصي الشديد على التستّر والكتمان. جاء فاعل خير ليخبرها عن علاقتي بهالة، لكنّها لحسن الحظ لا تعرف أيّ شيء عن هديّة. أفضّلُ هذا. لأنّها ستجدها مسوّغًا لتذكيري، كلّما سنحت لها الفرصة، بالفارق في المستوى الاجتماعي بيننا. كما أنّ علاقتي بهديّة تجعلني أخجل، بشكل أو بآخر، من هذا النوع من الميول لديّ. قد يكون مقتي الشديد

للنفاق الذي خبرت كلّ تفاصيله في طفولتي المبتورة هو ما شدّني إلى تلك المرأة الشفّافة في كلّ شيء: في بشرتها البلّورية التي أكاد أرى انعكاس صورتي عليها، في صفاء ذهنها الذي يمنحها رجاحة قلّما وجدتها في أقراني من المثقفين ببساطة غنيّة عن التنميق، وفي أقوالها المباشرة التي لا تعرف الالتواء، وأخيرًا في سوقيّتها التي تجعل منها نتاجًا أصليًا لمجتمع متآكل المرجعيّات. كم كنت أتمنّى أن أشبهها في تسمية الأشياء بأسمائها، وفي تعرية المستور بتذريعة الواثق. لكنّ ذلك يتطلّب شجاعة أفتقدها، لأنّي أخاف من المواجهة أيًّا كانت. لم أواجه أمّي عندما شتّتتْ إخوتي كلّ في مكان وأودعتني لدى جدّتي لالاّ مينة في العامريّة ولا حتّى بالبكاء. ولم أواجه أستاذي في السنة الأولى من كليّة الطب الذي اتهمني بالغش حين قدّمت ورقة امتحان خالية من الأخطاء. ودخلت في التنظيم لأنّه سرّي وشعاره عدم المواجهة. حتّى أنّني لم أواجه الشخص الذي اعتدى على زوجتي لسرقة محفظتها، ورماها أرضًا في الشارع أمامي ومضى وهو يرميني بأقذر الشتائم. أمّا زوجتي فقد رفضت حينها يدي الممدودة لإنهاضها، ولسعتني بنظرة أرفقتها بعبارة قالتها ربّما لنفسها: «ماشي راجل». لم تُحدث هذه الجملة أيّ تأثير في نفسي بل برّرتها بأنّي قبلت بها زوجةً على محدودية فكرها، فلتقبلني على محدودية رجولتي، إن كان هذا معيار الرجولة فعلًا.

لا أنكر أنّي فرحت عندما اكتشفت لدى عودتي مساءً إلى البيت منذ شهرين أنّها جمعت حوائجها وأخذت ولدينا إلى بيت أهلها في سعيدة. لم أذهب لإرجاعها كما تقتضي العادة. جاءني أخوها

ليسألني ماذا أقرّر. قلت له بكلّ بساطة: «هي تقررّ». وقررّتْ ألّا تعود. لم يمض وقت طويل حتّى سافرت إلى فرنسا لتستقرّ عند أختها في باريس. اتصلت بي لتطلب منّي اللحاق بها إلى هناك والعمل في المستشفى الذي تعمل فيه أختها ممرّضة، مع أنّها خرّيجة كليّة الطبّ في وهران، وكانت قد باشرت تخصصها في الأمراض العقلية.

رفضت طلبها طبعًا. لماذا أقول طبعًا؟ ما الذي يربطني بهذا البلد أصلًا؟ لماذا أبقى رغم كلّ الأخطار المحدقة؟ ربّما لأنّها أخطار افتراضية إلى أن تتحقّق؟ الناس يموتون كلّ يوم في المستشفى وخارجها من دون فعل فاعل بخلاف المرض أو الأجل. هل أخشى أن أواجه هناك المجتمع الذي أحلم به وأناضل من أجله هنا، والذي بقي عالقًا في ذهني من أيام المدرسة الابتدائية في العامريّة، ومعلّمي الفرنسي الذي علّمني كيف أفكّر؟ أم أخشى أن تكون أفكاري التي لا أشكّ في تميّزها قد تجاوزها الزمن؟ أو أن تكون تنظيراتي لكيفية خروج المجتمعات من التخلف التي أخطّها كل يوم في شقة لاباستي طوباوية لا تمتّ إلى الواقع بصلة؟ كمَن يحلم بمدينة فاضلة ولا يرى الهوة السحيقة التي تفصل بينها وبين ذلك الواقع.

ذات مرّة قرأت هالة بعضًا من أوراقي المتناثرة فوق الطاولة، فقالت بنبرة شبه ساخرة:

- هذه أمور جدّية للغاية: تطوّر المجتمعات، الحداثة.. التحديث.. عوامل التنمية...

لملمتُ الأوراق بسرعة، وقلتُ بصوت يكاد لا يُسمع:

- مواضيع أبدّد بها السأم.

بعد برهة صمت، جاءني صوتها من الحمّام وهي تضع أحمر الشفاه على شفتيها الورديّتين:

- ولماذا لا تكتب في الطبّ؟

- الطّب؟ وعمّا أتكلّم؟ الآخرون قد اخترعوا كلّ شيء، وما علينا إلّا التقليد.

بالفعل، «التقليد هو السبيل». تذكّرت هذه العبارة التي قالها لي معلمي الفرنسي في المدرسة الابتدائية. كان عليّ أن أصنع مجسّم مزرعة بالورق المقوّى. لم أكن فالحًا لا في الرسم ولا في الأشغال اليدوية. وما أعرفه من مزارع لا يتعدّى كروم العنب المسترسلة على مدّ البصر المحيطة بيت جدّتي. مجسّمي كان أسوأ نموذج في القسم. لم يعنّفني المعلّم، بل أخذني من يدي واتّجه بي إلى أجمل المجسّمات التي صنعها التلاميذ وقال: «قلّد هذا». بعد أسبوع، جئته مزهوًّا وأنا أحمل مزرعتي المرصوصة فوق صفيحة رقيقة من الخشب. لم تكن كمثل أفضلها، لكنّها كانت درسًا لن أنساه ما حييت. إذا كنّا لا نعرف، فلنقلّد. من هنا جاء اهتمامي بنسق التغير الاجتماعي والاقتصادي التي أثبتت نجاعتها والتي أحاول أن أقنع بها الرفاق في التنظيم. لكن لا حياة لمن تنادي. سوّدت العشرات من الصفحات التي لم يقرأها أحد ولا أنوي نشرها، وقرأت ما يعادلها كتبًا في التاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد... رأسي يعج بالنماذج، ليست نماذج لمزارع هذه المرّة، بل لمجتمع يمكنه أن يسير بخطى غير متعثّرة نحو التقدّم.

ثمّ، فاجأتني هالة بسؤالها:

- إذا كنت لا تكتب في الطبّ فلمن تكتب إذًا؟

لم أجد ما أجيبها به.

هالة

(هالة)

لا أنكر أنّي أشعر ببعض الحرج الممزوج بشيء من الإهانة عندما يصحبني هاشمي إلى شقته الوضيعة في سوق لاباستي. شقّة مظلمة في الطابق الأرضي من بناية متآكلة، ذات غرفتين بنوافذ مغلقة دومًا، وحمام من دون تهوية تعلو جدرانه طحالب العفن وبقع الأوساخ. لكنّها مع ذلك قد تكون المكان الأنسب للقاءاتنا الحميمة، فهي تقع في حيّ شعبيّ ومن رابع المستحيلات أن يتقفّى أثري أو يراني واحد من أفراد عائلتي أو معارفنا الكثر. فهم لا يخاطرون في مثل تلك الأماكن، ولا يتسوّقون إلّا في سوق «ميشليه» المغطّى، الواقع في وسط المدينة الراقي والذي كان حكرًا على المعمّرين الفرنسيين في الماضي. زوجة أخي مثلًا تتسوّق في مرسيليا كل أسبوع لأنّها لا تحتمل رؤية حديثي النعمة والبسطاء يرتادون هذا السوق العريق. غير أنّي كنت أنسى قذارة الشقّة بمجرّد أن يحتويني هاشمي بين ذراعيه، ويرميني برفق فوق سرير النشوة.

بعد وفاة والدي، وانتقال عائلتي من تلمسان للعيش في وهران تغيّرت أحوالنا، وتغيّرت معها حياتي. اكتشفنا أنّ لأبي ثروة طائلة، وهو الذي كان لا يكفّ عن الشكوى من أن الطبّ المجّاني لم يترك مرضى لأصحاب العيادات. أذكر أنّه كان يحمل دومًا محفظة جلديّة تكاد أن تفزّر من الوثائق المكدّسة فيها. يضعها تحت سريره عند

نومه. وجدنا فيها عقود ملكية لعقارات وقطع أرض في تلمسان ووهران وتموشنت وحتىّ الجزائر العاصمة وأليكانت. إضافة إلى حسابات بنكية ووصولات سلف ورزم من النقود بالدينار والعملة الصعبة. كما عثرنا في خزانته الحديدية على حزم مرصوصة من الأوراق النقدية ذات الخمسمائة والألف دينار، قضّى أخي ليلة كاملة وهو يعدّها. في حين لم تكن خزانة ملابسه تحوي سوى ثلاثة بدلات وأربعة قمصان وخمسة سراويل مع حذاء واحد مهترئ وآخر جديد في علبته. على الرغم من علامات الحزن التي أظهرها الجميع في المأتم أمام المعزّين، إلّا أنّ أفراد العائلة ابتهجوا في سريرتهم لوفاته، خاصّة أميّ التي ملّت من طلب العون من أسرتها الثرية لمجاراة المظاهر الاجتماعية من حليّ وملابس ترتديها في المناسبات وحفلات الأعراس والختان. وأخي الذي يكبرني بعامين وتربطني به علاقة وطيدة ويسمّيني «بيرسي»، وهي اختصار لـ«بئر السّر». فقد أجبره والدي على دراسة المحاسبة في حين أنّه كان يريد الانتساب لمدرسة الفنون الجميلة. أذكر كيف انتفض والدي حين أعرب أخي عن رغبته، وصاح في وجهه:

– ماذا؟ الفنون الجميلة؟ تريد أن تصبح «زاوّق[1]»؟

وحمّل الكلمة الأخيرة التي لفظها باللهجة الدارجة كلّ ما أمكنه من الاستهزاء إمعانًا في التحقير. ثم أنهى ما لا يمكن تسميته بالحوار بحكم قاطع:

– ستدرس المحاسبة.

---

[1] دهان.

لم يندم أخي على دخول كليّة التجارة، فقد استفاد منها في دخول عالم الأعمال. وفتح محلاً كبيرًا في ضواحي وهران ما فتئ يوسّعه. يبيع فيه كل شيء من الألبسة إلى الأغذية والعقاقير وحتّى المفروشات المستوردة. وحين نتحدّث عن التجارة هنا فالمقصود هو تلك التي لا تخضع لأيّ ضابط. يحيّرني التناقض أو ربّما المفارقة في تفكير أخي. فهو من جهة يتبنّى أفكارًا تقدّمية لدرجة الانضمام للتنظيم وحضور اجتماعاته، كما أسرّ لي حين عرّفني على رفيقه «هاشمي» عندما كنّا نشرب قهوة في كافيه ريش بوسط وهران، وفوجئ بأنّه زميلي في كليّة الطب كما فوجئت بأنّه رفيق أخي. ومن جهة أخرى لا يتحرّج من التعامل مع المهرّبين وعقد صفقات مشبوهة مع القائمين على البنوك الوطنية التي لا يأتمنها على أرباحه. بل كان يبرم جلّ تعاملاته بأكياس بلاستيكية سوداء مليئة بالأوراق النقدية. ربّما لأنّ المحسوبين على التنظيم في ذلك الوقت كانوا في غالبيّتهم من صفوة المثقّفين في المجتمع، وهو يريد جمع المنزلتين: التقدّمي والرأسمالي. ليصبح في نهاية المطاف انتهازيًا بامتياز. وهو في الواقع ما مكنّه، في هذا الوقت من انعدام الأمن والرقابة، من اللعب على الحبلين وملء حاوياته بالسلع المهرّبة والأسلحة الفتّاكة أحيانًا.

كنت في تلك الفترة أخرج مع طبيب تخرّج من جامعة مونبولييه. يحضّر تخصصه في الجراحة العامة في جامعة وهران لأنّه لم ينجح في امتحان التخصص هناك. لم تكن تربطنا خطبة رسميّة. لكنّ اتفاقًا ضمنيًا بين أسرتينا المختلطتين في النسب جعلته يتصرّف معي وكأنّنا كذلك. رجل ضخم الجثة ذو سحنة أوربية، لا يتكلّم إلّا بالفرنسية

وفيه من العنجهية ما لا يمكن وصفه بالأرستقراطية. لا يخالط أحدًا من زملائه ويتعالى عن مدّ يده لمصافحة أحدهم. وحين يضطرّ، يسحبها بشيء من القرف هامسًا في أذني:

– Des paysans...Tous des paysans...[1]

ومرّةً أسرّ لي بشيء من الاعتزاز بأنّه اختار تخصص الجراحة حتّى لا يمسّ المرضى ويشتمّ روائحهم القذرة، بل يكتفي بتجريح وتشريح أعضائهم.

كان ينتمي لعائلة تضاهي في ثرائها المريب عائلتي. يأتي أحيانًا ليأخذني من المستشفى بسيّارة مكشوفة فارهة، ويخرج منها ليفتح لي الباب بانحناءة مبالغة تُسدل الغرّة الشقراء التي يموّه بها صلعته. وكان يرى فيّ زوجة المستقبل المثالية، ويؤكّد على ذلك بصوته العريض، وبثقة قارئ الغيب:

– أنا وأنت، ننتمي لعالم واحد، سأفتح مستشفى وعندما تتخرّجين تعملين معي. وإذا أنجبنا أطفالًا...

يتوقّف هنيهة ثم يضيف:

– لا أريد أكثر من اثنين، ستتركين العمل للاهتمام بشؤون الأسرة. سأعيّن لك مربيّة بالطبع لتساعدك، دون أن أنسى الخادمة، والطبّاخ لابدّ أن يكون حائزًا على شهادة «شيف».

وبينما هو يسترسل في وصف المنزل الكبير الذي يملكه في الكورنيش، وآخر في سانت أوبير وثالث في برشلونة. تحضرني

---

[1] فلّاحون... كلّهم فلّاحون...

صورة هاشمي بتواضعه الرصين وتهذيبه غير المتكلّف. نسخة عكسيّة تمامًا... ما عدا الرائحة. لهاشمي رائحة خاصة، نفّاذة أحيانًا. لم أكن أستشعرها في بداية لقاءاتنا الحميمة. بل كنت أشتمّ فيها أريج اللّذة. فقد كان عاشقًا رائعًا يغمرني بحبّ يتعدّى حدود الوصف. لست أدري الآن إن كنت أجاريه في ذلك. لكن ما كنت واثقة منه، هو انبهاري بمعارفه الواسعة في الطب التي تثير غيرة أساتذتنا وتحاملهم أحيانًا. كما لو كان في حياة سابقة قد درس كل الفروع الطبية. معرفة لا تضاهيها سوى ثقافته الموسوعية. كنّا نتطرّق إلى شتّى المواضيع، من التاريخ إلى الموسيقى إلى الفن...

كان محدّثا يشحذ الذّكاء ويعيش وحدة الأذكياء.

تغيّرت نظرتي له حين اكتشفت علاقته بتلك المرأة التي اعترضت طريقنا وصاحت مهدّدة والشرر يتطاير من عينيها: «اسمك في القائمة». وهي عبارة ترهب سامعها أيّا كان القائل. ثم توجّهت نحوي وقالت بحنق لم أفهمه بأنّها ستكفّل بأمري بنفسها. التفت صوب هاشمي أستفهمه. التزم الصمت. ألحّيت، فأجاب باقتضاب:

- أعالج أمّها.

- أمّها؟ وما دخلها هي؟ وما علاقتي أنا بالموضوع؟

كان هاشمي واثقًا من أنّي لم أصدّق تبريراته الواهية. أمّا أنا، فقد وجدت نفسي أمام نزال لا أرضاه، ومقارنة تثير اشمئزازي. هل يعقل أن تكون له علاقة بامرأة سوقية كتلك؟ هذا النّمط من البشر لا ألتقيه سوى في المستشفى من منزلتي كطبيبة، وأحيانًا في البيت حين أضطر للتعامل مع الخادمة في غياب والدتي.

عدت إلى البيت في ذلك اليوم وأنا أشعر بثقل في قلبي وبدني، كما لو أنّي غطست في بركة من الوحل. دخلت مباشرة إلى الحمّام وتركت شلاّل الماء الدافئ يزيل شيئًا فشيئًا بقع الطّين الوهميّة ويعيد لبشرتي صفاءها. غير أنّ ما لطّخ كبريائي لم يجرّده الماء من الدّنس. لازلت أحسّ بذراع هاشمي يرتعش فوق كتفي وكأنّ حصنًا منيعًا من حصونه قد تهاوى فجأةً. لم نلتق بعد تلك الحادثة. وصرت أتحاشى نظراته الملحّة أثناء الجولات اليومية للمرضى مع رئيس القسم. وكلّما حطّت عينايَ عليه، أتخيّله مع تلك السّاقطة، فتتسرّب برودة تجمّد مشاعري.

لم أتصوّر لحظة أنّ هذه المرأة التي لا أعرفها ستنفّذ وعيدها. مرّ كلّ شيء بسرعة خاطفة. كان يومًا حارًا كتلك الأيّام التي تهرب فيها العصافير من الأشجار، ويهيج الذباب المتجمهر حول نفايات المستشفى. بينما كنت أهمّ بركوب سيّارة خطيبي، وإذ بها تهجم عليّ وبيدها قارورة لمعت تحت شمس العصر. لا أذكر سوى يد دفعتني وأسقطتني أرضًا وسائل لهّاب يحرق أصابعي.

الندوب التي خلّفتها الحروق على يدي كانت أشدّ أثرًا من نبأ اغتيال هاشمي.

هبة 3

(هبة)

سافر هاني. تلاشى دون سابق إنذار. سبعة أشهر مرّت من دون أيّ إشارة. وصلني الخبر من آخر من كنت أتوقّع أن يأتيني به. أثناء زيارتي الثانية لهُوَّارية التي قمت بها بعد كثير من التردّد. أصرّت على دعوتي لشرب فنجان من القهوة. قبلت على مضض لأنّي لست من شاربيها أساسًا، ولأنّي جئتها لكي تصحبني إلى سي هنّان مقدّم زاوية سيدي يوسف لكي أستخبره عن طقوس المواسم والحضرات، وعن مخطوط «الياقوتة» على الخصوص. لكنّها حين هممنا بالخروج، استوقفتني كمَن تذكّر شيئًا وقالت:

- أعطيني يدك اليمنى.

وقبل أن تسنح لي فرصة الإجابة، كانت قد أمسكت بها وسحبتني إلى غرفة الجلوس ثانية. أغمضت عينيها ويدي لا تزال في قبضتها، وراحت تتمتم بتعويذة لم أتمكّن من تبيّن فحواها، ثمّ راحت تحدّق في راحة يدها اليسرى باستغراق شديد وتذكر أسماء لأشخاص أعرفهم، منهم أبي وبعض إخوتي ومربّيتي، وحتّى جدّتي هاجر التي لا يكاد يعرفها أحد ما عدا مربّيتي. استدارت نحوي ونظرت إليّ مليًا كما لو كانت تريد أن تستقرئ ملامحي وتطابقها مع وجه تعرفه جيّدًا. ثمّ استأنفت في ترديد الأسماء إلى أن توقّفت بعد ذكر اسم هاني وسألتني:

- اشكون هاني؟

ارتبكت وتلعثمت:

- واحد... شاب... واحد يخدم عند ابّا...

التزمت الصمت لبرهة، ثمّ أضافت:

- قْطع البْحر...

لم أفهم، وأردت أن أستوضح، غير أنّها فاجأتني قبل أن أصوغ سؤالي بلهجة قاطعة:

- سافر وما يزيدش يولّي.

لم أدر وقتها إن كنت قد صدّقت ما قالته أم لا، فأنا لا أؤمن بالشعوذة ولا بالخزعبلات، لكنّ الخبر، وإن كان على لسان عرّافة، فقد نزل عليّ كسيخ من نار ألهب أحشائي وكدت أفقد رشدي.

لا أذكر كيف خرجت، وكيف أدرت مفتاح السيّارة ولا كيف وصلت إلى البيت.

بأيّ كلمات أصف حزني ووحشتي؟ أيّام وليال طويلة مرّت بطيئة، يزيد من رتابتها الأوقات الخمسة التي أصرّت مربّيتي خالتي بختة على أن أصلّيها معها. لم تكن لي القدرة على الاعتراض. كنت أرافقها بحركات آليّة تفتقر لأدنى درجات الخشوع. ربّما كانت على حقّ، لأنّي فقدت كلّ إحساس بالزمن وبالعالم. وتعاظمت نقمتي على ذلك الإله الذي حرمني من حنان أمّي، ومن أبٍ أشدّ به ظهري ويحميني، وها هو يحرمني من حبّي وسندي الأخير. كان لا بدّ لي من مغادرة سريري من حين لآخر، لأنّ رغبتي في الموت كانت أقوى

بكثير من نفحات الورع المباغتة التي كانت مربيّتي تحاول بثّها في نفسي المستقبلة من الحياة. لا أدري كم بقيت على تلك الحال. لم أمت، لكن مات فيّ كلّ شيء.

ثم قررت ذات يوم أن أخرج بنفسي لأتحقق من صحة ما رمتني به هُوَّارية، مع قناعة شبه أكيدة بصدق الخبر. لم أعد أطيق حالة الشكّ. كنت أريد أن اقترب من المكان الذي شهد ترعرع هاني بين ذويه وجيرانه، والذي يشهد الآن غيابه. بدت لي السفرة من سعيدة إلى مدينة الباهية وكأنّها رحلة إلى الفضاء الخارجي. ما عانيته من ألم ربّما كان لأنّي لم أتقبّل فكرة فقدان هاني بهذه الطريقة، أن يهاجر دون أن يودّعني، أو حتى أن يعتذر عن ضعفه واستهتاره بمشاعري. تحوّلُ ألمي إلى غضب هو ما جعلني أغادر غيبوبتي اليقظة وألملم شتاتي. رغبة حارقة في معرفة الدّوافع والأسباب انتشلتني من الوقت المستقطع الذي غرقت فيه.

ركنت السيارة في أحد الطرق المتفرعة عن شارع وجدة. فضّلت أن أمشي كيما تتحسّس قدماي أحجار الأرصفة التي تخيّلت أن يكون هاني قد وطئها مرارًا. كان الجوّ صحوًا إلّا من بعض الغيوم الرماديّة المتفرّقة في هذا اليوم الشتوي البارد، وشمس ما قبل الظهيرة ترسل نفحات دفء تحمّله لهبّات خفيفة من النسيم. تذكّرت بأني لا أعرف عنوان الحوش الذي يسكن فيه. كان يمكنني أن أجده في عقود الملكية التي يحتفظ بها أبي في مكتبه. حاولت استرجاع بعض الإشارات إلى أماكن ذكرها هاني في معرض أحاديثه: السوق البلدي لاكميل... ميدان الطّورو... حانة كارنو... استبعدت هذا

المكان، إذ لا يعقل أن أدخل حانة لأسأل عن حبيبي. ثمّ، وكمصباح أضاء في ذهني هتفت: الصيدلية، بالطبع. حدّثني هاني عن بائع في صيدلية أصله من الجنوب اسمه هوبل. لكنّ هذا ليس اسمًا حقيقيًا بل مجرد لقب أطلق للتندّر والاستهزاء. مررت على جلّ صيدليات اكميل. وجدت ضالّتي في تلك الواقعة في الشارع المتفرّع عن ساحة «نوازو» وراء السوق البلدي. اقتربت من البائع طويل القامة وشديد السمرة وسألته إن كان يعرف شخصًا اسمه هاني، فأجابني وقد فتر فمه الكبير عن ابتسامة لزجة أظهرت أسنانه المصفرّة:

- كي سميتو؟ هاني؟ لا ما نعرفهش.

فرميت له بكل ما لديّ من معلومات:

- هاني خو هشام اللي قدم امتحان الباكالوريا هاد العام.

تفرّس فيّ مليًا قبل أن يميل برأسه نحو الأسفل ويتمتم بين شفتيه:

- الروجي؟ الروجي ولد هنّودة؟

لم أكن أعرف هنّودة، لكّن الروجي هي إشارة صريحة لهاني ذي الشعر الأحمر فقلت بحماس:

- واه ... واه...

أطرق الرجل هنيهة ثمّ طلب منّي أن انتحي جانبًا حتى ينهي تلبية طلبات الزبائن المنتظرين، كمّن يريد وقتاً يستجمع فيه فصول فاجعة ليخفف من وقعها.

في طريق عودتي إلى سعيدة، كان المطر قد بدأ ينهمر بغزارة لا تعادلها سوى غزارة دموعي. يا إلهي... دفن أخاه المقتول، ثمّ ما لبث

أن دفن أمّه المفجوعة. أي حبّ يستطيع الصمود أمام هذا الكمّ من القهر والغدر؟ أي رغبة ممكنة في الحياة أصلا.

آباش

(هبة)

تسع سنوات مرّت على غياب هاني. غيابه ألغى حضور الآخرين. ماعدا هُوَّارية. قرّبتنا الفجيعة والحرقة. هي توقّفت حياتها عند رأس هشام فراحت تهيم في حيوات النّاس، وأنا فارقتني الحياة عند رحيل هاني، فصنعت لنفسي حياة بين الكتب والمخطوطات. إلّا أنّني لم أحاول إطلاقًا استغلال مواهبها الاستشرافية لتقصّي أحواله، ولا هي ذكرت اسم هشام أمامي أو لمّحت إلى مشاعرها تجاهه. لكنّ خيالهما كانا ماثلين دومًا في حضرتنا. هي تراه في هشّوم، القط الهزيل أخضر العينين الذي جلبته معها من وعدة سيدي يوسف، وأنا أراه في كلّ صفحة مما أقرأ. ارتحت حين أقنعت نفسي بأنّي أخذت نصيبي من السعادة الغامرة التي لا تتكرّر، والتي بلغت سدرتها في آخر ليلة قضيناها معًا.

كيف لحبيبين لم يَخْبَرْ أيّ منهما مفردات العشق أن يلتحما في نوبة وصال شهيّة؟ وكيف لجسدين ألفا التحصّن والانكماش أن ينفردا ويسيلا كغديرين التقيا في فسحة عشب نديّ؟

مربّيتي شاخت. قلّت حركاتها وندُرت كلماتها. لكنّها كلّما حطّت عيناها عليّ تُتمتم: «الله يقّي الستر». أعتقد أنّها تعتبر بقائي عزباء إلى مشارف الأربعين أكبر إخفاق في حياتها. كما لو كانت مسؤولة عن عنوستي. خاصّة بعد أن رفضتُ عددًا من الخطّاب

الطامعين في ثروة أبي، وهؤلاء لا يعرفون بالتأكيد حرصه على تبديدها. إذ كان لا يفتأ يردد بمناسبة وبغير مناسبة: «ما تنفقه لك، وما لا تنفقه لغيرك.» إشارة ضمنية إلى أنّه لا يرغب في ترك إرث لوارث. لكن، حتى ذلك الإرث سيتقاسمه إخوتي الذكور. فالإناث عندنا لا يرثن عُرفًا. ينتابني أحيانًا يأس قاتل من إمكانية الإصلاح أيًّا كان شكله، ومن عبثية البحث عن طرق وسطيّة أو صوفية تُدخل العدل إلى الضمائر والسكينة إلى القلوب. كان هاني محقًّا في أنّنا لا نستطيع أن نبني على أسس متآكلة. يا إلهي... كم أنا مشتاقة إليه... أين هو الآن؟ هل التهمته حيتان البحر، كما كان يمازحني، قصد إغاظتي، وهو يتحدّث عن ميتته المفضّلة؟ أم أنّه يعاني البرد والجوع في غربة أقسى من غربته مع نفسه في وطنه؟ أتراه عثر على «ياقوتته» التي يكون، حسب ما كان يميل إلى الاعتقاد، قد خطّها «شمس الدين التبريزي» وحمّلها رقائق الحكمة الخالصة التي تستنير بها النفوس؟ أم تراه ينعم برغد العيش في حضن شقراء أنسته أريج العشب النّدي في براري سعيدة ورائحة الفلّ البلديّ في عنقي؟ أزحت هذه الصورة من رأسي في الحال ورفضت تصديقها. لا يمكن لإنسان مثل هاني الذي جعلني أعيش أعذب ليلة حبّ في تاريخ البشرية أن يعيد الكرّة مع امرأة أخرى. وإلّا لكانت العواطف والأحاسيس كلها هراء. مجرّد استنساخ لحالات ظرفيّة تتواتر مع تبدّل الأفراد. أين الصدق في كلّ هذا؟ وهل نحن، كما كان يمازحني هاني، كائنات غريزية تحكمها الهرمونات لا غير؟ طفرات من الأوسيتوسين مثلًا؟ يُقال بأنّ هذا الهرمون هو المسؤول عن الرابطة العاطفية لدى الإنسان والحيوان.

وماذا عن النبات؟ يُقال أيضًا بأنّ لديه إحساس يجعله يتفاعل ويتواصل مع محيطه وأفراد عائلاته. أتساءل لماذا تأتيني مثل هذه الأفكار. أهي رغبة في تبرير غيابه الطويل، وإقناع نفسي ببلاهة انتظار لا طائل من ورائه؟ لكنّي أعيش، رغمًا عنّي، أسيرة ليلة من أجمل الليالي وأقوى من أيّ هرمون. أتكون حالتي هي الاستثناء الذي يُثبت القاعدة؟ وهل يكذب العِلم؟ وحتّى لو عاد هاني الآن، هل ستسترجع علاقتنا سابق زخمها؟ هل بقيت أنا «أنا» وبقي هو «هو»؟

بقيت وحدي مع مربّيتي في البيت الكبير بعد وفاة والدي بسكتة قلبية في شقّته بشارع لوبيه في وهران التي تحوّلت إلى وكر للموبقات كما يقول إخوتي. ميتة أشبه ما تكون بالفضيحة. أحاول مسحها من ذاكرتي بكلّ ما تملّكني من خجل. يصعب على الأبناء تفهّم وضعيّات الأولياء ومنحهم صكوك الظروف المخفّفة التي تفتح سبل الغفران. أحاول أن أتشبّه بهاني في حلمه وسعة صدره، وأتذكّر كل ما قرأته من أدبيات الصوفية كي أزيح براثن الضّغينة ولا أستطيع إلّا لوقت قصير. حتّى هُوَّارية، عندما يطفح بي الكيل وأسلسل جامّ حقدي وسخطي أمامها، تمسك براحتي وتنظر إليّ ببراءتها المثيرة للشفقة، قائلة بما يشبه الهمس: «حتى غبينة ما تدوم». فتحلّ في نفسي سكينة غريبة، وكأنّها ترنيمة توارثتها أفواه القدّيسين والصالحين للثم الجراح.

هُوَّارية أيضًا لم تكن على أحسن حال. إذ بعد مقتل هشام اعتكفت في زاوية سيدي يوسف لمدّة تزيد عن السبع سنوات. أحاطها خلالها الشيخ هنّان برعاية أبٍ لابنته، وبنوع من العرفان لقدرتها على اجتذاب الزوار الأسخياء بفألهم الذي مكّنه من صيانة

الزاوية، وبناء ملحقات إضافية لاستيعاب الكمّ المتزايد من الوافدين. كما نغّصها أيضًا اختفاء أخيها هوّاري في ظروف غامضة في أواخر العشرية السوداء، وإن لم تكن تُكنّ له الودّ الأخوي المطلوب، لأنّه، كما قيل، كان ينشط ضمن جماعة إرهابية ويعمل مخبرًا لدى مصالح الأمن عن طريق أحد جيرانه في الحوش كان يعمل شرطيًّا. اكتشف أحد الطرفين أمره ليذوب كفصّ ملح في محيط. وهو ما دهور صحة أمّها وأقعدها الفراش. أمّا زوجة أخيها هديّة فقد زُجّ بها في السجن بعد اعتدائها على طبيبة تنتمي لإحدى الأسر التلمسانية النّافذة. لم أصدّق عندما روت لي هُوَّارية بأن زوجة أخيها رمت قارورة من روح الملح أو «النّار الحامية» كما تسمّى هنا، على وجه حبيبة عشيقها الطبيب. ولحسن الحظ أنّها أخطأته لتسقط ماء جهنّم على اليد التي احتمت بها. وعندما عَلِمَتْ بعد خروجها بأنّ عشيقها قد اغتيل فعلًا أمام المستشفى، هامت على وجهها كالمجنونة إلى أن غادرت وهران إلى غير رجعة.

لم يبحث أحد عن هديّة، وكأنّ غيابها راحة لمن عرفها. حتىّ أمّها الحاجّة هجيرة التي كانت مشغولة بفتح دكّان فخم للوازم العرائس في وسط مدينة وهران لم تبد كبير قلق لغيابها. ولم تعد تسافر بنفسها إلى دمشق لجلب البضاعة النسوية، بل وسّعت من رقعة نشاطها ليصل إلى إسطنبول، وصارت توكل ذلك إلى بعض النساء المعوزات أو الشباب العاطل عن العمل. وكانت بين آونة وأخرى تبتاع تذكرتين وتطير مع صديقتها وغريمتها السابقة هبيرة لقضاء فترة استجمام على السواحل التركية. هُوَّارية التي كانت تقصّ عليّ أخبارهم هي الوحيدة

التي لا تزال تستقرئ النجوم لمعرفة مصير هديّة. وفي كلّ مرّة تقول بلهجة متشكّكة كأنّها تُسائل قدراتها:

- ما راهيش في البلاد... ما نيش نشوفها هنا... بالصّح ما زالها حيّة...

كانت على ما أعتقد، علاوة على المودّة التي تكنّها لها، تغبطها على استهتارها بما يقول الناس، وعلى نمط الحريّة الذي اختارته لنفسها، تلك الحرّية التي حرمها منها «الأحوال» كما تقول. ربّما أنا أيضًا كنت أحدها. لا أنكر أنّي كنت عندما يطفح بي الكيل من هذا المجتمع ونفاقه أوافق هُوَّارية في سريرتي حين تبرّر سيرتها وسلوكها. مع أني كنت أشفق على تلك المسكينة لأنها لم تعرف شكلًا آخر للحرية غير الخروج عن الأعراف. لم يعلّمها أحد.

عندما عدت من وهران في ذلك اليوم الماطر محمّلة بيقين الغياب. هرعتُ إلى غرفة خالتي بختة لأرتمي في حضنها، فوجدتها مكوّمة فوق سجّادة الصلاة في وضعية سجود. لمستها فسقطت مائلة على جنبها. لم أكن قد جففت دموعي بعد فشعرت بها تتبخّر من هبّات ساخنة اجتاحت كياني، وصرخت:

- لا... ما تخلّيـنيش وحدي... حم بوك...

استلقيت بجانبها وعانقتها. نشيج أخرس هزّني وهزّها وهي بين ذراعي. أردتها أن تأخذني معها. تمنّيت لو أنّ الموت يأتي حين نتوق إليه. خاطف. هادئ. فتحت عينيّ في الظلمة. ماذا أفعل؟ حملتها ومددتها برفق فوق سريرها. كم كانت خفيفة. خلعت معطفي

وغطّيتها به. ثم اندسست بجانبها. كانت دافئة دفء حنانها. ورحت أدندن في أذنها قصيدة من الشعر الملحون التي علّمتني إيّاها.

لست أدري كم كانت الساعة حين اتصلت بأخي الأكبر. أبدى امتعاضه من مكالمتي المتأخّرة، وحين شرحت له، ردّ باقتضاب:

- اذهبي للنوم الآن، سأهتم غدًا بالجنازة.

هكذا، لم يبق لي سوى هُوَّارية، ولم يبق لهُوَّارية سوى أمّها التي تقبع على مشارف الموت، والحاجّة هجيرة أمّ هديّة التي انتقلت للعيش في عمارة شاهقة تطلّ على البحر في حيّ راقٍ من الأحياء الجديدة لوهران. تزور كلتيهما من حين لآخر بدافع الواجب. وتغيب في كلّ موسم من مواسم سيدي يوسف لشهر أو أكثر. تعمّقت محبّتي لها بعد أن عرفت أنّ صلة قرابة مبتورة كادت أن تجمعنا. كان يمكن لنا في عالم مثالي أن نكون زوجين لأخين، نتشاطر الأفراح والأتراح. وقد تغار إحدانا من الأخرى، ونتخاصم لأسباب تافهة كما يحدث في أغلب العائلات. وقد تتفاخر مَنْ تنجب ذكورًا على مَنْ تُرزق بإناث. أشياء بسيطة وعاديّة تصنع العيش الهانئ وتنثر برهات السعادة. لكن منذ أن خيّم شبح الخوف على هذا البلد الآمن لم يعد أيّ شيء عاديًا. والندوب النفسية التي قد تتفتّق عن صدور المبتلين لا يعلمها إلّا ربّ الكون. زادت تلك الفترة أيضًا من هجران النساء للأماكن العامّة. أنا نفسي بقيت أتحرّج عن الخروج بعد رجوعي من الجامعة. لكنّ أسبابي كانت مختلفة. فقد كنت أتلهّف للعودة من أجل الاختلاء بنفسي وبطيف هاني، أو للغوص في صفحات كتبي لأحاوره عنها. أو ربّما لأقرأ له بعضًا من القصائد التي أنظمها في هدأة

الليل. بدأت بكتابة الشعر الشعبي الملحون، من مخلّفات ما تركته فيّ مربّيتي خالتي بختة. لكن سرعان ما هجرته إلى نظم حرّ يعطيني فضاءً أرحب تملؤه موسيقى كلمات تستعصي على غير المُترع بالمعاني، وغير المثخن بالجراح. أو هكذا يُخيّل إليّ.

أحيانًا كنت أفكّر: ماذا لو عاد الآن؟ تخيفني الفكرة، فأزيحها. يعود؟ لمن؟ ولماذا؟ ليعيش مع أشباح المفقودين ويرى بأنّ الأمور لم تتغير كثيرًا، بل تغيّرت مظاهرها؟ وأنّ المكان الذي يحنّ إليه لا يزال مرتعًا للفقر والجهل؟ وطوابير «الحرّاقة» التي كان من عدادها ازدادت وتنوّعت؟ سيدخله ذلك قطعًا في غربة أعمق.

ارتعشت فرائصي عندما استلمت قبل أسبوع إشعارًا بوصول طرد بريديّ، خاصّة أني لم أكن أتوقع أن يراسلني أحد بعد مغادرتي للبيت الكبير وانتقالي للعيش في مزرعة الساقية الحمراء نزولًا عند رغبة أخي الأكبر الذي جاء بعد أن انتهت مراسم دفن مربيّتي، وقال بلهجة حاسمة:

- لا يمكنك البقاء هنا بمفردك. ستذهبين للسكن في المزرعة. خذي ملابسك وكتبك فقط، البيت مفروش ومجهّز بكل شيء.

أجبته بابتسامة من بين دموعي. رأيت في عينيه نظرة عطوفة لم أعهدها فيه. المآسي تحنّن القلوب ربّما. أو أنّه أراد أن يضمّ البيت إلى باقي التركة ويحرمني من الميراث. ثمّ ما لبث أن أضاف وكأنّه قرأ أفكاري:

- سنكتب مزرعة الساقية الحمراء ومرافقها باسمك.

كان يتكلّم باسم إخوته الآخرين. وظنّي أنّه تمكّن من إقناعهم بالفكرة، خاصّة أنّ لا أحد منهم يهتمّ بالزراعة وتربية المواشي والجياد.

أخّرني رحيلي إلى المزرعة عن الذهاب إلى مكتب البريد لاستلام الطرد. في الواقع، كنت أتوجّس ممّا يمكن أن يحمله من أنباء تعيدني إلى ماضٍ بطل مفعوله، وتقوّض كل ما بنيته من حجج ألبستها يقينًا من لفائف أحزاني. حياتي الآن مضبوطة بعقارب زمن افتراضي، يحدّه مكان لا أوجد فيه. لا أريد لشيء أن يأتي ليكسّر رتابة أيامي المفتعلة. في الماضي، كنت عندما تعصف بي الهواجس وأحسّ بأن قلبي سيهوي أرضًا، أركض إلى حضن مربّيتي خالتي بختة لأرميه في حجرها. أعانقها بكل ما لديّ من حرمان وغضب. فتتلقفني سنّيها الثمانين بما علق بها من حنان تلكّأ عن الرحيل. لكنها رحلت.

مما أنا خائفة؟ أمن فرط سعادة تختزنها رزمة ورق مقوّى؟ أم من تبخّر أمل أبقيه حيًّا بشتّى وسائل العناية المركّزة؟ هاني الذي عرفته تقمّصني. أرى الدّنيا بعينيه. وأسمع رنين الكون بكلّ حواسه. قد يكون غيابه أقلّ وجعًا من حضوره. لكن لم هذا الإصرار على محاربة ذاتي الطّالبة للحياة؟ هل أخشى أن أفقد ما تراكم من ألم؟ أم ترهبني الخيبة مما قد يؤول إليه الحضور؟

عبرت بخطًى وئيدة الطريق الضّيق المؤدّي إلى مركز البريد والمتفرّع عن الشارع العام حيث ركنت سيّارتي. غير عابئة بزخات المطر التي راحت تبلّل شعري وتتقاطر من رأس أنفي. كان المكتب فارغًا إلّا من بعض المسنّين الذين جاؤوا لقبض معاشاتهم في هذا الوقت الخالي من الزحام. قصدت أول شبّاك فارغ أحالني مَنْ وراءه

إلى شبّاك آخر يجلس خلفه رجل خمسينيّ أصلع بلحية طويلة محنّاة الأطراف وشنب حليق. لابدّ وأنّه من مخلّفات العشرية التّائبين. ازداد انقباض صدري. كان الموظّف الكهل منهمكًا في ترتيب دفاتر صغيرة مهترئة كمَن يتأهّب للمغادرة. مددت له ورقة الإشعار وبطاقة الهوية، فرفع إليّ نظرة متسائلة أرادها مغضوضة، وقال بنبرة حمّلها من السخرية ما لا تطيق:

- آه انتي بنت «الحاج» مختار الفحشوش؟

كانت تلك المرة الأولى التي يذكر فيها أحدهم، وهو من عامّة الناس، والدي بتلك الصفات أمامي. وكلمة فحشوش تعني الغارق في الملذّات. أجبت باقتضاب، لأقطع عليه دابر التمادي، محاولة كتم اضطرابي:

- المرحوم ما كانش حاج.

- نعرف. رحمه الله على كل حال.

ثمّ رفع نظره إلى شعري المسترسل وقال:

- لو كان جيتي بنتي ما نخليكش تخرجي عريانة.

وأضاف بالفصحى:

- كالعاريات الكاسيات.

ثم ناولني الطّرد وأدار البطاقة المعلّقة على الشبّاك إلى كلمة «مغلق».

أردت أن أصرخ في وجهه، وأقول له من يحسب نفسه ليصدر أحكامًا في حق من لا يعرفه؟ وأني أفضل ألف مرة أبًا «فحشوشًا»

على تقيّ جاهل. وبأنّي أعرف ديانتي أكثر منه. وبأنّي... وبأنّي...

أسكتني الذهول. وما أذهلني أكثر هو أنّنا لا زلنا نراوح. أسمع عبارات كانت تطلق قبل أكثر من عشر سنوات، ولم تكن تثير فينا أكثر من التّذمر من أشخاص يتدخّلون فيما لا يعنيهم. لأننا لم نكن نتوقّع أنها كانت تعبّد مسارات الجحيم.

بدت لي صورة والدي أكثر صفاءً من الوجه البشع لذلك المتحذلق. ضممت الطرد إلى صدري في طريق عودتي إلى المزرعة. كما لو كان قلبي سيخبرني عن فحواه. وكأنّ فيه خلاصي. ما إن أغلقت باب غرفتي حتى أخذت في تمزيق التغليف: كتاب وبطاقة بريدية هذا كلّ ما فيه. عبق أنفي برائحة أليفة. رُسمت على البطاقة سمكةٌ بجناحين كطائر الجنّة بألوان قزحية. وخلفها كلمتان بخطٍ منمّق: «هكذا أحبّك.» تأمّلت الصورة ثانية وحاولت مطابقتها مع العبارة المقتضبة. أمّا الكتاب فصفحة غلافه خاوية. في الصفحة الثانية عنوان بخط عريض: «الياقوتة». وبقيّة الصفحات فارغة.

صعقتني العبارة: «هكذا أحبّك»؟ ماذا تعني «هكذا»؟ هل يعني أنّه يحبّ كائنًا خرافيًا على شكل سمكة بجناحين؟ أزحت هذه الفكرة السخيفة. لكن هل يعقل أن يكون ذلك ما وصل إليه بعد تسعة أعوام من غياب لم يُعلن عنه ولم يبرّره؟ لا أنكر أني شعرت بخيبة كبيرة، أو ما يشبه سماع نكتة سمجة قد تثير سخرية السنوات الطويلة التي أمضيتها في وهم انتظار استعادة نشوة الليلة الأخيرة.

أخذت البطاقة وخرجت لأتمشّى في المزرعة. عرّجت على الإسطبل وتوجهّت صوب آباش. لم يكن آباش الذي امتطيته صغيرة

ويافعة، بل ابنه الذي أورثه شكله وطباعه. حين رأيته لأول مرّة بعد انتقالي للعيش في المزرعة بدا لي وكأنّه شعر بعلاقة تربطنا. أمال رأسه وتحسس وجهي بصدغيه بينما كنت أتلمّس جبهته، راقني أن أفكّر بأنّه تعبير عن فرحتينا باللقاء.

قفزت على صهوته الخالية من السرج وأنا لا زلت أتأمّل البطاقة الغامضة في محاولة لفهم ما كان واضحًا كعين الشمس. راح آباش في البداية يخبّ بجزل ورشاقة، ثم أخذ يحثّ الخطى ويعدو بسرعة تعاكس الهواء الذي يفتح منخريه ويطلق خصلات شعري في كلّ اتجاه. ذكّرني ذلك بتلك الطفلة التي تحتضنها ذراع والدها القويّة فوق حصان يسابق الريح. رفعت يدًا لأزيح الخصلات عن وجهي. حينها، تيقّنت أن البطاقة قد طارت.

رواية

هُوّارِيّة

أمي تناديني "ها" كما نخاطب البهائم. «ها وين راكي؟"، "ها وين كنتي؟"، "ها أرواحي ترفدي معايا المطرح". و"ها" في لهجة منطقة الغرب الجزائري اسم نداء للحث بمعنى هيّا أو تعال. واسمي في هواتف الزبائن "هاء" أيضاً أو "H" بالفرنسية، إمعاناً في سرّية العلاقة، وخشية افتضاح أمر التردد على عزّافة. طبعاً لا توجد أية فكرة ذكية وراء هذا الاختصار، مهارتي أو ذيوع صيتي مثلاً، مما زاد من عدد زوّاري، وبالتالي من دخلي. فصرت أطعم فقتي "هشوم" من المعلّبات المستوردة بدل سقط اللحم والدجاج الذي كان يتركه لي جزّار السوق البلدي. لكن يروقني أن أرى بعضاً من سخرية القدر في أن عكس "هاء" هو "آه". ليس لأني أحبّ أن أتحسّر على حظي التعس. أترك ذلك لزبائني أو لمرضاي.



إنعام بيّوض